جائزة غونكور للرواية الأولى من الأكاديمية الفرنسية - ٢٠١٠

ماذا جرى للمتوحش الأبيض

رواية

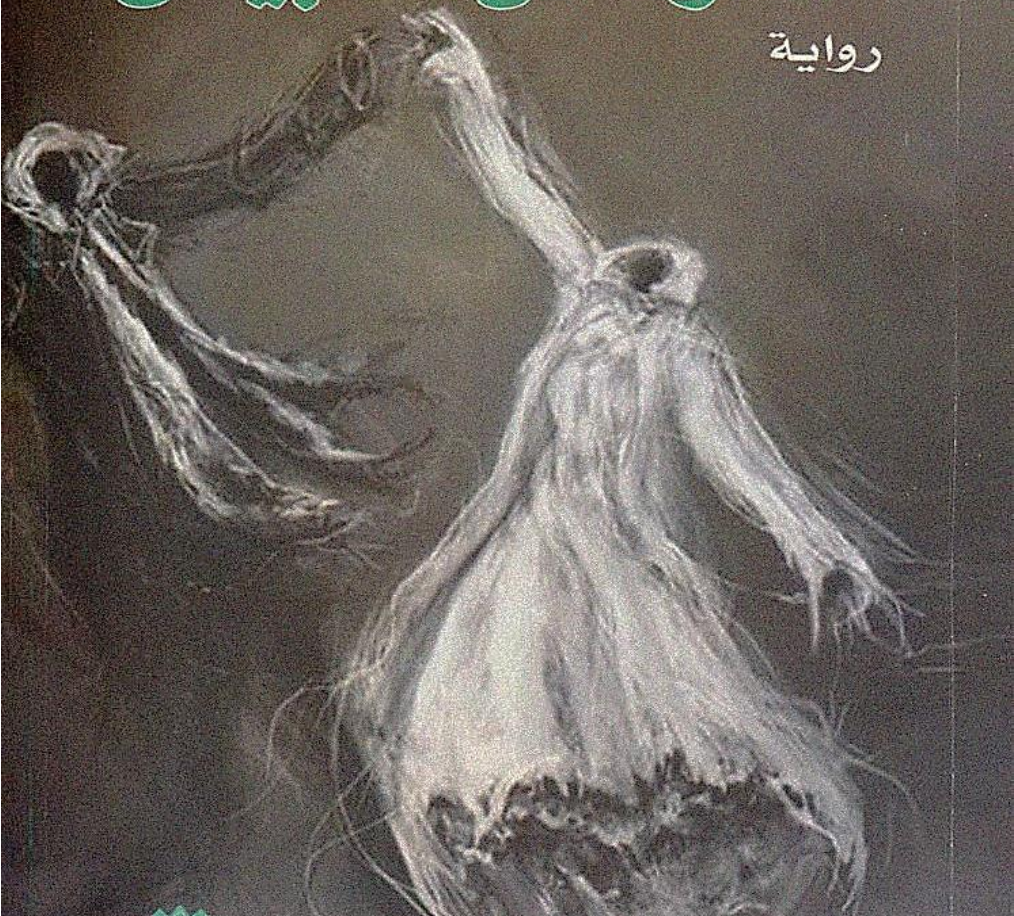

فرانسوا جارد

ترجمة: بشرى أبو قاسم

نينوى

فرانسوا جارد

ماذا جرى للمتوحش الأبيض؟

رواية

ترجمة

بشرى أبو قاسم

اسم الكتاب: ماذا جرى للمتوحش الأبيض «رواية»

تأليف: فرانسوا جارد

العنوان الأصلي للكتاب

FRANOIS GARDE.
Ce qu'il advint du sauvage blanc.
Gallimard
Janvier 2012

ترجمة: بشرى أبو قاسم

عدد الصفحات: 284

القياس: 14.5 ❖ 21.5

2013/1000م -1434هـ

© حقوق الطبع محفوظة لدار نينوى

بموجب العقد المبرم مع الناشر

الفرنسي - غاليمار

Copyright ninawa

سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963 +

هاتف: 2326985 11 963 +

E-mail: ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
facebook.darninawa

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة

القسم الفني ـ دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة،

اي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة كانت

دون إذن خطي مسبق من الناشر

فرانسوا جارد: كاتبٌ فرنسيٌ ولد عام 1959 في كاني.

وهو من كبار الموظفين الفرنسيين، تولى منصب السكرتير العام في حكومة «كاليدوني الجديدة» وهو الآن مساعد رئيس المحكمة الإدارية في ديجون. يقيم في باسي في سافواي التي تهبه الإلهام والوقت للكتابة.

حازت روايته الأولى «ماذا جرى للمتوحش الأبيض» المستوحاة من قصة حقيقية على عدة جوائز عالمية:

- جائزة غونكور للرواية الأولى من الأكاديمية الفرنسية
- جائزة أميريجيو - فيسبوسي
- جائزة إدمي روشوفوكولد
- الجائزة الأدبية لغراند ايسباس «الفضاءات الكبرى» موريس لوسي 2012

المترجمة

مُقَدِّمَة

في منتصف القرن التاسع عشر، هُجر «نارسيس بيللوتي» وهو بحارٌ فرنسي، على أحد شواطئ استراليا المجهولة على أنه قد لاقى مصرعه بشكلٍ غامضٍ وغادر طاقم سفينة «سان بول» غير آبهين بمصيره. ليمر بعدها ثمانية عشر عاماً وتعثر عليه سفينة «إنكليزية».

عاش عارياً وتغطي الوشوم جسده، تعلم الصيد من مضيفه وفقد لغته الأم وهكذا بدأت أسطورة المتوحش الأبيض.

ماذا جرى خلال هذه السنوات الثماني عشر؟ وكيف أصبح متوحشاً؟ هذا اللغز الذي يحاول فك رموزه «أوكتاف ڤالومبران» جغرافيٌّ كريم استقبل «المتوحش الأبيض» في سيدني وحصل على موافقة القنصل الفرنسي ليعهد بذاك الشاب، فَيدرس وضعه ويعيده إلى الحضارة. مهمةٌ مليئةٌ بالغرائب في قرنٍ من الزمن لم يكن يعرف بعد «علم الإناسة». حيث هيمنت الأحكام العرقية المسبقة على الأفكار بالإضافة للنظرية الوضعية لأوغست كونت.

تأسرنا هذه الرواية بلغتها الرفيعة وصياغتها المميزة ويشدنا سرد هذه المغامرة الشيقة بترابطٍ غاية بالمهارة والفطنة.

حقيقةً، يضم العملُ رؤيتين تتناوبان بشكلٍ منطقي شيّق، ليفسر الماضي الحاضر. فالرؤية الأولى تتناول حياة «نارسيس بيللوتي» في حضن قبيلةٍ من المنطقة وتروي كيف أمضى بينهم ثمانية عشر عاماً يداعبه في البدء بل يعذبه الأمل برؤية قاربٍ ما يشق العباب ثم يلفه النسيان رويداً

رويداً ويغرق في حياة المتوحشين الذين علموه الصيد والحلاقة والرقص، غاب اسمه أيضاً مع النسيان ليصبح «أمغلو» وترعاه السيدة العجوز كأمه ويصبح «وايـاك» الغلام الصغير صديقه فجهله بحياتهم جعله بنظرهم طفلاً.

أما الرؤية الثانية فنقرؤها عبر الرسائل الأربع عشرة التي كتبها «أوكتاف ڤالومبران» إلى رئيس الجمعية الجغرافية في باريس ليوضح التطور الذي تشهده مغامرته مع المتوحش الأبيض الذي غابت تقاليدُ حياته كبحارٍ مع أشرعة سفينته الغائبة، فيظهر لنا معاناته باسترجاعها بدءً بارتداء الثياب وتناول الطعام والتحدث بلغته الأم مروراً بعائلته التي تفتت بينه وبينهم روابط الدم فيقبل واقعه القديم كما يُقبل القدر، دون نقاش. بيد أنه آثر الصمت على الكلام حتى بعد أن استعاد قدرته على استخدام اللغة قائلاً: «الكلام يعني لي الموت».

يضعنا الكاتب بجدلٍ مع ما نقبله دون تفكير ملقياً الضوء على حضارة المتوحشين في تعاملهم مع الجنس والمال وفنون القتال إذ يقول «لابد أن تعيد هذه الحادثة التي دارت رحاها على أحد شواطئ استراليا التفكير بالإنسان بشكلٍ مختلف» مشيراً «لعلم آدم» مستنداً على ما يبديه نارسيس من براءةٍ حيال تعاملاتنا ولكن «للأسف تُهدر البراءة ما إن تبدو».

لابد من الإشارة إلى آخر رسالتين كتبتهما «أخت أوكتاف ڤالومبران» لنعرف كيف ابتلع النسيان هذه القصة بكل ما فيها من آلامٍ وأسرار.

١

ما إن وطأت قدمه قمم الصخور الشاطئية حتى أيقن أنه وحيد، فزورق الإنقاذ لم يعد مشدوداً إلى الشاطئ، ولم يعد يتهادى فوق الأمواج التركوازية.

فارق القارب الشراعي المرفأ عند مدخل الخليج وما من شراع يلوح في الأفق أغمض عينيه وهزَّ برأسه، لم يعد شيئاً يجدي نفعاً، لقد رحلوا.

خالجه شعورٌ غريبٌ بالذنب فعندما بلغ القاربُ الشاطئ، قسّم المساعد البحارين لثلاث مجموعات ليضاعف فرصهم بالعثور على نبع ماءٍ، ثلاثةٌ بحارين نحو الأشجار المهملة الممتدة على طول الشاطئ، وثلاثةٌ نحو الطرف المقابل للخليج الصخري المنسي أما الباقون فقد أرسلهم للعثور على حفرٍ والبحث عن كهفٍ أسفل الجدار الكلسي. في البدء حمل مع أصدقائه حجارةً مرجانية اللون، ولكن سرعان ما أيقن أن جهودهم ذهبت أدراج الريح إذ أن الأمطار الهاطلة على هذه الأراضي ترشحُ في الرمال، فبدا له أن الحفر على سبيل الصدفة لا يضاهي جدوى محاولة تقفي أثر حيواناتٍ تعيش هنا أو ربما بشر فيقودهم ذلك إلى الماء. فجأة حمل البحر إليه نسمةً عليلةً خفقت من وطأة الشمس الاستوائية.

بحركاتٍ بهلوانيةٍ رشيقة، بلغ قمة الصخرة ولم يستغرق سوى بضع دقائق إذ تعلق بيديه وارتكز على جذور وثغور الصخرة ثم لوّح للقارب إلا أن

القارب مضى في طريقه ولم يعره أحدٌ انتباهاً، فاستعاد مكانه في الداخل حيث ينبسط أمام ناظريه سهلٌ مترامي الأطراف تتقاسم فيه خصلات العشب والأشجار باختلاف أحجامها متوسطةً أو كبيرة، لها الصبغة ذاتها صبغة الأخضر المعدني والمظهر ذاته ذاك المظهر المغبر الذي يكشف النقاب عن بلد شحيح بالماء، ليس في هذا السهب الجاف ما يوحي بوجود نبع يتهافت إليه الجميع فما من بناء ولا حتى دخان.

يخفي هذا المظهر الخدّاع بين جنباته ساقيةً تحفر لها ثلماً في الأرض يزحف نحو الهضبة حتى يصبح عقيقاً صغيراً يزداد عمقاً وتوسعاً فتزداد الأشجار التي تحف به اخضراراً وحجماً إلى أن تشكل غيضةً زمرديةً تحطم كُدره ألوان الغابة.

يكثّف هذا الميلان الطبيعي مياه السهول خلال هطول الأمطار فيخلف مستنقعاً في حفرةٍ يغمرها الظل ولعل القطرة الأصغر والأكثر وحولةً تكفي لملء برميلٍ كبيرٍ ولإنقاذ المرضى.

مضى بطريقٍ مستقيم إلى أن وصل لمنخفضٍ مسطح ثم نزل حتى وطأ أعماق الأرض متعثرةً خطاه مابين نباتات الغيض باختلافها حيث الأدغال الخشبية بجذوعٍ متشابكة وجنباتٍ هزيلةٍ بأوراق لامعة تدفعه للانزلاق فيما بينها وكلما غاص ازداد التصاق وريقات نبتة الحُرف بعضها بالأخر، انتهى به المطاف إلى مدرجٍ صغيرٍ تحت بضعة أمتار من الغيض حيث لامس الأرض وشعر بالرطوبة إلا أنه لم يعثر لا على ساقية ولا على غدير، جثا وحكّ الأرض وحفرها بسكينه فالأرض سهلة التفتت ورطبة لدرجة أن حفر بساعده حفرةً عميقةً لكن دون جدوى إذ لم يعثر على الماء.

اعتراه شعورٌ عارمٌ بالإخفاق فهو لن يتقلد دور البطولة اليوم فنهض وعاد أدراجه نحو البحر، أسفل الوادي لتبقى جولته في الوادي الأخضر الرطب، أسفل الغابة الرمادية سره الدفين وهو الفائدة الصغيرة التي خلفتها

محاولته في هذا الخليج المجهول، لم يحث الخطى، تسلق المرتفعات البحرية التي تنوف على الخليج بخطىً هادئة.

اكتشف أنه وحيدٌ في هذا الخليج النائي فأطلق صرخةً لن تتمكن أي باخرة من سماعها شلَّ تفكيره وانتابه اضطرابٌ شديد فتصرف كما لو أن جنوناً قد مسه فنزل الصخرة بسرعة هائلة وقفز فوق الرمال ثم انحدر نحو الجزر ودخل في المياه حتى غمرت صدره علّه يقترب ما أمكن من القارب الهارب وصرخ من جديد صرخة غضب، نداء استغاثة، فكانت صرخته من البحر مثل صرخته من قمة الصخرة دون جدوى.

عاد القهقري عندما غمرت إحدى الأمواج رقبته وبقي ناظراه مبعثرين فوق مياه البحر.

كان يحتاج لمنطقةٍ مرتفعةٍ ليراقب الأفق فتسلق الصخرة تعتريه انفعالاتٌ متضاربة.

ماذا جرى؟ كم استغرقت جولته المنعزلة داخل الأرض. ساعةً على الأكثر في غضون ذلك، نادى قارب الإنقاذ إلا أنه لم يلحظ راية العودة إلى متن القارب كما لم يتناه لمسامعه صوتُ طلقة البندقية، رفع قارب سان بول المرساة وأنزل الشراع وتهيأ للإبحار ولكن لمَ؟

لمَ هذه السرعة؟ لمَ ذهبوا من دونه؟

ارتمى بأحضان شجرة وارفة الظلال بائساً كسير الجناح. تتبادر لمخيلته خلاصة خبرته البحرية التي تمخضت عن بضع جملٍ تبادلها ضباط البحرية مع رؤساء العمال إذ نبّه ضابط المناورات أن المرفأ ذا الرمل الخشن المتناثر فوق الصخور ليس ذو هيئة حسنة والبدر الساطع لليلتين أعطاه ضربات مدٍ قوية فلم يوافق القبطان على الولوج إلى هذا الخليج المجهول إلا ليحظواً بالماء للمرضى. وبدأت الريح الأرضية تزداد قوةً.

تراءى لهم سطح الماء رقراقاً كبحيرة فألقى الطمأنينة في نفوسهم وعند مدخل الخليج رحبت بهم دواماتٌ وأعاصير. لقد تحقق الآن مما تنبأ

به مسبقاً مراقب المرساة فالخليج محاط بحاجزٍ من المرجان يكاد يظهر للعيان تاركاً معبرين ضيقين فقط. وصلوا صدفة بأقصى المد وعبروا المعبر الرئيسي فدخلوه دون عائق ودون أن يساورهم أدنى شك. لوحت بداية الجزر بالخطر مع وجود مرفأ متوسط وريح تزداد قوة لن يجازف القبطان ليقع بين شباك هذا الخليج فكان عليه أن يبارح المكان بأقصى سرعة بينما كان هو يناور بين الأدغال، لا بد أن مساعد القبطان أعلن بأنه قد فقد أحد رجاله لكن العودة لليابسة والبحث عن مفقود ثم الإبحار من جديد سيستغرق ساعة أخرى لذا وجب الهروب في البحر لإنقاذ السفينة.

هدّأت الحوارات والأوامر المتتالية التي تخيلها من روعه، لقد كان خيار القبطان مصيباً إنه خيار بحار. لم يرَ الأمر على أنهم تركوه عمداً أو خيانة وجهت إليه بشكلٍ شخصي لكنها نتيجة خلفها وضعٌ محفوفٌ بالمخاطر. خالف الأوامر بابتعاده عن المجموعة وهذا خطأ يستحق عليه العقاب، إن ضربات مساعد القبطان لا تقلقه فقد اعتاد هذا في ورشة الأحذية مع أبيه وفي المدرسة وفي الطرف الأمامي للسفينة، إنه يأمل أن يفلت من العقاب وبعد مضي شهرين أو ثلاثة سيقهقهون لذكر هذه المغامرة المشؤومة.

ازداد هبوب الريح وراء الخليج وبدأ البحرُ الخالِ بالتكور ليرسم لفائفاً تتكسر على حاجز المرجان. رمى إحدى الحجارة عفوياً على كومةٍ من الأغصان الميتة ظهرت سحلية بلون فضي قفزت بين شجر العليق ثم توقفت وهزّت برأسها المرقط ثمّ اختفت.

أيقن فقط الوضع الذي حلّ به فانتابه الخوف. مهجورٌ صفر اليدين على شاطئ منفيٍّ تحيط به حيواناتٌ متوحشة ووحوشٌ من أكلي لحوم البشر وما إن يرخي الليل سدوله حتى تنقض وتفترسه. كما ليس بحوزته ما يسد به الرمق أو ما يروي به الظمأ أو ما يوقد به النار، تقتصر ثروته برمتها على سكينٍ معلقٍ بحزامه وثياب تدثره.

يضيء البحر الهائج بصيص أمل بعودة السفينة قبل هبوط الليل وإلا فعليه أن يفترش الأرض ليخلد للنوم بيد أنه لا يريد أن يفارق برج المراقبة تلك القمة النائفة على الخليج ومحيطه. ساورته فكرةٌ دفاعية ضبابية فانكب يشغل نفسه بقطع بضعٍ من أغصانِ أشجارٍ مستقيمة ثم يقشرها ويشذبها ليحصل على حزمةٍ من الخشب المدبب كحرابٍ قصيرةٍ ونبالٍ ثخينةٍ فألقت هذه الأسلحةً مع أنها بدائية الطمأنينة بنفسه المضطربة.

أثقل الشعور بالجوع والوحدة كاهله كتعبٍ مبرحٍ والشمس تنزل عن عرشها لتنبئه بأنه بقي للنهار ساعة وللنور ساعتين فتساءل في قرارة نفسه أين سيمضي ليلته وتعلن الريح التي تزداد قوةً عن المطر وتحذره من النوم أعلى الجرف الصخري، نزل إلى الوادي فعثر على مكانٍ كثير الرمل تحت الأشجار ثم باشر بتشييد ملجأ له، كسَّر بضعة أغصانٍ وشبكها بعضها ببعض ثم أسندها إلى شجرتين ملتصقتين تقريباً. هناك، ليس ببعيد نمت سراخس طويلة فصنع منها حضناً ينفع للسرير والجدران. فقد يقيه هذا الكوخ المتواضع من الطقس السيء كما أنه قد ينهار إذا ما أراد أن ينقض عليه حيوان أو وحش وبذلك سيتنبه ويمسك بسهامه فتكلف حياته ثمناً غالياً.

يكاد قرص الشمس يخبو فسارع إلى موقع المراقبة، تتسابق غيومٌ كبيرة في عتمة السماء، يرتجف البحر كبحيرةٍ من القطران تخطها نصولٌ فضية، تتكسر الأمواج على الحاجز المرجاني مصدرة صخباً يصمُّ الآذان وما من بارقة أمل ولا بصيص نور يلوح في عرض البحر.

ستكون هذه ليلته الأولى على اليابسة منذ أن رسا في منطقة «الكاب»، رسمت ذكرى الكاب على وجهه ابتسامةً رغماً عنه فخلال عبوره من بوردو إلى الكاب حظي بأمسيتين على اليابسة حيث جال مع ثلاثةٍ من أصدقاءه في أرجاء الميناء الغريب فرشفوا النبيذ الأبيض في التلال المجاورة

وهم يرطنون باللغة الانكليزية والهولندية والاسبانية ونال إعجابهم النسيج والقلادات التي ترتديها الزنجيات.

تسكعوا في الأمسية الأولى دون قصدٍ متنقلين من الشرفة إلى الحانة ومن الحانة إلى الشرفة مفرغين أكواباً وأباريقاً. أما في الحانة الرابعة فقد وقعت مشاجرة بين بحارين فرنسيين وانكليز فما كان منهم سوى الانحياز لأبناء وطنهم فانزلوا بالانكليز ضرباً مبرحاً ثم احتفلوا بالحانة المجاورة بهروب خصومهم بحضور أصدقائهم الجدد ولم يعد أحدٌ يذكر شيئاً عما جرى ولا كيف تمكنوا من العودة لمتن السفينة.

شهدت المدينة للمرة الثانية بعد مرور ليلتين على أمسيةٍ مميزة، إذ تناولوا وجبةً من اللحم والخضار الطازجة ثم زاروا أحد الأماكن التي نصح بها القدماء وقد أُشير إليه بفانوسٍ أحمر في زقاقٍ صغيرٍ، دخلوا المكان وجلسوا إلى المائدة ثم طلبوا شراباً يضفي المزاج عليهم وبدأت الفتيات بالتتالي راقصاتٍ فنهض البحارون الأربعة بسرعةٍ اختاروا وأوفوا السعر.

وجد نفسه مع الزنجية الأكثر عتمة في القسمة فسحبته نحو أحد الأكواخ القشية الموجودة عند نهاية الفناء. بما أنها لا تفهم الفرنسية ابتسم في وجهها ابتسامة كبيرةً كاشفةً عن قرارٍ مبهم فهمهت بتغريدةٍ طويلة ثم أوصدت الباب، في الداخل هناك فراشٌ من القش وحوض وشمعة. نزع ملابسه في العتمة ورقد بجوارها تحمل إليه عذوبة الهواء أنات أصدقاءه عبر ثقوب الجدران لكنه لم يعد يأبه إلا بلذته الشخصية.

شتت طَرقاتٌ جلفة على الباب غفوةً سرت في أحداقه ناعماً بحرارة ذاك الجسد الغامق، مضى الوقت المسموح والمدفوع فارتدى ملابسه والتحق بأصدقائه ومضوا لرشف أخر إبريق فيقدموا تعليقاتٍ تنطوي على تفاخرٍ بالإقدام والجرأة.

داعب نور الفسق زرقة السماء فعاد لكوخه متسللاً خوفاً من أن ينهدم ثم تمدد على سريره السرخسي، فقد كان هذا المرقد الرملي قاسياً

لكنه مسطحاً وثابتاً علّه يعتاد على التأرجح في سريره المعلّق، غالباً ما عاد بذاكرته إلى تلك المومس نادماً أنه لم يسلها عن اسمها، إنه لم يعد يذكر وجهها الصغير الذي بالكاد لمحه بل رائحة جسدها وبرغلة بشرتها. سخر حينها أصدقاؤه من هذه البشرة الداكنة حقاً لم تنطوِ قصص حبه أثناء الرسو على الشواطئ المختلفة على حب امرأة ببشرةٍ داكنةٍ إلى هذا الحد، لا يهم فهذه البشرة الداكنة هيمنت على لياليه في سريره الهزاز والآن إنه يتحرق شوقاً لأحلامه هذه وهو ممدد على ارض مجهولة.

سارت الأمور بشكل سيء بعد منطقة «الكاب» إذ وقع اختيار الريان على وجهةٍ جنوبية بشكلٍ حاد هادفاً استغلال ريح الشرق لكنهم وقعوا في شرك عاصفةٍ مع ندفٍ من الثلج في عرض بحرٍ قاسٍ ومتقاطع، مضت حوالي ستة أيام لا راحة فيها محاولين اقتحام المخاطر إلى أن غادروا ووصلوا إلى مناطق أكثر صفاء، كابد الطاقم والقارب الكثير: الصارية المقطوعة والأشرعة الممزقة و رضوضٌ مختلفةٌ كما أن الفلام الشراعي وهو من منطقة الرمل وقع ضحية كسرٍ بالكتف جراء سقوطه من أعلى الشراع، بذل المعاون ما بوسعه لتجبير الكسر، كما تسببت العاصفة بالضرر على الخزانات وألحقت الأذى ببعض براميل المياه.

أبحر على متن السفينة، في الكاب، شابٌ بريطاني من جويلفينك، ادّعى أنه هجر باخرةً انكليزية، قبله الريان بين رجاله لافتقاره للأيادي العاملة رغم ما بدا على الفتى من ضعفٍ.

بقي في منأى خلال العاصفة رغم شتائم الجميع ثم عُرف أنه مريض لقد همهم أنه لم يُهجر بل تخلصوا منه لضعفه. حاول المعاون مساعدته ببعضٍ من علاجاته ولكن بدا واضحاً أن البريطاني يذبل وبعد مضي عشرة أيام على الإبحار توفي. لم يكن هناك متسعٌ من الوقت ولا الرغبة تدفع أحداً على متن السفينة من التعرف على البريطاني لكن موت أحد البحارة يلقي بظلال الحزن دائماً.

علّق الربان أمله بملء الماء من جزيرة «سان بول» التي تشير الخريطة على توسطها المحيط الهندي علّه يخفف من آلام الجوع، حينها كان البحر لطيفاً ينتفض أحياناً بأمواجٍ صاخبة مرتفعةً جداً، أسراب الضباب تنبثق دون عناء من سماءٍ بلون الحليب. عثروا على جزيرة سان بول وطافوا حولها إنها بركانٌ خامد لا أثر لنهرٍ أو لساقية وما من مكانٍ للمرسى أو حتى لمرفأ.

شرح المعاون لهم أنه لا يملكون خياراً آخراً سوى أن يتابعوا إبحارهم نحو استراليا فالجانب الغربي الشاسع غدّار ورملي لا ماء لهم فيه ولا مأوى، والجانب الجنوبي يكتنفه الغموض شيئاً ما. بنى الانكليز سجنين أحدهما في سيدني على الجانب الشرقي والآخر في «هوبارت تاون» في «تاسمانيا» سيجربون الجانب الشمالي فهم على ثقة أنهم سيمضون حتى جاوا أو إحدى التلال الهولندية في جزر سوند رغم ما يشعرون به من حاجة.

توقفت الريح تقريباً بعد سان بول وتلك النسمة اللطيفة لا تدفعهم نحو الجنوب، الأشرعة الخفاقة تصرُ صريراً حريراً رخواً، أرهق الحرُ الرطب كاهلهم وعانوا من تقنين الماء الذي فرضه الربان فقد مضى على مغادرتهم لبوردو شهرين أما البحار المريض فهاهو قابعٌ يئنُ تحت الجسر ليقع بعد برهة كلٌ من النجار والبحار الناشئ ذي الخمسة عشر عاماً مرضى بدورهم.

عادت الريح لكنها هبت من الجهة الأمامية للسفينة فمحت بوقت قصير تقدمهم الحثيث خلال خمسة أيام مضت، أسبل البحر الدافئ والهواء الساخن على متن الباخرة رطوبة لا تطاق، جثم الجريح والمرضى يتأوهون أسفل الصارية فشحب وجه الربان وهو يكرر بصوت خافت رحلاته الميمونة السابقة إلى الصين، منفردا في الطرف الأمامي يفتقد لغناء الرجال المسائي.

انتشل الموت البحار ذا الخمسة عشر عاما فخيم الحزن على طاقم

السفينة الذين شهدوا احتضارا شاقا لصبي طيب ساذج من منطقة كيمبر «غربي فرنسا». هناك في الأفق حبيبات مطر تخط السماء لكن يبدو أنها لا تريد أن تروي سفينتهم العطشى، ثم سقط بحار من مدينة «سيت» جنوبي فرنسا بالمرض هو الآخر مما زاد اضطراب الربان إذ سُمع صراخه مع المعاون.

أخيراً، هبت نسمة طيبة جنوبية غربية مبددة عناء أسبوعين يصارعون فيه مع ريح معدومة أو معاكسة وها قد أصبح الهواء قابلا للاستنشاق ولكن دون أن يفهم أحد السبب وقع بحارين آخرين بالمرض أيضا. ميتان وجريح وثلاثة مرضى لم تعد الأيادي تكفي لبسط الأشرعة رغم أن الريح سارت كما تشتهي السفن بيد أن الربان لم يتوصل إلى بسط سوى شراع صغير واحد، حصص الماء تضاء لت أكثر فأكثر.

مخروا عباب البحر من الجانب الغربي لاستراليا ومن الرأس الشمالي الغربي إلى أن دخلوا في خليج «كاربنتاري» وحاذوا اليابسة لم يميزوا على مد النظر سوى أشجار المانغروف الاستوائية الفظّة، فلم يجرؤ الربان أن يعطي إيعازاً بالاقتراب أكثر لتفحص المكان فابتعدوا مساءً عن الشاطئ ليعودوا إليه في الصباح. يبدو أن بحر أرافورا لا يريد أن ينته.

تكاد جزر مضيق «توريس» تصبح على مرمى النظر وذلك عند نهاية أسبوع من هذا الإبحار الحذر غير أن الربان لا يعتزم الرسو في تلك الجزر خوفاً من هجمات الوحوش. عادت الحرارة ترهق كاهل الطاقم والمرضى لا يشهدون تحسناً في أوضاعهم.

اتجهت السفينة جنوباً محاولةً العثور على معبرٍ يخلصها من ورطتها ما بين جزرٍ رملية وأحواض مرجانية بارزة تهدد ببقر الهيكل. في اليوم الثالث وبعد أن نجحوا بالاقتراب كفايةً من اليابسة عثروا على خليجٍ لطيفٍ محاط بحزامٍ من الأشجار خلف شبه جزيرةٍ صخرية. قرر الربان استكشافها معلناً أمام الجميع أنه سيعدل عن الإبحار نحو استراليا إذا ما

تبين أن هذه أرضٌ قاحلةٌ كغيرها وسيتجه حينها نحو جاوا. أُنزلت قوارب الإنقاذ ونودي البحارة على يسار السفينة شدّوا بحزم حتى رسوا على الشاطئ مع أربع براميل لملأها بماءٍ ندي.

حقاً لقد سارت الأمور بشكلٍ سيء بعد «الكاب» وهاهو مستلقٍ على فراشه السرخسي بعد أن ضحى من أجل كوب ماءٍ.

خطفه النوم ناسياً جوعه، قفز لعدة مرات في ليلته الأولى متهيئ أنه قد يقع فريسة خديعة من طاقم السفينة متلذذاً بالطمأنينة الصادرة عن قرقعة الأقدام الحافية على الألواح الخشبية وعن شخير أصدقائه، لا..... إن الهدوء يهيمن على هذه الأرض المجهولة حيث احتل فراشه الورقي مكان سريره الهزاز، يغمض جفنيه مستغرباً أنه ما زال على قيد الحياة.

استعاد عند حلول الصباح أحداث المساء المنصرم فنهض قافزاً متسبباً بانهيار الكوخ البدائي. شارفت الشمس على البزوغ وما من تغريدة عصفور ترافقها. صعد الوادي الممتد إلى عالية النهر ونقطة المراقبة، أيقن بلمح البصر أن اليوم لن يتم إنقاذه فالغيوم المثقلة تتراكض في سماء رمادية منخفضة والبحر يزبد في عرضه وتتحطم نصولٌ فضية مرتفعة على الصخرة الشاطئية الكبيرة التي تغلق الخليج وتجاوزت الأمواج المتصالبة مستوى المياه فلن يخاطر أي بحارٍ بسفينته.

انزلق على الأرض مثقلاً بشعورٍ خانقٍ بالوحدة وأرخى رأسه على ركبتيه يتصارع مع دموعٍ غيظٍ تجتاحه، وقد التصق لسانه بحنكه عطشاً، هناك عند المرتفعات البحرية تغرق نسمات الهواء الرمل لتحوله لإعصارٍ سريع الزوال.

نزل إلى الشاطئ واجتاز الخليج نحو الجنوب حيث علم بأن الأشجار الغامضة التي اكتشفها ليلة أمس غابةٌ من شجر المانغروف الاستوائي تسبح جذوعها في مياهٍ موحلة أجاج تحمي تحتها مخلوقات لا يعلم بها إلا الله، حاذى القناة معطياً ظهره للبحر حيث انخفض النجد ليصبح سهلاً لا متناهٍ

وامتد المستنقع على مرمى النظر نحو الداخل، عاد على عقبيه بائساً فماذا عساه يفعل إذا ما عثر على ممر؟ سيجتاز الغابة ليصل إلى الشاطئ التالي؟ لماذا؟ ماذا سيفعل هناك؟

إن المكان الأوروبي المأهول الذي كان يعرفه هو سيدني ويقع على بعد مئات الأميال ولا ماء لديه ولا طعام ولا خريطة، لن يحالفه الحظ بالوصول إليها ثم إن النجدة لن تبحث عنه إلا حيث فقدته.

ازدادت قوة الريح جاعلةً الأغصان تطقطق والغيوم السوداء تتراكض ولا تمطر إلا بعيداً في الأفق، البحر يغلي رامياً بالطحالب الطويلة على الشاطئ، جَزَرَ البحرُ ليكشف عن صخور. دخل إلى الماء ليستكشف كومة المرجان فجمع خمس صدفاتٍ شبيهةٍ ببلح البحر، هل هي قابلة للأكل؟ لم يتردد بيد أن هذه الغرامات القليلة من النسيج الرخو أيقظت عطشه وجوعه.

لاذ بفيء شجرة أوكاليبتوس بعد أن أصابه الدوار ونام رامياً مصائبه جانباً غير آبهٍ بأمانه فهنا لا يعيش لا حيوان متوحش ولا إنسان.

عندما استيقظ كان الطقس شديد السوء قد مضى مخلّفاً وراءه سماءً رصاصية اللون وحرارة ثقيلة. سار نحو الرأس الصخري الذي يغلق الخليج من جهة الشمال لا أمل له ولا خطةً إنما أراد أن يشغل نفسه. لن يثمر هذا التكديس العشوائي لأكوامٍ من المرجان العاقر عن نبعٍ يسقيه. تسلّق إلى القمة فعثر على شاطئٍ جداري يترك خلفه صخوراً صغيرة تقطعها خلجانٌ صغيرة لا يمكن الولوج إليها من البحر، ينبسط النجد من هناك مسبلاً لوناً أخضراً مغبراً على نباتاته الرتيبة.

خطر له صنع فخٍ للسمك عندما رأى انخفاض مستوى المد والجزر، تناهى مرةً إلى سمعه الحديث عن ذلك كما أنه لن يخسر شيئاً بالمحاولة. حرّك خلال ساعةٍ تقريباً قوالب وحجارة مشيداً جداراً صغيراً على شكل قوسٍ دائري ينحني نحو الشاطئ، هنا قد تلجأ الأسماك

الخرقاء هرباً من المد العالي وسيكون لطفاً منها أن تقفز بين يديه العاريتين في الجزر القادم.

سيطر عليه هوس الجوع وعلى وجه الخصوص العطش ما إن انتهى من عمله، لقد كان الماء مقنناً منذ أسبوعين وهو لم يبول منذ أكثر من يوم وهذا مؤشرٌ مقلقٌ إنه يعلم ذلك. لم يعثر على ما يسد الرمق فالأشجار غير مثمرة والسويقات الليفية لا تخبأ في جوفها أي احتياطي يؤكل فعاد ليجلس في نقطة المراقبة في الظل أعلى الجرف الصغير.

لاح الغسق ووجه البحر يتسطح رويداً رويداً تهدد سكونه موجةٌ صاخبةٌ رمتها العاصفة. إنه وقت حساء المساء على متن سفينة سان بول لتجمعهم بعد العمل قصصٌ يرونها وأغانٍ ينشدونها قبل هبوط الليل. هل عساهم يتكلمون عنه؟ هل افتقدوا إليه؟ على متن السفينة، ينقص الماء ويتأوه الجريح ويأنُ المرضى.

لا بدَّ أن الربَّان يتحرق شوقاً لاستعادته ثم يكمل من جديد طريقه إلى جاوا والصين، سيقدر حتماً أنه نال عقاباً مناسباً على فكرته الغبية بالتجول وحيداً مخالفاً الأوامر فقط ليرى ماذا يوجد في الطرف الآخر من الجرف الصخري، يومين قضاهما وحيداً على اليابسة دون ماء ولا طعام ولا أخبار يلقنوه درساً لن ينساه. لعل الباخرة ستجوب البحر على مقربة من الخليج فالمد مرتفعٌ عند الفجر وستراقب زورق الإنقاذ القادم لاستعادته وسيرهقه المجذفين الذين أخذهم القلق عليه بالسخرية ما إن يجدونه لكنهم سيمدون له مطرة ماء وبسكويت.

كلا إنه يخدع نفسه. فالماء مقننٌ على متن السفينة الشراعية وهناك جريحٌ وثلاثةُ مرضى؟ لا بد أن الربَّان سيختار إنقاذ الأربعة دون أن يهدر وقتاً ثميناً بالبحث عن متهورٍ. الانتظار في عرض البحر لسحب السفينة إلى اليابسة بعد أن هدأت العاصفة لما لا جدوى له: من أجل بحارٍ ضائعٍ قد افترسته الحيوانات أو التهمته الضواري؟ من سيجازف بحياة أربعةٍ من

رجاله لاحتمال إنقاذ رجلٍ واحدٍ لعله مات مسبقاً؟ يحتم المنطق عليهم الإبحار بالسرعة القصوى إلى جاوا ما إن يعود زورق الإنقاذ الفار تحت العاصفة.

مرَّ يومان حتى الآن وسان بول تمخر العباب نحو الشمال وهو يراقب من أعلى مجثمه ولم يأت أحدٌ لنجدته.

ولكن لا. إذا ما اتخذ الربان مثل هذا القرار اللا إنساني فإن الطاقم بكامله سيتمرد ليرغمه على إنقاذه! الطاقم بكامله؟ من الذي سيرفع صوته من أجله؟ بيير؟ جوزيف؟ إيفون؟ إن حلفاءه المحتملون يحصون على أصابع اليد الواحدة. تردد؟ وعاد يقول من جديد: لقد تركوه.

باتت هذه التأملات من غير فائدة مرجوَّة كما أنها غير سليمة، عليه أن يهتم فقط ببقائه على قيد الحياة أولاً ينبغي أن يشرب هذا هو الأمر الوحيد الذي لا هوادة فيه.

نهض بسرعة فأخذه الدوار، ارتكز على الجذع ليتماسك فلا يجثو من جديدٍ على ركبتيه والجوع ما زال يقوِّض جسده، توجه نحو الجرف الصخري مواجهاً البحر الذي عتم لونه الأزرق الغامض ووضع يديه على فيه كمكبر صوت وصرخ بملأ فمه: «أنا نارسيس بيللوتي، بحارٌ من سفينة الصيد «سان بول»». لم تلق كلماته الضائعة صدىً في هذا الأفق اللا محدود بيد أن هذا الإعلان قد أضفى عليه حفنةً من كرامة مهدورة.

أوحت إليه تلك الأكوام المبعثرة على الرمل بفكرةٍ فنزل من جديد إلى الشاطئ وباشر بوضع قطع الصخور والحجارة على شكل سهمٍ يشير إلى الصخرة الشاطئية والعقيق حيثُ ينام فإذا ما قدم أصدقاؤه لنجدته حين غيابه سيدركون أنه على قيد الحياة وسيتجهون إلى حيث يعثرون عليه. شرع بالعمل، حمل الحجارة الأكبر التي يتمكن من حملها ورماها الواحدة بجانب الأخرى مغلقاً بذلك الثقوب الموجودة في الصخور لا بل أبعد كل الحجارة الأخرى ليتضح عمله على الرمل النظيف.

حوّل نفسه إلى حفّار خلال ساعتين من الوقت كما أراد أن يثبت لنفسه أنه وبالرغم من العطش فهو قادرٌ على رفع هذه الكتل.

لمح عمله من أعلى الجرف الصخري، يصل طول السهم إلى خمسة أمتارٍ تقريباً بجناحين مرسومين بشكلٍ جيد، لا يعقل ألا تلحظه السفن وتدرك أنه نداءٌ يجب إتباعه. أي باخرةٍ هذه التي ستقاوم إغراء هذه الرسالة التي قد تشير لكنزٍ؟ قام خلال طريقه إلى الكوخ بتكسير بعض الأغصان مشيراً بذلك إلى مكانه، لم يعد يعنيه أن يشير إلى مكانه لمهاجمين افتراضيين من أجل نجدةٍ تصبح يوماً بعد يوم مجرد حلم.

أبعد الأغصان المنهارة من على مرقده دون أن يكترث بوضعها في مكانها كحصنٍ وهمي ثم تمدد على سريره السرخسي، التصق لسانه بحنكه جافاً كالحجر وطعمٌ مرارة صفراء الكبد يجتاح حلقه إنه يكابد ألماً في عضلات ذراعيه وساقيه، غاص بين الأوراق وأجهش بالبكاء بكاءً هادئاً لا دموع له ولا أنين مطلقاً زفرات ساكنة إلى أن غلبه النعاس.

كان اليوم الثالث أكثر سوءاً إذ استيقظ خائر القوى فارغ الرأس مرتجف الساقين، تحمل إليه السماء الزرقاء نسمة لطيفة لم تخفف من وطأة الحر والرطوبة، تابع دربه إلى القمة: لا سفينة ولا شراع يلوحان بالأفق فعاد للنوم في الغبار أو لعله سقط فاقداً الوعي وعندما نهض كانت الشمس بأوجها والجزر بأقصاه. هبط إلى الرمل الحارق ليحصل على نتاج مصيدته لكن الفخ لم يؤتِ أكله إنه فارغ، ليس لديه أي فكرة أخرى ليتزود بما يؤكل ويشرب، تبدو هذه الأرض المجهولة قاحلةً مقفرةً كالصحراء العربية. إنه يتخيل أن رأى نوعاً من الأرانب الضخمة الصهباء يقفز على قائمتيه الخلفيتين هناك في الأعلى فوق الجرف الصخري لكنه اختفى بلمح البصر.

صعد ليستلقي أسفل شجرته مقابل الخليج الفارغ، لم يكن قادراً على القيام بأي مشروع مهما صغر حتى أنه عجز عن تذكر وجود أصدقائه

في سان بول تراءى أمامه لحده في كنيسة القرية وقد لزم عدة أشهر حتى وصل خبر ضياعه إلى أهله، سيقرؤون القدّاس مع أخيه لوسيان الحذّاء المتمرن وأخته الصغيرة إيميلي التي كانت تحتفي به في كل مرةٍ نادرةٍ يمرُّ بها لما يحمله لها من دمى.

حضر القدّاس كطفلِ المذبح، قداس صيادٍ شابٍ من القرية ضائعاً في غياهب البحر فرأى الضيق الذي يقبض على والديه والذي ازداد مراراً بغياب النعش.

لقد حل البكر مكان أبيه في ورشة الأحذية أما الصغير فكان عليه أن يجرب حظه بعيداً عنهم في عمر الخامسة عشر فأبحر ما إن فتح عينيه على هذه الحياة كنوتي حدث ولم يخيل لأحد أنه سينتهي على هذا المنوال بقبضة حظ سيء، وحده في مكانٍ مهجورٍ بشكل مطلق، لا يرفرف حوله طيفٌ لابن آدم، لم يبقِ إرثاً ليذكره أحدٌ إنه يرتجف بين يدي هذه الأفكار السوداء كما لو أنه قد أصيب بالحمى لكنها لم تتمكن من إخماد عطشه الشنيع الذي يحرق حلقه.

تحوم حوله فكرة أن ينهي حياته هنا فيرمي بنفسه من أعلى الجرف شكاً على رأسه. لقد كان هذا الخيار الوحيد ليذهب إلى الموت أو فلينتظر الموت؟ لقد استعاد تعاليم الديانة المسيحية بيد أنها لم تجدِ نفعاً بإغاثته لم يعد يحظى إلا بهذه الحرية وهو لا يرغب بالتخلي عنها، نهض وحدّق نحو الأسفل فرأى كومة الألواح المرجانية.....

غطَّ في نومٍ عميق متناسياً آلامه.....

غابت الشمس رامية بأزهارها الهندية برتقالية اللون خلف الأفق، تنثره على الغابة التي لا لون لها، أيقظه شعورٌ بالبرد، عادت الريح لتكنس من جديد القمة حيث يرقد. لا يضاهي جوعه المبرح العطش الذي ينهشه، نهض بحذرٍ وعاد إلى مخدعه الذي توارى فيه خلال الليلتين الماضيتين. رأسهُ مصابٌ بالدوار وخطواته المترنحة تحثانه على بذلِ جهدٍ وإرادة، كما

بدا له أنه من الأبسط ترك نفسه يقع هنا حيث هو منتظراً النهاية، عليه أن يجد كوخه وسريره السرخسي، يترنح كرجلٍ ثملٍ لا يفكر بشيء فوصل إلى العقيق ثم نزله أليس هذا الدرب الرملي بين الجذوع نهاية؟ انهار أمام مخدعه ولم يعد يشعر بالهواء، التوى على نفسه وغاب عن الوعي.

كابد مع آلام اليوم الرابع احتضاراً لا نهاية له، لم يعد لديه القوة ليعود إلى الشاطئ ولا ليذهب إلى الجرف الصخري بقي نائماً دون حراك إلى أن عانقته رطوبة المساء فدفعته للتخلي عن فكرة الموت هنا على الرمال بعيداً عن كل شيء.

الرسالة الأولى

سيدي الخامس من آذار لعام 1861

السيد الرئيس.

منذ أكثر من أربعِ سنواتٍ، منحتني شرف استقبالي للمرة الأولى حيث وافقتم على فتح بابكم لشابٍ مجهولٍ أرسل إليكم ليخبركم عن رغبته بخدمة العلم وخاصة الجغرافية.

في ذلك المكتب حيث رأت بعثات كبيرةٌ النور، صرتم جزءاً من مشروعي الذي سخرت له الأدوات التي حفظناها لجيلين متتالين في عائلتنا ولم يكن ذلك في سبيل دعم البطالة الريفية الشريفة وإنما في سبيل اكتشاف الكوكب نفعاً للتقدم وفخراً لبلادنا.

أصغيت إلي باهتمام أبوي وأنا أصف طموحي الذي لم يرتكز على أمرٍ معينٍ فأجبتني بنقطتين.

النقطة الأولى هي أن السفر مهنةٌ ليس بتسليةٍ. لم أفهم ذلك مباشرة بل لم أعي قوة ودقة هذه الكلمات حتى خلال السنة الأولى لاحقاً، كم تحققتُ من قيمة هذه الحكمة! كان عليَّ أن أتقن السفر بعينين مفتوحتين، أن أخطأ كثيراً وأُخدع كثيراً، وأن أضيع وقتي لأستفيد منه وأن أقف مكاني مراقباً حركة الحياة. أنتم تعرفون هذا أفضل مني بعد أن شددتم الرحال كثيراً كما تدركون جيداً أن كل مسافرٍ يبدأ الترحال كمتمرن لا يتمكن أحدٌ أن يدخر في مثل هذه المحاولة.

النقطة الثانية تدور حول اختيار الوجهة: نحو إفريقيا أو باتجاه القطبين أو نحو المحيط الهادئ، لقد كانت هذه الرهانات الأساسية للرحلات القادمة وسيبقى دائماً.

لا بد أنكم نسيتم هذا الحوار الذي كنتم تخوضونه مع عددٍ من الشبان الأغرار، أم أنا فإنني احتفظ بذكرى دقيقةٍ منه كإيعازٍ آتٍ من أعلى قمة «سيناء» مازلت ألمحُ بارقة سخرية في أحداقكم العطوفة. للحظةٍ، تبادر لذهنكم أنه سيمضي إلى آخر محطة قطار على مقربةٍ من بواخر الخط لا أبعد من ذلك، إلا أنكم طرحتم عليَّ المخاطر المحفوفة بالجهات الثلاثة: ففي القطبين ستواجه البرد القارس ومصاعب الإبحار في الجليد ثم شعورك بالمنفى، في إفريقيا ستواجه الصراعات مابين ملوك الزنوج والتجار العرب والمغامرين الانكليز والمبشرين من كافة الأديان أما في المحيط الهادئ فأمامك المسافات الشاسعة والمجهول.

مدججاً بهذا الزاد، جذبني الإبحار فوازنت ما بين هذه الآفاق الثلاثة، ولأسبابٍ لا محل لها هنا بل تبدو مخطئةً من جهة أخرى، اخترت القطب وشددت الرحال نحو أيسلندا.

إن الأشهر العشر التي قضيتها على الجانب الشرقي في قريةٍ تعدُ حوالي خمسين نسمة عبدوا لي الطريق لأجوب هذه البقعة النائية المجهولة إلى حدٍ ما. أعاقتني مشاكل الترحال والوصول المبكر للثلج والعواصف ذات التواترٍ القريب من رسم الخرائط على النحو الذي رنوت إليه. فجأة، قادتني هذه المشكلات لإلقاء الضوء على أراضٍ أخرى للاستكشاف ولأصف بدقةٍ عادات ومهنة فلاحيها الصيادين. حاز البحث الذي استخلصته منهم ووضعته بين يدي سيادتكم على حكم الجدير بالقراءة الشعبية في مجلسٍ عام، كما سلمتكم الخرائط والمخططات والخطّافات والملابس والألعاب والأواني التي حملتها من أيسلندا، فما كان منكم إلا منحي لقب العضو الملائم وهذا ما لم أكن جديراً به حينها. كما قمتم سيادتكم باستقبالي مرة

أخرى بعد برهةٍ من الزمن وتفضلتم بالاستعلام عن مشاريعي. مازلت راغباً بالسفر بيد أنني ما جرؤت على البوح بكل الحقيقة التي أدين بها اليوم لك وهي إنني أيقنت أن البرد قد أمعن الأثر في أكثر من المعقول إذ فقدت وسائلي وإرادتي ووضوح رؤيتي وفرحي بالحياة. تركت امتياز الذهاب نحو القطبين لأولئك الذين يتحملون العواصف الثلجية ونُدف الثلج المزوبعة أسفل الجرف الصخري وتلك الريح المتجمدة التي تقطعك كنصلِ سيف، هذه الدرب ليست لي.

ترددت ما بين إفريقيا والمحيط الهادئ ودام ترددي هذا بضعة أشهر. إن إفريقيا هي محط اهتمام المكتبات والصحف والكرماء والوزراء لذا آثرت السفر إلى المحيط الهادئ، وبعد سنةٍ من عودتي من أيسلندا شددت الرحال مجدداً.

كانت الرحلة من بوردو إلى سدني طويلةً لكنها جرت دون حوادث، رست سفينتي في أحد مرافئ هذه المدينة الانكليزية التي بناها المحكومون بالأشغال الشاقة ثم استفسرت عن سبل متابعة طريقي نحو جزرٍ مجهولة، وكم كان هول المفاجأة قوياً بل إنني غصت في بحار الإحباط عندما اكتشفت أنه لا أراضٍ مجهولة هنا ليس هذا فحسب بل إن وكالات السفر تقدم عروضاً عن رحلاتٍ بحريةٍ إلى أي نقطة في المحيط الهادئ تقريباً. قمت بزيارة كلٍ من «ليفو» و«فيدجي» و«سانتو» و«أوكلاند» حيث عثرت في كل مكان على قنصلٍ ووكلاء لشركاتٍ بحريةٍ ومراسلين ومخيمات أقيمت مسبقاً.

لم أنسَ أن أرسل إليكم تقاريراً مختصرةً عن كل مرةٍ رسوت فيها إذ قمت بتغير هذه التقارير وتهيئتها لتصبح «مشاهد من المحيط الهادئ» التي نُشرت العام الماضي، احتلت أعمال الكتابة هذه فترات المساء في الشرفة تحت طرطقة زخات المطر الاستوائية الغافية على السطح.

قرأت الحكاية عينها على كل تلك الأبواب، خلّفت أوروبا بصمتها

على المرفأ وعلى المنازل المحيطة به أما على بعد مكانين أو ثلاثة فهناك صفٌ من الهضاب يضمُ حياةً بريةً لم يصبها التغيير والتي كان لقاؤها أبسط مما توقعت. التمس المبشرون البروتستانت الريبة مني لأنني فرنسي أما المبشرون الكاثوليك على ندرتهم فلم يرغبوا أن يربكهم الحديث مع غريب. لم تفسح المنافسة الدينية مكاناً واسعاً للملاحظة العلمية. وددت وصف الناس المتوحشين الذين يخرجون عراة فيلحق أبائهم بهم محاولين أن يجعلونهم يرتدون ملابسهم ويعلموهم كيف يصبحون من «المخلوقات الحسنة».

بعد مضي عدة أسابيع أو عدة أشهر، باءت محاولاتي بالفشل إذ بدت اللوازم الخرائطية والقوى البشرية هزيلةً أمام التضحيات المبذولة، راودني الندم على أيسلندا لعدة مرات حين كنت أتسكع صباحاً على الشاطئ حيث تغادر الزوارق المصنوعة من جذوع الأشجار أشتاق لمنزل القس الصغير الذي أويت إليه ولحواراتنا باللغة الألمانية. خلال هاتين السنتين اللتين أمضيتهما في المحيط الهادئ، لم أحصل على أي نتيجة ملموسة، إذ كان لدي من الوضوح ما يكفي للاعتراف بذلك دون مرارة أو حنين عابث. لا لوم يوجه إليكم سيدي الرئيس، في هذا المخطط، إذا اقترحتم لي المحيط الهادئ وكنتم على صواب في اقتراحكم فهنا جزرٌ وشعوبٌ غريبةٌ ومجهولةٌ تشكل حقل تجارب شاسع للجغرافيا وما زال هناك اكتشافات تتم بيد أنها ليست من اختصاص ملاح حيث يتوجب الإقامة مطوّلاً في هذه الأمكنة للاعتياد على الحياة البرية واقتحام حذرهم وتعلم لغتهم ليساعدونني على اختراق الغموض الذي يكتشف كلَّ أرخبيل. أنا عاجزٌ عن القبول بهذا التقشف، لقد أخطأتم باختياركم لي لا باختيار الوجهة.

أرهقني هذا الحد من الغرائب، فآثرت قضاء بعض الوقت في سيدني لأفكر ماذا سأفعل خلال حياتي. ليس في استراليا ما يُكتشف بيد

أن هذه المدينة الخلابة تأسرك بجاذبيتها . عبد لي ممثل جمعيتكم بمكانته المهيبة الطريق لطرق أبواب أشخاصٍ مناسبين قليلي العدد إلا أنهم شجعوا محاولاتي ولم يرهقوا كاهلي لوماً لدى فشلها، بقيتُ برفقتهم على إطلاعٍ بمجريات العالم من حولي، حتى خلت أنني التقيت بشريكتي المستقبلية في أحد هذه المجالس وبدا لي أنها تقاسمني ذات الرؤى دون أن تعبر عنها، قدمت نفسي إليها تحت أنظار والدها الخدّاعة فأجابتني بجفاء بأنها لن تتزوج أبداً من فرنسي كاثوليكي. دفعتني خيبة أملي لأرتمي في عُرض البحر بعد أن علقتني تلك المشاعر اللطيفة بمدينة «سيدني». أثرت البقاء لبضعة أسابيع كي أرحل كريماً فلا يتراءى لقاسية القلب تلك بأنها قامت بطردي.

في إحدى الأمسيات على شرفة منزل السيد «ويلتون سميث» المحاضر المحترم، التقيت بالربان الذي قام باصطحابي إلى «فيدجي» قبل خمسة عشر شهراً، فطرح علي سؤال إذا ما كان لدي فكرة عن المتوحش الأبيض بما أنني مستكشف، ظننت أنني فهمت السؤال بشكلٍ خاطئ أو أنه يمازحني، فطلبت إليه أن يكرر كلامه معتذراً بهفواتي باللغة الانكليزية، فشرح لي ببضع كلمات أن إحدى السفن ذات الشرعيين عادت من إبحارها بمتوحشٍ أبيضٍ، وحشٌ يتحدث غمغمةً موشوماً، يركض حافي القدمين على طول الشاطئ بيد أنه من ذوي البشرة البيضاء بدا ذلك واضحاً من شعره وقامته رغم ما نهشت الشمس من بشرته. حمله الطاقم بالقوة فأرهقهم هذا الكائن المميز، أما حاكم «سيدني» فقد قرر الإبقاء عليه ووضعه منذ أسبوع في سجن المدينة.

لم أعر انتباهاً حقيقياً لما خلت أنه غوغاءً في حانة فغالباً في الميناء، كما تعلمون وأعلم سيدي الرئيس، يتباهى البحارة بأن صادفوا حوريةً بحرٍ أو رجلٍ بثلاثة رؤوس فما كان مني إلا أن أعلّق قائلاً أن أمام المستكشفين ما يكفيهم من العمل مع الوحوش الزنوج لا داعي أن يقلقوا راحتهم بوحشٍ

أبيض، انبعثت الموسيقى منهية الحوار. ولم يكن هناك ما هو أكثر خطأً وغباءً من إجابتي في تلك الأمسية.

دعُيتُ بعد مضي ثلاثة أيام إلى اجتماع في مكتب الحاكم، وما إن حملقت بالوجوه حتى تعرفت على قسمٍ من المدعوين: تاجرٌ ألماني وقسٌ إيطالي وبارونٌ روسي وربانٌ هولندي ونبيلٌ اسباني في نظرته عجرفة الإسبان جمعيهم. الأوطان الأساسية بالأحرى لغات أوروبا الأساسية اجتمعت على الطاولة.

وضّح لنا الحكم ارتباكه حول المتوحش الأبيض الذي وضعه في السجن وهو لا يعلم ماذا عساه يفعل بهذا الرجل، تفحصه جيداً وهو على يقين من أنه ولد في أوروبا من أبٍ وأمٍ بيض البشرة إنه ليس متوحشاً ولا حتى أحد والديه زنجي. ولكن من أين؟ لا يتفوه سوى بكلمات مبهمة ولا يرتدي شيئاً ما من دليل على أصله.

ارتدى أحد سجناء الأشغال الشاقة زي خادمٍ وقدم لنا كأساً من نبيذٍ برتغالي ليحسن مزاجنا دون أدنى شك. ثم طرح الحاكم خطته علينا وهي أن نتحدث مع المتوحش الأبيض كلٌ بلغته ولنرى على أي لغة سيتعرف كلغة أم. ناقشنا للحظةٍ هذه الطريقة اللبيبة، لم يوافق الكاهن مخاطبته بالغة النابوليتان بل سيجرب اللاتينية أولاً وتم له ما أراد، تأفف الاسباني قائلاً بأن بوسعه ذكر بعض بيوت الشعر باللغة البرتغالية.

عارض التاجر القادم من «كونيسبرغ» مقترحاً أن يتم الاتصال بالقنصل الممثل لكل بلد، فهذا الأمر لا يخص سوى الممثل الرسمي لفخامة ملك بلا روسيا فيتعرف من أجله على أحدٍ من أبنائه.

أطلق الحاكم تنهيدة موضحاً بعدها أنه لا يمكن التوجه إلى القنصل بشكلٍ خاصٍ ولا أن يتخذ خطوةً رسميةً بهذا الخصوص فماذا سيجري لو تنافس قنصلين على المتوحش الأبيض؟ أو إذا ما انصدم أحدهم بأن يكون هذا الفرد العاري الموشوم من بلاده؟ حيرةٌ واحتجاجاتٌ وبرقياتٌ وبياناتٌ

من كل عاصمة ثم ستستمر هذه الفوضى لسنين عدة لتصبح قضية نزاعٍ بين السلطات قد لا تنتهِ أبداً، لأجل هذا قدم هذا المقترح الشبه رسمي بحضور نخبةٍ من أجانبَ جالية المهجر لئلا نتخذ فيما بعد سوى تدابير مدروسة حق دراسة.

لم أُكنّ للحاكم لدى جلوسي إلى طاولته سوى اهتمامٍ بسيطٍ وقليلٍ من الإعجاب بالحس السياسي الذي أبداه مضيفنا. لم يكن إذاً المتوحش الأبيض لا أسطورة ولا دعابة، كنت أتحرق من شدة فضولي لرؤيته ولمعرفة المزيد عن قصته التي قد تصبح دعابةً ظريفةً تتردد في الصالونات الفرنسية. سيتسلى الرجال بقصص هذا المتوحش الأبيض الغريب ويلقي الرعشة في قلوب النساء اللواتي تسحرهن حكايا الترحال دائماً.

أعطى الحاكم الكلام لشابٍ طويلٍ متواضعٍ بدا مرتعشاً لفكرة مخاطبة مجلسنا، قدمه إلينا كطبيبٍ مساعدٍ في الجالية ثم طلب منه أن يعد على مسامعنا تقريره. حسب تعليماتكم، قمت بفحص الشخص المجهول الملقب بالمتوحش الأبيض وهو رجلٌ يناهز الخمسين عاماً، يصل طوله إلى خمسة أقدام وست بوصات، نحيلٌ لكنه بصحةٍ جيدة، غطت الأوشمة والذبحات جذعه وكتفيه وذراعيه وفخذيه، سجلت من بينها ندبتين لم يتم علاجهما على أتم وجه. الأولى في أذنه اليسرى فشحمة الأذن الداخلية ممزقةٌ ونصفها منتزع والندبة الأخرى في الفخذ الأيمن لعل سببه طعنة مديةٍ أو رأسُ سهمٍ.

سرت الطمأنينة في نفس مخاطبنا الطبيب فمضى قدماً في أطروحته دون أن يسرق النظر من ملاحظاته:

«إن المتوحش الأبيض لا ينتمِ إلى العرق الزنجي ولا للعرق الأصفر، إذ استعبدنا ذلك تماماً مستندين على لون بشرته وجسامته ونسيج شعره. كما أنه لا يعود إلى العرق السامي فجبهته عاليةٌ وأنفه مستقيمٌ وشعره كستنائي أملسٌ ولحيته كثةٌ ما لا يتطابق مع سمات العرق السامي. من

الجدير بالذكر أنه مختون على طريقة أهل بلده لا على الطريقة اليهودية أو الإسلامية.»

قُبِل هذا الإيضاح الغير مناسب ببضع سعلات.

«يقترح شكله بقوة بل ويبرهن أنه ينحدر من العرق الأبيض. يبدو أنه حبي بالذكاء فهو يصغي لمخاطبه ويعبر بالحركات عن مشاعره الأولية وينفذ الأوامر المعطاة، ينهض ويأتي ويقف عند حدٍ معينٍ. إنه حساسٌ للعبارات الصوتية التي تدل على الصداقة والغضب والخوف والألم وتثير فيه الشفقة والاهتمام.

لا يلفظ أي كلمة كما أنه لا يفهم الانكليزية. سمعه البحارة في «جان بيل» وهو القارب الذي أتى به يتأوه بلهجةٍ مبهمة. ارتدى فقط الوزرة مما قدموا إليه من ملابس، يمضي وقته مقرفصاً على عقبيه مسنداً مرفقيه على فخذيه المفتوحتين كثيراً.

لا يناسبه طعامنا فهو يتناوله بنفورٍ شديد ليسد الرمق فلا يموت جوعاً، يأكل بأصابعه ويشرب براحة كفيه، لا يتقن استخدام الكأس أو الملعقة. لا يشمئز من المياه الراكدة بل وبصق بقرفٍ النبيذ الذي قدمه له الجندي على سبيل الضيافة.

كان هذا هو التقرير الأول الذي سمعته وخمنت أنه جديرٌ بأن أقدمه لكم كاملاً، سيدي الرئيس. تذمر الربان الهولندي قائلاً أن مثل هذا الوصف لا ينطبق البتة على أحدٍ من أصل ينحدر من «البروفانس المتحدة» أما أنا فقد تساءلت لأول مرة ما تلك الحياة التي مرَّ بها هذا البائس! بدأت أفكر به كموضوع مثير للشفقة في حين رآه الآخرين ظاهرةً صاخبةً وأمراً غريباً.

دعانا الحاكم للذهاب إلى الحديقة المجاورة فهي أقل فخامةً من مجلسه ذي الأبهة، حيث قرفص المتوحش الأبيض بالوضعية ذاتها المذكورة سابقاً في ظلال شجرة كبيرة ترتعد بين يدي النسمات، يحيط به جنديين قويين مدججين بهراواتٍ، أشاروا إليه بأن ينهض ولا يتقدم.

إن الرجل الذي عرفته لحظتها يعود إلى العرق الأبيض ويتناسب مع تقرير الطبيب نقطةً نقطة، وجهه بيضوي و أنفه أعقفٌ وفمه متوسط الحجم أما ذقنه فقويةٌ، تخطُ وجهه التجاعيد كاشفة عن تجارب خاضها أما جسده فتكسوه العضلات دون أوقية من الدهون.

ألقى المشهد بهول المفاجأة علينا رغم كل ما قُدم إلينا مسبقاً، شخصٌ ذو بشرٍ بيضاء يرتدي وزرةً تغطي الوشوم جسده بشكل كامل، أبكم، لا يؤت بأية حركة ويحملق بنا.

مَن من هؤلاء السادة سيبدأ أولاً؟ كان البارون الروسي الأكثر سرعةً فتقدم يلفظ بعض الجمل وقد لفتني الاهتمام الذي أصغى فيه المتوحش الأبيض إلى كلام البارون وكم كان راغباً بالحوار ولكن لم توقظ أية كلمة من كلماته، أية عبارة من عباراته صدىً ولو ضئيلا داخله، بدا يائساً كالبارون الذي برطم بعبارات تحتقر هذا الوضع ثم عاد إلينا وأشعل سيجاراً قائلاً هذه مسألةٌ لا تخصُ مقام القيصر أبداً.

بدوره اقترب الكاهن وقال بصوت عالٍ «يا أبانا الذي في السماء» يخاطب سامعه ويخاطبنا جمعياً لكن أيضاً لم تلق كلمته صدىً لدى المتوحش الأبيض رغم ما يعيره من انتباهٍ مستمرٍ وواضح، ثم انتقل الكاهن إلى «النابوليتان» فأتى المتوحش الأبيض بردة فعلٍ على تغيير الصوت والنبرة وكان ذلك دليلاً إضافياً على الذكاء الذي يمتلكه بيد أنه لم ينبس ببنت شفة وبعد بضع جملٍ لا قيمة لها، بدّل الكاهن طبقة الصوت مجدداً فأنشد قصيدةً قد تكون هدهدةً لنوم طفلٍ أو أغنيةً للّعب بصوت نشازٍ ومثير للسخرية لكنه مؤثر. أدرك المتوحش الأبيض الانتقال من الكلام إلى الغناء بيد أنه لم ينطق بالنابوليتان.

حافظ المتوحش الأبيض على اهتمامه بكل محاولة رغم أن كُل من اللغات الاسبانية.والبرتغالية والهولندية والألمانية لم تلقَ لديه صدىً.

تركتُ الفرصة أمام هؤلاء السدة ليجربوا حظهم قبلي ولأفكر بما

علي أن أفعل لكنني اضطربت أمام هذا البائس مثل من سبقني دون شك فماذا عساي أقول لذي جسدٍ أبيضٍ ومظهرٍ متوحشٍ بشكلٍ مريع.

«حسناً يا بني! هل أنت مثلي من فرنسا؟ لعلك غادرت من ميناء مرسيليا أو نانت أو دييب. ينتظرك أهلك وأصدقاؤك هناك في بلادك ألا تود العودة إلى منزلك؟ عليك أن تساعدني لأساعدك.»

كان واضحاً أنه لم يفهم شيئاً، مددت له يدي بحركةٍ لم يقم بها أحدٌ غيري فتأملها بانتباه ولم يفكر بمصافحتها ثم تابعت:

«لا أعرف كم مرَّ من الوقت على ضياعك على هذا الشاطئ، سنون عدة لامحالة، لعل سفينتك قد غرقت على أيام لويس فيليب؟ هل تدري أن فرنسا وفقط فرنسا عادت إمبراطورية مجيدة كما كانت عليه منذ عشر سنوات أيام الإمبراطور نابليون الثالث؟

لست أدري ما الذي دفعني لأكلمه عن حاكمنا فأجابني وسط ذهول الجميع وببطءٍ وجهدٍ «بو - لون»

ما كرر قط كلمةً من أية لغة طرحت عليه ولم يطلق صوتاً واحداً حتى، خلفي صمتت مجموعة المراقبين ثم تابعتُ:

«نابليون، أجل، هل تذكر هذا الاسم؟ نابليون الإمبراطور نابليون»

ثبت نظره في أحداقي وكأنه يفتش عن ذاكرته المفقودة وقال: «بو - ليون»

انفعل كلٌ منا كالآخر أمام هذا التبادل الأول فكررنا معاً بشكلٍ عبثي رمزاً لم نعرف حلّه:

«نابليون، الإمبراطور الفرنسي».

- بو - ليون. بو - ليون.

حدَّق فيَّ بحدةٍ أعجز عن وصفها وعندما بدء الحوار، اقترب مني الجميع وشكلوا حول ظهري نصف دائرة بعيون متيقظة ومذهولة.

فجأةً، قفز إلى الخلف مفاجئاً الجنود من حوله ثم ركض نحو الجدار، لم يؤت قط حركةً بهذه السرعة بل غالباً ما بدا بليداً ومطيعاً. لا سبيل للهرب في هذه الحديقة المغلقة. كما أنه لم يحاول تسلق الجدار ولا الشجرة ولم يهاجم أحداً. شرع الحراس بالتحرك بيد أن الحاكم أوقفهم بإيماءة منه، إنه يجهلهم، فجال بنظره نحو البحر من فوق اصطبلات الحامية وصرخ بصوتٍ قويٍ شيئاً مثل:

«سيس - يتي - ليت - بول»

إنها مقاطع لفظية قد تعود إلى اللغة الفرنسية لكنها مختلطة بأصواتٍ لا تشبه أي مصطلحٍ معروف.

لم يلذ بالفرار حين اقتربت منه بهدوء وكررت عبارته بما في وسعي وقد شجعني بنظراته ثم كررها عدة مرات بلطفٍ أكثر وببطءٍ أكثر، خلت أنني سمعت حرفاً صامتاً مغرغراً فحاولت وضع حرف الراء واللام والهاء واتفقنا سوية على اللغز التالي:

«راسيس - لتيي - لوت - بول»

لماذا يكرر هذه العبارة، وماذا يريد مني أن أفهم؟ لماذا كانت هذه هي ردة فعله: هروبٌ ثم تصريحٌ وأمامي فقط؟ ماذا يريد أن يقول لي شيئاً لا يريد أو لعله لا يعرف أن يقوله للآخرين؟.

ماذا يقول شخصان لا تجمعهما لغةٌ مشتركةٌ عندما يلتقيان لأول مرة؟

اسمه! لقد قمت بذلك في أيسلندا كما في المحيط الهادئ فوضعت يدي على قلبي، حركةٌ رسميةٌ ظننت أنها عالمية وقلت:

«أوكتاف دو ڤالومبران».

قام بالحركة عينها كما لو أنني أمام المرآة وهذا أيضاً ما لم يقم به سابقاً وكرر:

«راسيس - لُ تي - ليت - بول».

قدم نفسه إذاً على هذا المنوال مصراً على العبارتين الأوليتين، هل يمكن أن يكون اسمه واسم عائلته؟ فكررت محاولاً:

«نارسيس؟»

- راسيس!.

غمرته الفرحة وأغرورقت عيناه بالدموع بيد أن ذاكرته لم تسعفه بالكلمات.

فقلتُ بإصرارٍ:

«نارسيس؟ هذا اسمك يا بني؟ تدعى نارسيس؟».

فأكد وهو يضع يده على قلبه:

«راسيس».

وبقينا هكذا صامتين إذ تأثر كلانا بالحوار الأول هذا وحدَّقت به دون انقطاع علّ وجهه يكشف لي سرَّ وجوده.

كررت بلطفٍ هذا اللغز النابض بالحياة:

«راسيس - ل تيي - ليت - بول».

بعد اسمه المفترض بقي المقطع الصوتي الأخير غريبٌ في حديثه. قد أخمن أن المقاطع الثلاثة الأخرى تعود كل منها إلى نهاية كلمة؟ يلزمني إذاً قاموسٌ للقوافي لأختبر هذه الفرضية فقمت بتحديد المفردات الأكثر تداولاً لدى بحار، أوحى الجزء الأخير إليّ باسم مكانٍ فقلت:

«بول، هال أنت من بيمول؟ هل بحرت من بيمول؟»

حدّق بي ولم يؤتِ بأي ردة فعلٍ فهمت أنه لا يجد استخدام اللغة بسرعة البرق أو بضربةٍ من عصا سحرية جراء فعلٍ بسيط جداً أتينا به وهو تبادل ثلاث كلمات. كلا إنه ليس بصنبور نفتحه بسهولة بل هو نبعٌ يجدر بنا حفره بل إعادة حفره في أعماق ذاكرته. قد لا يسيل سوى نقطةً نقطة خلال أشهرٍ عدة أو قد يكون ناضباً تماماً، لعله لن يعود إلى الكلام أبداً؟

أنهى الحاكم الجلسة بكلمة لطيفة ودعانا إلى مجلسه من جديد. لم أصغ السمع لثرثرة المشاركين الباقين الذين هنئوا بعضهم البعض بأن هذا المتوحش الأبيض لا ينتمي إلى بلدانهم وقد وصل إلى هذه الدرجة من الوضاعة ولا غرابة في أن يكون فرنسياً ليكون بهذه الوضاعة.

استنتجت مثلهم أنه فرنسي الأصل وتساءلت ما قد تكون هذه الكوارث التي نجا منها؟ من هو هذا الشخص المدعو «نارسيس» وما الذي أتى به إلى استراليا؟ ما نوع العذاب الذي تعرض له؟ ماذا حلَّ بأفراد الطاقم بعد غرق السفينة؟ دارت هذه الأسئلة مجتمعة في رأسي.

شاهدت من نافذة باب قاعة الاجتماعات بينما كنا جالسين حول الطاولة الكبيرة نارسيس مقرفصاً في آخر الحديقة دون حراك. شكر الحاكم ضيوفه بلطفٍ على حضورهم تجربةً كهذه وتراءى له أن التجربة أثبتت بأن المتوحش الأبيض فرنسي الأصل ولم يعارض أحدٌ منا ما استخلصه.

أكد أن لدينا حرية التصرف بإرسال تقارير لحكوماتنا، بما أن عنصر المعارضة أو الاحتجاج الدبلوماسي قد ألغي ومن وجهته فسيتعامل مع هذه القضية التي لا نظير لها حسب النتيجة. لاقت هذه الطريقة بشرح المشكلة استحساناً لدى الجميع ثم استأذن ممثلو كل بلدٍ مسحورين بهذه المغامرة الفريدة.

وددت الانسحاب أيضاً بيد أن الحاكم طلبني لحديث خاص حيث أخبرني أنه ما من قنصلٍ لفرنسا في «سيدني» وأنه لا يدري ما عساه يفعل بهذا المتوحش الأبيض «نارسيس» طلب إليَّ بعد تحفظاتٍ بلاغية أن أعتني أنا به واخبرني أن الجالية ستتحمل كافة المصاريف حتى عودته إلى أوروبا. باختصار أراد الحاكم أن يتخلص منه بمساعدتي أول رفضٍ خطر ببالي كان أن لا صفة رسمية لي للاعتناء بمواطنٍ، وعدني بعد الإصغاء لملاحظتي بأن أحد قضاة «سيدني» سيعهد إليَّ بصيغة قانونية للوصاية على المتوحش الأبيض.

قدم نفسه إذاً على هذا المنوال مصراً على العبارتين الأوليتين، هل يمكن أن يكون اسمه واسم عائلته؟ فكررت محاولاً:

«نارسيس؟»

- راسيس!.

غمرته الفرحة وأغرورقت عيناه بالدموع بيد أن ذاكرته لم تسعفه بالكلمات.

فقلتُ بإصرارٍ:

«نارسيس؟ هذا اسمك يا بني؟ تدعى نارسيس؟».

فأكد وهو يضع يده على قلبه:

«راسيس».

وبقينا هكذا صامتين إذ تأثر كلانا بالحوار الأول هذا وحدَّقت به دون انقطاع علّ وجهه يكشف لي سرَّ وجوده.

كررت بلطفٍ هذا اللغز النابض بالحياة:

«راسيس - ل تيي - ليت - بول».

بعد اسمه المفترض بقي المقطع الصوتي الأخير غريبٌ في حديثه. قد أخمن أن المقاطع الثلاثة الأخرى تعود كل منها إلى نهاية كلمة؟ يلزمني إذاً قاموسٌ للقوافي لأختبر هذه الفرضية فقمت بتحديد المفردات الأكثر تداولاً لدى بحار، أوحى الجزء الأخير إليّ باسم مكانٍ فقلت:

«بول، هال أنت من بيمول؟ هل بحرت من بيمول؟»

حدّق بي ولم يؤتِ بأي ردة فعلٍ فهمت أنه لا يجد استخدام اللغة بسرعة البرق أو بضربةٍ من عصا سحرية جراء فعلٍ بسيط جداً أتينا به وهو تبادل ثلاث كلمات. كلا إنه ليس بصنبور نفتحه بسهولة بل هو نبعٌ يجدر بنا حفره بل إعادة حفره في أعماق ذاكرته. قد لا يسيل سوى نقطةً نقطة خلال أشهرٍ عدة أو قد يكون ناضباً تماماً، لعله لن يعود إلى الكلام أبداً؟

أنهى الحاكم الجلسة بكلمة لطيفة ودعانا إلى مجلسه من جديد. لم أصغ السمع لثرثرة المشاركين الباقين الذين هنئوا بعضهم البعض بأن هذا المتوحش الأبيض لا ينتمي إلى بلدانهم وقد وصل إلى هذه الدرجة من الوضاعة ولا غرابة في أن يكون فرنسياً ليكون بهذه الوضاعة.

استنتجت مثلهم أنه فرنسي الأصل وتساءلت ما قد تكون هذه الكوارث التي نجا منها؟ من هو هذا الشخص المدعو «نارسيس» وما الذي أتى به إلى استراليا؟ ما نوع العذاب الذي تعرض له؟ ماذا حلَّ بأفراد الطاقم بعد غرق السفينة؟ دارت هذه الأسئلة مجتمعة في رأسي.

شاهدت من نافذة باب قاعة الاجتماعات بينما كنا جالسين حول الطاولة الكبيرة نارسيس مقرفصاً في آخر الحديقة دون حراك. شكر الحاكم ضيوفه بلطفٍ على حضورهم تجربةً كهذه وتراءى له أن التجربة أثبتت بأن المتوحش الأبيض فرنسي الأصل ولم يعارض أحدٌ منا ما استخلصه.

أكد أن لدينا حرية التصرف بإرسال تقارير لحكوماتنا، بما أن عنصر المعارضة أو الاحتجاج الدبلوماسي قد ألغي ومن وجهته فسيتعامل مع هذه القضية التي لا نظير لها حسب النتيجة. لاقت هذه الطريقة بشرح المشكلة استحساناً لدى الجميع ثم استأذن ممثلو كل بلدٍ مسحورين بهذه المغامرة الفريدة.

وددت الانسحاب أيضاً بيد أن الحاكم طلبني لحديث خاص حيث أخبرني أنه ما من قنصلٍ لفرنسا في «سيدني» وأنه لا يدري ما عساه يفعل بهذا المتوحش الأبيض «نارسيس» طلب إليَّ بعد تحفظاتٍ بلاغية أن أعتني أنا به واخبرني أن الجالية ستتحمل كافة المصاريف حتى عودته إلى أوروبا. باختصار أراد الحاكم أن يتخلص منه بمساعدتي أول رفضٍ خطر ببالي كان أن لا صفة رسمية لي للاعتناء بمواطنٍ، وعدني بعد الإصغاء لملاحظتي بأن أحد قضاة «سيدني» سيعهد إليَّ بصيغة قانونية للوصاية على المتوحش الأبيض.

أما الرفض الثاني فاعتمد على أنني هنا بصفة مسافرٍ بسيطٍ وليس لدي أي موقع رسمي أو أي حقٍ بحمل مسؤولية هذا البائس. وافقني الحاكم على رأيي لكنه لا يعرف إلى من سيتوجه فما من فرنسي آخر ذي منزلةٍ رفيعةٍ يقيم حالياً في الجالية.

ماجرؤت على البوح أمامه بأنني آثرت القيام بجولةٍ حول العالم الشاسع وحدي، كانت هذه إحدى نصائحكم القيمة، سيدي الرئيس. كثيراً ما التقيت بأصحابٍ ظرفاء هنا وهناك وقضيت معهم أمسياتٍ ورحلاتٍ واقترح بعضهم أن نوحد دروبنا لمتعة يضيفها الحوار وآمان يسود الترحال وطالما رفضت، فهل علي الآن الاهتمام بهذا المجهول الذي لا يعرف الكلام ولا تناول الطعام مثلنا؟ لأعتني به كرضيعٍ دون شك؟

لم يجب الحاكم، بكل حذاقة، على تفاصيل تؤرقني ويبدو أنه يقاسمني القلق ذاته ولكن ماذا بعد؟ ماذا سيحلُ بالمتوحش الأبيض إذا ما رفضت؟ سيموت جوعاً على ميناء سيدني إذا ما أطلقه وقد ينهال السجناء عليه ضرباً أو توقفه الشرطة. هل كُتب عليه أن يُلقى في السجن دون إدانة ودون أساسٍ قانوني ودون أملٍ بالخروج في حين أنه لا إثماً ملقىً على كاهله؟ هل عليه أن يأمر سفينة الحامية بإعادة هذا الفرنسي إلى الصحراء حيث عثروا عليه؟ يالقساوة هذا السلوك الذي سيثير سخط الناس الشرفاء في الحكومة الإمبراطورية حين يسمعون به. الحلُ الوحيد هو عودته إلى فرنسا وكنت السبيل الوحيد إلى ذلك.

ما زال المتوحش الأبيض ساكناً هنا تحت ظل الشجر. أصابني الدوار فسألت الحاكم أن يمنحني عدة أيام من التفكير فوافق على الفور.

بعد غدٍ وافقت على المهمة.

سأعترف لكم بأنكم جزءٌ من قراري. لم تكن أسباب الحاكم هزيلة كما تتطلب مني الرحمة العناية بمواطنٍ من بلدي، يفرض ذلك حب الوطن أيضاً ولكن رغم كل شيء كان بوسعي أن أدعهم يصمتون وأرفض

دون تقديم المبررات متذرعاً بضرورات السفر الذي أنجزه تحت كنف جمعيتكم.

لم أعد أريد خداع نفسي وبدأت أفكر مليّاً وحيداً على شرفة الفندق المطلّة على خليج سيدني ونسمات المساء تهدهد لي. أيقنت أنني لن أصبح المستكشف الذي حلمت أن أكون ما حييت، تذكرت أنني لم أتوصل خلال إقامتي في أيسلندا وخلال محاولاتي في المحيط الهادئ إلا إلى غنيمة هزيلة يتمكن أي بحارٍ يتقن الكتابة جمعها بسرعة أكبر ويرسلها لكم أيضاً. لقد كان يجدر بي أن أخاطر بنفسي أكثر وأجازف أكثر بكثير وأقبل تضحيات أكبر حتى أقوم باستكشاف مميزٍ ولأغدو بطلاً بعلم الجغرافية. اختبرت نفسي جيداً ولا أود رفع الحاجز كثيراً، لقد تلاشى هذا الحلم الذي طاردته لخمسة أعوامٍ وإن لدي من الوضوح ما يجعلني لا أتأثر بهذا. أكثر لقب ذي اعتبار نُسب إليَّ هو كوني عضواً ممثلاً لجمعيتكم لن أكون مستكشفاً عالمياً.

هديتي الأخيرة لوداع الجغرافية هي حالة هذا المتوحش الأبيض، سأبذل جهدي لأعرف المزيد عن مغامرته الغريبة ولأعيد له لغتنا علّه يقصُ علينا منفاه مع المتوحشين هذه الحكاية الشيقة لا يجب أن تذهب سدىً.

كانت هذه هي الرسالة الأولى وسأتبعها برسالتين أو ثلاث حسب التقدم الذي يطرأ على نارسيس إذا ما كان هذا هو اسمه الحقيقي وسأصور تفاصيلاً عن أخلاق وعادات من استضافه. لا أرمي لتأليف كتاب ولا أعرف ما قد يحدث له بعد ذلك. سمحتُ لنفسي أن أكتب إليك علّك تعثر في هذه الرسائل الأسئلة التي أطرحها على نفسي وكذلك المراحل التي يقطعها.

فضحت نظرته وسلوكه، عندما رأيته في الحديقة، شعوراً أكثر حدة من الغرابة والدهشة لم أفهمه إلا بعد فوات الأوان في حين كنت

أتأمل بالقرار الذي سأتخذه. تراءى في قعر عينيه خوفٌ فظيعٌ يضاهي رعب حيوانٍ مطارد، لقد قبلت بهذا الاقتراح للتغلب على هذا الخوف دون شك.

لا بد أنكم ستجدون أن هذه القصة جديرةٌ بالاهتمام بعد منحي رحابة الصدر التي تلاقيني بها دائماً. أما النصائح التي ستسديها إلي سأطيعها بورعٍ كما لو أنها وحيٌ.

سَأُودِعُك ملاحظاتي تاركاً لمن هو أكثر علم مني باستخلاص الخير من الشر.

صدقوا، سيدي الرئيس.....

2

الماء، دخل الماء بين شفيته المتشققتين المفتوحتين، سال في حنكه وفي حلقه. ماءٌ بطعمِ التراب يسيل في فمه بسخاء وبشكل فطري تحسس ثُغر المطرة والتصق به رافضاً فتح عينيه لئلا يرى من الذي يروي عطشه اكتفى بالشرب والشرب، شرب حتى الامتلاء شرب دون حدود فهو لم يروي عطشه منذ أن كان في الكاب. امتلأت قناة السقاية ووجهت سيلانها نحو كل جداوله، لقد أعاد الماء الحياة رويداً رويداً لجذعه الملتوي ولرأسه الذي يطّن ولفخذيه المتعبين وأيضاً لساعديه خائري القوى. روت المياه أيضاً وجنتيه وذقنه ورقبته وكأنها تريد أن تجري بسرعة في أي مكان لتسقي جسده الجشع الذي يتحرق إليها. شرب دون انقطاع إلى اللانهاية، ابتعدت القربة فجأةً وهو لم يرتوِ بعد، رف جفنيه المثقلين بجهدٍ ليكتشف من الذي أحسن إليه.

وجهٌ أسودٌ متجعدٌ منحنٍ فوقه بشعرٍ قصيرٍ أشيب، أثارٌ لترابٍ أحمر تلطخ عجز وحرف الأنف. دقق النظر، لا تلوح بهذه العتمة لا ابتسامة ولا حتى كلمة إنها امرأة، امرأة مسنة. رجع إلى الخلف في فراشه ليرى بشكل أفضل، نعم إنها امرأة، امرأة عاريةٌ تماماً، بشرتها سوداء كالفحم مخططةٌ كجلد جاموس ونهديها رخويين متهدلين، تقرفص بجانبه ممسكة بيدها قربةً مصنوعاً من جلد الحيوان، لا تعر انتباهاً للذباب الكثير الذي يطنُ حولها ويقف في زاوية عينها. تبادلا النظرات لوقتٍ طويلٍ ثم ناولت القربة

من جديد فأمسك بها وشرب بجرعاتٍ طويلةٍ حتى أفرغها تماماً، لم ينفر من المذاق الحامز للغبار ولمصالة الصوف.

أصابه الدوار عندما حاول النهوض فقد أيقظ العطش المروى إمبراطورية الجوع أما العجوز فقد بقيت مقرفصة تنظر إليه وهو يترنح ثم يتمالك نفسه، قام ببضع خطوات ليستعيد توازنه ثم ألقى بنظرة على المحيط. لا أحداً على مرمى النظر. ألا تعيش هذه المرأة العجوز مع عائلتها أو مع قبيلتها؟ تبدد شعوره بالوحدة فهذه الجدة ستعتني به ومع ذلك فهيئتها وخاصةً هدوئها جعلا شعوره بالوحدة يضاهي شعوره ليلة أمس، نظر إليها وهو يفكر بالفارق الكبير بينها وبين عالمه فترياق الوحدة وبلسم الهجران بيد أصدقائه هناك على متن السفينة الشراعية أثناء رسوهم في الطريق إلى الصين وليس بيد هذه الزنجية المسعفة.

عاد إليها وضع يده على فمها وبطنها، يبدو أنها تمضغ قطعة من اللحم، لم تؤت بأية ردةٍ فعلٍ بل إنها لم تنظر إليه يبدو أنها لا تكترث إليه.

«أنا جائع، أرجوك، أنا جائع».

لا يظن أنها فهمت ما يقول، ارتد صوته غريباً إلى أذنيه التي لم تعتد سماعه في الغابة القفراء، أنقذت حياته بالماء السخي أتتركه للموت محروماً من الطعام؟

«أنا جائع أيتها الساحرة العجوز قدمي لي ما أتناوله!.»

كان تغيير نبرة صوته واضحاً دون التباس بيد أنها ما زالت صامتة لا تؤت أي ردة فعل، إنه عاجزٌ أن يرفع يده على من أحسنت إليه ثم أن العنف لن يُظهر الطعام بسحرٍ، صعد النجد متهيء أن يعثر على متوحشين آخرين لكنه لم يرَ أحداً. عاد ليجلس يائساً بجوار العجوز الجامدة وقال بهدوءٍ شديد: «اسمي نارسيس بيللوتير من «سان جيل» في الڤاندي هناك في فرنسا، أنا بحارٌ على متن السفينة الشراعية سان بول.

غادرت السفينة من دوني منذ أربعة أيام، لا بد أن السفينة ستعود

وستكافئين بسخاءٍ على مساعدتك لي ولكن عليك أن تقدمي لي ما يسد الرمق.

تبدد حديثه على جدار صمتها أيضاً، يبدو أنها لم تسمعه وهو يخاطبها لكنه بقي بجوارها لفقدان المشاريع التي قد يقوم بها ونقص الأمكنة التي قد يذهب إليها. توقع أنها ستتناول الطعام في وقتٍ ما في النهار أو في المساء حينها سيستغل الوضع ويدعو نفسه بالرضاء أم بالقوة.

اعتلت الشمس عرشها السماوي لتنثر حرارةً مرهقةً في أحضان ريح ثابتة ورطبة فتسلل النعاس إلى جفنيه لوقتٍ قصيرٍ بقيت خلاله العجوز على الوضع ذاته دون حراك.

صادف في رحلاته العديدة وجوهاً مختلفة التقاها على شواطئ سان لويس في السنغال أو في الكاب بيد أنه لم يقابل قط شخصاً بهذه البشرة شديدة السواد. يبدو أن زنوج استراليا ليسوا مثل زنوج إفريقيا.

غيرت وجهتها بشكلٍ مفاجئ ورفعت راحة كفها منبسطة إلى الأعلى مشيرة إليه بحدة فأطاعها وبقي جامداً. أما بيدها الأخرى فقد أمسكت بحجرٍ لم يلحظها وهي تلتقطه. رفعت الحجر إلى مستوى كتفها ورمته بقوةٍ في حرشٍ يبعد عشرين خطوة وقفزت مدفوعة بالحماسة ذاتها ملتقطةً غصناً يابساً وضربت هدفها مرةً أخرى عدة ضربات قاسية، انحنت أخيراً مباعدة الأوراق وهي تقبض على عظاةٍ أضخم من ساعدها كسرت رقبتها وعادت بغنيمتها ذات القشرة الرمادية اللامعة وتركتها تقع في الغبار ثم أخذت وضع القرفصاء من جديد ولم تباشر لا بتقشيرها ولا بطهوها.

اعمَل فيه الجوع حداً يدفعه لتناول هذه الطريدة المرعبة نيئةً، عندما رآها لم تحرك ساكناً قرر التدخل فأخذ سكينه ليقطع رأسها وأقدامها ونزع جلدها ولكن ما إن شعرت أنه يود الإمساك بالعظاة حتى قفزت وأخذتها وخبأتها خلف ظهرها قاصدةً أنه لاحق له بلمسها.

هل كان عليه أن يتصارع معها؟ انتصاره محتم فهو أكبر وأكثر قوةً

وشباباً ويتقن اللعب بالسكين، ولكن ماذا بعد؟ ماذا لو هربت أو لو أجهز عليها أو جرحها من سيحمل المياه له؟ كيف سيتعلم ماذا يأكل في هذا البلد الغريب؟ عاجلاً أم آجلاً سيحين وقت الطعام بعد أن اصطادت هذه العظاة لذا من الأفضل الانتظار فلن تجد قوته نفعاً، طوى سكينه خاضعاً لها وتمدد من جديد على الرمل.

تلملم الشمس خصلاتها المخضبة معلنة الغياب، فنهضت العجوز ومضت نحو الوهد هناك حيث بحث هباءً عن المياه، ينمو في أرض قليلةُ الرطوبة نوعٌ من أنواع الحُرف ذي الورق الأخضر الشاحب، جثت العجوز على ركبتيها وحفرت بيديها لتخرج بصلةً لنبتة ثم فصلتها عن الساق ووضعتها جانباً ثم أعادت الكرَّة منتقلة إلى اليسار لتحصل على بصلةٍ ثانية ثم ثالثة.

تبعها راغباً أن يشاركها بالقطاف ليساعدها وليصبح ذو منفعة وليجد ما يشغله وليحصل على كميةٍ أكبر يأكلها. وقف بجوارها محاولاً حفر الأرض بدوره لكنها أوقفته بحركةٍ لا لُبس فيها وأومأت إليه بالتراجع خلفاً، تردد، فرددت حركتها وهي تصرخ آمرةً إياه بصوتٍ لاذع، إذا وبعد كل هذا، إنها ليست بكماء، لم تكن تشبه هذه الكلمة شيئاً مما سمعه في حياته فهي نوعٌ من الأزيز مع قعقعة بين المقاطع الصوتية. لم يصر ورجع عدة خطى خلفاً ونظر إليها وهي منكبة على القطاف. لقد اعتاد الطاعة طيلة حياته، أطاع والده والكاهن ومدير المدرسة ورئيس الطاقم والربان، فلا ضير أن يذعن لهذه العجوز أيضاً. كم كان أصدقاؤه ليضحكون عند رؤيته يتراجع نزولاً عند أوامرها.

لماذا لم تتكلم هذه المرأة العجوز قبل ذلك؟ ما من وسيلة للتفاهم طبعاً، ماذا عساه يقدم إليها حتى تجيب على أسئلته إنها لم تفتح فاهها إلا من أجل هذا الرفض الجاف. لو كان مكانها ألا يحاول البحث عن حوار ناطقاً بضع كلمات مقلداً بعض المواقف أو كان ليكتفي بابتسامة على الأقل؟

عندما قدّرت بأن كومة البصيلات باتت كافية، أخذت غصناً صغيراً وثقبت كل واحدة منها ونظمتها في ساقٍ طويلة لفته أعلى كتفها.

عادت إلى نقطة البداية وما انفكت صامتةً، ألقت الكل بجانب العظاة دون الاكتراث، تبعها ظناً منه أن ساعة الطعام قد حانت بعد أن اجتمع الخضار مع اللحم.

إنه يترنح ثملاً من الجوع ولكن كان عليه أن ينتظر ساعة أخرى إلى أن هبط المساء حيث حضرت من الأغصان الصغيرة ناراً قد أضرمتها بحك حجرين بعضهما بالآخر ثم وضعت البصلات على الرمل قرب كوخه وألقت العظاة كاملةً وسط الجمرات المتقدة، وضعت الخشب المميت لتتقد النار ثم تخمد.

أرخى الظلام سدوله، أمسكت بالطريدة التي تم طهوها بقشرها ثم انتزعت الأقدام بحجرةٍ حادةٍ وفتحت بطنها ثم وبحركاتٍ دقيقة انتزعت اللحم الأبيض ومدت له قطعةً حاول يرى بأنها قطعةٌ من الفخذ فاستحوذ عليها مرتجفاً، وضع قطعة اللحم في فمه، لم يكن لهذا النسيج الليفي طعماً مميزاً خلا مذاقاً طفيفاً خلفه الرماد، التهم حصته وهو يمصُ العظام والغضاريف فأشارت إليه أن بوسعه إحضار المزيد من فوق الجمرات، أخذ إحدى البصلات المتفحمة مخاطراً بحرق أصابعه وشفاهه وقضمها وهي تشبه لفتةً صغيرةً بالكاد مطهوة مع مرارةٍ حلوةٍ قليلاً والملح مفقودٌ على الطبقين، ستسند هذه القطعة من الخضار بطنه الخاوي على الأقل، فقدم لنفسه الطعام ثم مدت له قطعةً أخرى من اللحم وتركته يأخذ ما يشاء من اللفت وهي من جهتها كانت تأكل أيضاً بصمتها ذاته، طلب ثلاث مراتٍ المزيد وقدمته له ثلاث مرات ولكن حين أراد أن يمد يده على ما تبقى من العظاة المبعثرة فوق الرمال نبحت مجدداً ببعض المقاطع الصوتية التي تمنعه، أذعن لها آملاً أن تقدم له آخر ما تبقى على العمود، ثم تمددت على الرمل دون أن تنبس ببنت شفة وغفت.

تتلألأ نجومٌ عديدة في حلكة سماءٍ سوداء بلون الزفت، لعلها ذات النجوم التي ترافق السفينة الشراعية خلال الربع الأول من الليل حين تبحر في حضن نسمةٍ صغيرة ولا شيء مهم يقومون بعمله سوى الثرثرة بصوتٍ منخفض والاستغراق بأحلامٍ تدغدغ النجوم في آخر رسو لهم أو عن الرسو القادم.

يسهر بعض أصدقائه في سفينة سان بول لينعمون بليلٍ استوائي عذب. ترى هل يفكرون به؟ هل سيأتون البحث عنه؟

قارع هذه الأسئلة الشائكة، استلقى على ظهره متفحصاً وضعه الذي أصبح أقل سوءاً من الليلة الماضية بعد أن شرب وأكل، ليس كما يكفي فلم تنشر معدته حرارة مقبولة وما زال الجوع يقض أحشاءه. لم يتوصل لفهم سلوك المرأة العجوز ما الذي تقبل به وماذا ترفض، لا يهم، المهم أنه ما زال على قيد الحياة. ربما تعود السفينة الشراعية، لا بد أن الربان قد رسا في جاوا لإنقاذ المرضى وللتزود بالمؤونة ثم سيتوجه نحو الجنوب، سيقضون أسبوعين في البحر أي عليه أن ينتظر لأسبوعين سيأكل خلال هذا الوقت ما تقدمه إليه العجوز عظاة أو سمك أو محار أو عشب، فهي تعرف كيفية العثور على المياه.

لن يتم حساب هذين الأسبوعين في أجرته، سيخربش المعاون على الأوراق ليحسب كم كلفة هذا العمل الطائش وسط سخرية قسمٍ من الطاقم. اعتراه الارتباك! سيجعلهم فيما بعد يميزونه بسلوكه المثالي الأكثر وفاءً والأكثر إطاعةً والأكثر اهتماماً ما بين البحارين على متن السفينة.

أيقن عندما استيقظ أن العجوز لم تعد هنا، لابد أنها تتجول في الغابة بحثاً عن بعض الطعام، لم ينتظر عودتها ذهب يتنزه على الشاطئ بعد أن قضم بعضاً من اللفت البارد.

لا سفينة تلوح بالأفق لكنه لم يتأثر كثيراً فقد بات مهيأً لهذا الخطر بيد أنه صُعق تماماً ما إن لاحظ اختفاء السهم الضخم الذي كابد كثيراً

ليصنعه من صخورٍ وأكوامٍ مرجانية على الرمل، تباعدت جمعيها ولم تعد تشكل أية إشارة لا لمن يراها على متن القارب ولا لمن يتجول سيراً على الأقدام فهي الآن مجرد حجارةٍ مبعثرةٍ ليس إلا. ليس المد والجزر من بعثر عمله، إذ اعتنى بوضع السهم في مستوى أكثر علواً من منطقة الجزر بعيداً عن تلاطم الأمواج العاتية، لا بد أنه ليس من صنيعة العجوز فهي لا تتمتع لا بالقوة ولا بالوقت الكافيين فالكومة الأكبر تزن برميلاً مليئاً كلفه نقلها بضع خطواتٍ فقط طاقة اليأس التي تحركه كاملة، عانى بعدها من النفس اللاهث والظهر المتشنج والساقين الراجفتين وساعدين منقبضين.

إنه دليلٌ بيّنٌ على وجود أشخاصٍ آخرين مع المرأة العجوز في أحضان هذه الأرض المجهولة، حاول إقناع نفسه بأنه طالما كان على علمٍ بذلك فما منة كائنٍ بشري أو حيوان يحيا وحيداً بالمطلق، لا بد أنها تتقاسم مع أفرادٍ من عائلتها اللغة والعادات ومن بينهم رجالٌ أقوياء قادرون على تحطيم ما بنى.

أين هم؟ إنهم يعلمون بوجوده وأرسلوا إليه العجوز لسبر أغواره، خاطروا بالعجوز فهي لم تعد تعنيهم، يراقبونه عن بعد. لماذا يختبئون إن كانت مآربهم ودية؟ لماذا لا يرحبون به جميعهم رجالاً ونساء، شباباً وعجائز ويصطحبونه إلى قريتهم لينقذوه؟

لماذا خربوا السهم؟ وحسرتاه! إن الجوابِ واضحٌ: لا يريدون لبيضٍ آخرين فهم الإشارة فيلحقوا به ويعثروا عليه ويبحر معهم مجدداً.

أيقظت هذه الأحجيات قلقه، ليس بحوزته سوى سكين البحار مربوطاً بالحزام يواجه به المتوحشين. باستطاعتهم دون أدنى مشقة القبض عليه بسكينٍ أم لا فهم عديدون.. سيتسلح بالمكيدة في مواجهتهم رغم أنه لم يعرف كيف ذلك بالضبط، بقي يتأمل بهذا الحدس ويتساءل هل سيحميه ذكاؤه من هؤلاء المتوحشين.

تركوه بسلامٍ حتى الآن، سيحمي نفسه من الآن فصاعداً. ترى هل

عليه أن يعيد السهم إلى حاله؟ سيهدر ساعتين من العمل الشاق تحت أشعة الشمس الحارقة وهم سيستمتعون بتخريب عمله ما إن يدير ظهره.

في هذه اللعبة يواجه وحده قبيلةً، لن يكتب النصر فإن أعاد البناء فهو يقول لهم أنه يدري أنهم مختبئون على مقربةٍ من هنا وأنهم يراقبونه ويريدون منعه من كتابة رسالته على الشاطئ لذا فمن الأفضل ألا يكتشفوا أنه يحتاط منهم.

ماذا يعرف عن متوحشو المحيط الهادئ؟ المقالات التي يتبادلونها عن هذين المكانين غير دقيقة ومتناقضة كما أنها غير معقولة في بعض الأحيان، لو علم بما سيحل به لكان أكثر انتباهاً ولطرح الأسئلة على البحارين الأقدم الذين مخروا عباب هذا المحيط الشاسع.

اتفق الجميع على اختلاف شرق المحيط عن غربه، فالمحيط الشرقي انطلاقاً من سيتير الجديدة إلى بوغينفيل هو حلم كل البحارة حيث المتوحشون الظرفاء والنساء المضيافات والطعام الوفير والموارد المائية المتعددة بالإضافة للمرافئ الجيدة. جزر النعيم هذه سحرها لا يقاوم فلا مكان للهروب أو للعصيان من ذا الذي يقاوم رقصات الفتيات وغناءهن عاريات الصدور ذات اللون العسلي؟

لا يوحي غرب المحيط الهادئ بذات الحنين، فالقبائل البربرية ذات البشرات السوداء بلون الجحيم وهم دائماً متأهبون للحرب يدافعون بعصيٍ مدببة ورماحٍ قصيرة عن فتياتهم القبيحات ودجاجاتهم وخضارهم. تسبب هجماتهم على البحارة الأوروبيين الصدمة من هول مباغتتها ووحشيتها فهي تنتهي بـ «كاي كاي كبير» هناك دائماً نوتي فتي ليسأل:

«ما هذا.... كاي كاي»؟

- إنه قدرٌ هائلٌ يطهون فيه خصومهم ضحايا المعركة.

إنه لا يعرف الكثير عن شمال شرق آسيا لكن المقاربة الجغرافية كلون بشرة المرأة العجوز يدفعه للتفكير بالمحيط الهادئ الغربي. يؤكد اختفاء

سفينة «لابيروز» عند ملامستها الأخيرة لسدني الميناء الأقرب هذا التهديد الكامن.

اجتاحه رعبٌ أكثر عنفاً من غمرة الموت وأشد قسوة من احتمال أن يردى قتيلاً وأعمق وخزاً من أن يجد نفسه مرمياً في الغبار للحيوانات، حين فكر بأن يُقدم وجبةً في احتفالٍ وحشي كبير.

ماذا عساه أن يفعل إن غادرته العجوز؟

عاد إلى درب الوادي الضيق بقلبٍ مثقلٍ بالهموم، إنها ليست في الأجمة حيث ناما، اتجه إلى آخر الدرب الضيق حيث جمعت اللفت. لا أحد، إنه لم يرها بالواقع منذ المساء.

هل تركته؟ ولكن لمَ هذه القسوة؟ ما الذي جعلها تسقيه وهو بالوضع الأكثر سوءً، لماذا أطعمته؟ لتتركه وحيداً في متناول موتٍ محتمٍ في غابةٍ لم يكتشف أي سرٍ من أسرارها؟ إن كانت هي وأقرباؤها يرغبون بقتله لم لا يهجمون؟ لمَ لم يتركوه يحتضر في غمرة الجوع والعطش؟

لا جدوى من هذه الأسئلة ولا من النحيب على مصائبه في قعر هذه الحفرة التي يجب أن يخرج منها ويبحث بعدها عن المرأة العجوز. تتراكض على شواطئه أمواجٌ عاتيةٌ من اليأس والنشاط المكبوح، تسلق جانب الوادي الضيق ليجد نفسه في سهلٍ من الأشجار العوجاء ذات الجذوع رمادية اللون وأوراقٍ بخضرةٍ معدنيةٍ تلقي ظلالاً على ظلال. يحلق الأفق بصمتٍ لا يشوبه أدنى صخب، لا يحمل التراب المرجاني الرملي المسطح أي أثر، حاول تسلق شجرة أكبر بقليل بيد أنه عاد بسروالٍ ممزق دون الوصول لنقطة مراقبة. السبيل الأكثر أماناً هو السير مغامراً بين هذه الجذوع، تفادياً للضياع، أخذ من الشمس دليلاً له وسار بشكلٍ موازٍ ظناً منه أنه اتجاه الشاطئ وبعد مضي ساعةٍ تقريباً من الزمن، لف نحو اليمين بوضوح تاركاً الشمس خلفه فانتهى بالوصول إلى الجانب الشمالي للخليج حيث الهضبة الصخرية التي تسلقها في اليوم الثاني، و لكن عبثاً! فلا أثر للعجوز هنا.

لا شك أنهم ما زالوا يراقبونه وقد لاحظوا قدراته بالتوجه، إنهم يراقبونه منذ أن بنى السهم الضخم، بددوا الجهود التي بذلها ذاك اليوم. أيطمح البقاء في مأمنٍ وهو مختفي بين الأدغال وينتظر؟

لو أنهم ارتابوا من وجوده على الشاطئ لما أرسلوا له الساحرة ومطرتها المليئة بالمياه، إذا فعناءه الشاق بحمل الحجارة لم يكن خطأً. فجأة، أذهلته فكرةً واضحةً أكثر وضوحاً منه ومن إشارته هذه: دخول السفينة بأشرعتها المسدولة إلى المرفأ وإنزال قوارب الإنقاذ في المياه وبحثهم الغير مجدي على نوتي على الشاطئ.

منذ اللحظة الأولى وهم يراقبون أفعالهم وتحركاتهم بعد أن استرعت انتباههم الأشرعة البيضاء القادمة من الأفق والهيكل الخشبي مترامي الأبعاد الذي يجتاح الخليج وأولئك الرجال ذوي البشرة الغريبة وملابسهم وأصواتهم العالية.

اختبأ المتوحشون يتابعون كل تحركاتهم. تسعةٌ بحارة ترجلوا وتفرقوا بحثاً عن شيءٍ ما ثم عادوا واجتمعوا وصعدوا ثمانية على متن السفينة، حلّق المثلث المعلق الأبيض وتحرك الشيء الخشبي الضخم غادر ثم صغر ثم ابتلعه الأفق وذاك الأبيض غاص في الغابة وخرج منها بعد رحيلهم، أبيضٌ وحيدٌ يأتي ويذهب على الشاطئ ثم يعود إلى الوادي حيث بنى كوخاً ويمضي أيامه بمراقبة الخليج، لم يعد الشيء الخشبي للظهور والأبيض يضعف يوماً بعد يوم إذا رأوه يعاني وتركوه يكابد ولم يرسلوا إليه المرأة العجوز إلا بعد أن خارت قواه، بدا مسالماً واعتبرها قد أحسنت إليه بمد يد العون.

أضفى جلاء الرؤيا الحبور قليلاً إلى قلبه ولكن ماذا بعد؟ هل يجب أن يبحث عنهم لا جدوى من تسلق الغابة والتجول في الغابة، سيبدو كأنهم حقاً يريدونه، إنهم حتى الآن غير ظاهرين فليبقَ الأمر كذلك نزولاً عند رغبتهم. أرسلوا العجوز أم لم يرسلوها، أتحمل إليه ماءً منقذاً أم فاكهةً

مسممةً. لا سبيل أمامه لكشف قواعد هذه اللعبة العنيفة التي انكبوا عليها. جلس بفيء شجرةٍ مفكراً. عاد بذاكرته إلى ردهة الكنيسة قبل دروس تعليم الديانة المسيحية حيث كان يتسلى مع صبيةٍ من عمره بفأرٍ صغيرٍ يطارده قط، يشكلون دائرة حول الحيوان الصغير الذي يصطدم بالقبقاب وبالحاجز النباتي وبلوحٍ صغيرٍ يعترض طريقه، تتالى العقبات والفأر الصغير يقوم بشتى أنواع المحاولات مصطدماً بالحواجز، لن يدعوا أبداً صبياً أخرقاً يسمح للفأر بالهروب فعلى معذبيه أن يبقوا يقظين وما إن يرن الكاهن الجرس حتى يتركوه وجهاً لوجه مع القط والآن هو هذا الفأر. كانت العجوز هنا لم يرها تأتي كانت تتجه نحو الغابة بخطى كبيرةً، لحق بها بيد أنها لم تعره انتباهاً ولم تتباطأ:

«إلى أين أنت ذاهبة أيتها الساحرة العجوز».

يكلمها لكنها صماء على ما يبدو فأخذه الغضب وبدأ يوجه كلامه للأشجار وللهضبة وللخليج:

«أعرف أنكم هنا! أعرف أنكم تنظرون إلي! أظهروا أنفسكم! لم تختفون عن الأنظار، لقد فهمت كل شيء!.

مضت في طريقها بينما يقدم تصريحه واختفت بين الصف الأول للأشجار، ركض ليمسك بها، أراد أن يمسك معصمها ليوقفها بيد أنها تتجنب حركته دون أن يتوصل للمسها حتى. هل عليه أن يرمها أرضاً كي لا تتحرك؟ وما الهدف من ذلك؟

انكب بالسير بجوارها، ترى إلى أين؟ هل هم ذاهبون إلى النبع حيث الطرائد الوفيرة؟ ما زال الجوع قائماً وهذه المرأة هي حظه الوحيد للعثور على الطعام. سواء أراد ذلك أم لم يرد.

توجس خيفةً بعد مضي ساعتين، تركوا الشاطئ ومضوا مبتعدين عنه. لا تعطي هذه الغابة الشاسعة أية إشارة، إنها لا تشبه ما كان يذهب إليه طفلاً باحثاً عن خشب ميتٍ وفطر وأعشاش عصافير، لا وجود سوى لنوعٍ واحدٍ من

الأشجار يعجز عن تسميته فهو خليطٌ من البلوط والدردار وجار الماء والكستناء ليس هناك نباتات حراجية ولا تربةٌ عضويةٌ خصبةٌ بل ترابٌ رملي غير خصب ولا وجود لحيوانات خلا أنواعٌ مختلفةٌ من الذباب والعظاة. النتحُ في الغابة طفيف، يكاد يختفي، نسمةٌ لطيفةٌ وطقطقةُ غصنٍ وفحيحُ حيوانٌ غير مرئي وخرير ساقية وضجيج خطواته والفضاء يركعُ بصمتٍ مرهقٍ.

لن يتمكن أصدقاؤه في سان بول من العثور عليه إذا ما ابتعد عن الخليج وإذا ترك العجوز وعاد على عقبيه لمات جوعاً وعطشاً قبل عودتهم عليه إذا أن يعود معها على عقبيه، يجب أن يقطع طريقها فاتحاً ذراعيه مشيراً إليها بألا تتابع أبعد من ذلك. تجنبته مرةً أخرى بحركةٍ راقصةٍ، دون أن تتباطئ أو أن تبعده، مرت تحت ذراعيه وتابعت طريقها.

مضت؟ ماذا يفعل أيضاً؟ إنها حتى لم تستدر لترَ إذا ما لحق بها أم لا.

خبّ بالسير متردداً وهو يبعد عنها عشرين خطوة.

منحدرٌ لطيفٌ خلف السهل ازداد حدةً كما لو أنه يحفر جبلاً، لعله يتمكن من رؤية البحر من نقطةٍ مرتفعةٍ فيحدد موقعه مكتشفاً الطريق إلى الخليج.

تغطي ذات الأشجار تلك القمة المسطحة التي وطأها فتمنعه من رؤيةٍ تامةٍ.

ما زالت العجوز تتقدم ونزلوا من جديد. ضاع، لا دليل له، يخالجه شعورٌ بالابتعاد عن عالم الأحياء غاص في بركة لا أمل فيها، لا رمل وإنما أرضٌ حمراء مغبرة.

حلَّ المساء، فأضفى التعب إلى العطش والجوع ترنحاً ليصبح كرجلٍ ثملٍ تسوطه الأغصان والأشجار وهو عاجزٌ عن تلافيها.

فجأة، تباعدت الأشجار مخلفةً رؤيةً مضاءةً وسط بركةٍ خضراء معتمة في الجانب الآخر للبركة، تُضرمُ النار.

الرسالة الثانية

سيدي في السابع عشر من آذار 1861

السيد الرئيس.

ما يضفي الدعابة على مغامرتي هو التقدم البطيء الذي تشهده بيد أني أرى أنه من المجدي سرد الأحداث الأكثر تميزاً.

ما إن أبديتُ إيماءةً تدل على قبولي المهمة المميزة الموكلة إلي حتى أوفى الحاكم بعهده وقدم إليَّ كل التسهيلات لما قد احتاج.

لم يكن بوسعي أن أرافق نارسيس إلى الفندق والنزول في إحدى غرفه فما من مكانٍ سيقبل باستقبال هذا الرجل العاري تقريباً والموشوم زد على أنه أبكمٌ وأشعثٌ ويلقي قليلاً من الرعب في النفوس كما أنه من غير المناسب الإبحار فوراً إلى فرنسا فأيُّ ربانٍ هذا الذي سيقبله مسافراً على متن سفينته؟ لاصطحابه إلى فرنسا عليه أولاً أن يتعلم لغتنا وأن يرتدي ثياباً محاولاً التعايش مع مجتمعه ثم يتوجب عليه إتباع عاداتنا وتقاليدنا ولا بد من مرور عدة أسابيع لإتمام هذه المهمة. سلمتني الجالية منزلاً صغيراً رابضاً في نهاية أحد الشعاب الأكثر طولاً في خليج سدني. يبدو أن هذا المنزل الصغير الأنيق بُني قديماً لتسكنه عشيقة أحد الحكام القدامى فهو مطلٌ على البحر ويحيط به نهرٌ صغير، لا سبيل إليه عبر الزورق أو عبر دربٍ رديئة. هناك عند البوابة توارت عن الأنظار مجموعةٌ متواضعةٌ من الحرس، حسب التعليمات. هل هم هنا بغرض حمايتنا أو مراقبتنا أو منعنا من الهرب؟ لا يهم.

أقلَّ الزورق على متنه برفقتنا خادماً كنتُ قد طلبته فهو أحد المحكومين بالأشغال الشاقة منذ ثلاث سنوات، لا أدري الجرم الذي ارتكبه لكنني أعلم أنه عمل في عددٍ من المنازل البرجوازية في لندن فهو شخصٌ نشيطٌ وذكي وطموحٌ إنه مطيعٌ بالمجمل ويدرك تماماً أن مستقبله في استراليا متعلقٌ بما سأقول عنه.

يضمُ المنزل شقةً مفروشةً بذوقٍ رفيعٍ تحدُها شرفةٌ كما يضم مطبخٌ وغرفتين يطلان على الجهة الخلفية ومجهزين ببساطة أكبر. يمتدُ مرجٌ مشجرٌ حتى النهر والجسر العائم وخلف الدغل المزهر في الأعلى تنبثق الغابة المترامية في كل الأرجاء حول سيدني.

تمت إقامتنا سريعاً إذ حمل بحارو الزورق الرزم ووضعوها أمام المنزل أما السيد بيل فتولى أمر العناية بالترتيب. أكد لي الربان قبل المغادرة بأن أرفع علماً أبيضاً أعلى الصاري نهاراً وفانوساً في الليل عندها سيأتي قارب الإنقاذ خلال ساعتين أو أقل.

تملكني شعورٌ بالسكينة عندما ابتعدوا وفكرت: ألم ألقِ نفسي بسرعةٍ في تجربةٍ غريبةٍ؟ ماذا سأفعلُ في زاويةٍ نائيةٍ هاربةٍ في استراليا مع خادمٍ محكومٍ بالأشغال الشاقة ومتوحش أبيض؟

لم يطرح نارسيس الكثير من الأسئلة إنه يستمتع بحريته المستعادة لا جنود مدججين بهراوات ولا جدران ولا سجن وها هو ذا يهيم على وجهه ينزل نحو النهر حيث يتكئ لوقتٍ طويل ثم يفترش العشب معلقاً أنظاره في عرض البحر، إنه لم ينطق بكلمةٍ واحدة منذ لقاءنا في حديقة الحاكم. لعل بوسعي أن أخطَّ وشوماً على ظهره وكتفيه وجذعه ولا يحرك ساكناً.

قاطع بيل أفكاري حين جاء يسألني ماذا يحضر على العشاء، أغرقني هذا السؤال على سخافته بالحيرة، ففي الأيام التي قضاها نارسيس في سجن سيدني لم يكن يتناول شيئاً تقريباً وإن تناول طعاماً تناوله على

مضض فطلبت من بيل تحضير وجبات مختلفة كل يوم لاختبار شهية نارسيس ولمعرفة ما يستسيغ من الطعام. ومنذ ذلك الوقت أصبحت وجباتنا لحظاتاً ساحرةً ومدهشةً دائماً حيث حاول بيل جاهداً تحضير وصفات العالم بأسره يجمع طعمات مختلفة. بدا لنا جلياً وبسرعة لا بأس بها أن «نارسيس» لا يحب الطعام المحلى ولا مشتقات الحليب ويحب من اللحوم اللحم المشوي فقط، إلا أنه تولع بالسمك كثيراً وكان الجوز بالنسبة إليه بمثابة الحلوى النفيسة.

صباحاً وبعد أن يسبح في النهر يتناول وجبةً من بقايا طعام الأمس دون تسخين ولا يتناول شيئاً عند الظهيرة أما غروب الشمس فيحمل إليه وجبةً من حساء ساخنٍ لا يستخدم لا سكيناً ولا شوكة، رفضت الاعتياد على عاداته في الطعام فكان بيل يقدم إليَّ الطعام على حدا كما لو أنني في حفل استقبال، كثيراً ما لمحت نارسيس يحدق بي أثناء تناولي العشاء على الشرفة بأوانٍ من البورسلان والكريستال مضاءةً بشمعداناتٍ من الميشور.

انشغلت منذ اليوم الثاني بمنحه هيئةً أكثر جاذبية، فشعره الأشعث نسي الفرشاة وهو يغطي رقبته وكتفيه ولحيته كثةٌ وقذرة تأتي على وجهه كله، فأمرت بيل أن يصبح حلاقه.

لا بد أن نعرف أن المحكومين بالأشغال الشاقة في استراليا يحلقون كل أسبوع لا يسمح لهم بإطلاق اللحى أو الشوارب، فهذا النظام المبتكر يسمح بالتعرف عليهم والإمساك بهم إذا ما حاولوا الهروب، خضع بيل أيضاً لهذه القاعدة فارتبت ألا يطبقها على مواطنٍ من بلدي خبثاً منه لذا آثرت البقاء بالقرب منهما عند استخدامه آلة الحلاقة والمقص. عندما أنهى عمله لم أصدق عينيَّ، أبقى على شعره الكستنائي المصبوغ من الخلف وحلق له ذقنه وقصَّ عوارضه دون إذنٍ وقلم شواربه لتبق رقيقةً وبهذا بدا نارسيس بهيئةٍ ظريفة وصغر بعيني عشر سنوات على الأقل كما وارى شعره الطويل الندبة القبيحة على أذنه، حقاً أحسن بيل العمل.

كان تدبر قضية اللباس أكثر يسراً، فلم يكن نارسيس يرتدي سوى وزرةٍ ألبسه إياها بحارة جان بيل ولأعود به إلى فرنسا عليه أن يرتدي ثوب الغرب فلننطلق من نقطة البداية.

بإذعانٍ لا اكتراث فيه وافق نارسيس على طلبي بأن ينزع بيل عنه هذه الوزرة القذرة ويساعده بارتداء لباسٍ داخلي، في غضون ذلك الوقت، تبختر الخادم بزيٍ ينسيه الأشغال الشاقة ونظامه القاسي تماماً، لم أرَ من المناسب أن يتعالى بيل على مواطنٍ بائسٍ من بلدي، لا يتوجب أن أوحي إلى نارسيس أبداً أنه أدنى منزلةً من انكليزي محكومٍ بالأشغال الشاقة وطلبت من بيل أن يبقي على لباسه الداخلي مهما كان الظرف.

كان بيل يخفي تحت قميصه حتى الآن وشماً على شكل زهرة على كتفه الأيسر، عندما رأيت الرجلين الذين يقاسماني عزلتي يرتديان الزي نفسه ويحملان الوشوم تأملت مصادفات الحياة وقوانين الثروة، لِمَ لم يكن بيل هو الغارق ونارسيس من الطاقم الذي عثر عليه بضع سنوات.

بعد ظهر اليوم الثاني جاء إليَّ بيل يكلمني بنبرة مفرطةٍ بالمجاملة خوفاً أن يكون ثقيلاً عليَّ ولو في سريرتي ليقول بأن المواطن الذي عهدته بحمايتي قد تبول في ملابسه، أراد أن يضيف بأن نارسيس غير أهلٍ لأن نعامله كراشدٍ فقد عاد إلى أيام طفلٍ صغيرٍ جداً لم ينظف بعد وينسى نفسه في الفراش. انتابني القلق للحظة، هل تراه أخرقاً أو مجنوناً؟ لا ليس غبي القرية ذلك الذي بقي في القرية ولم يكلف أي بحارٍ نفسه عناء الإبحار لاستعادته رغم طول المدة. يبدو أنه عاد إلى الطفولة أو لطيفٍ منها، لعل ذلك كان نتيجةً لضربةٍ على الرأس بيد أن طبيب الحامية لم يسجل ندبة في الرأس أو لعل ذلك نتيجةً للأسى الشديد الذي تتالى مع المصائب في منفاه؟ هل غرق ذكاؤه مع السفينة أم بعد بضعة أشهرٍ؟

رغم كل ذلك وبعيداً عما يضمر بيل فإن نارسيس يبرهن لي عن ذكائه بأسلوبه الخاص إذا تخطينا عقبة اللغة لنتفاهم بالحركات، إنه يبدي

حماساً يضاهي حماسي ليحسن تبادل اللغة فيما بيننا. موافقةً المتحفظة واهتمامه بكل ما نقوم به وقدرته على التعلم تدل أنه راشدٌ سليمٌ فكرياً طبيعي تماماً إلا أنه غريبٌ كلياً. لم أفقد الأمل بعد بإعادته إلى عالمنا، إنه لا يتقن سلوكنا بعد، فلابد أن نتحمل قذارته بصبرٍ و لطافة كما واجهنا كل النواحي الأخرى.

طلبت من بيل أن يقدم إليه لباساً نظيفاً ويعلمه ماذا عليه أن يفعل لئلا يتسخ عندما يبول. في حين كنت أعالج آلاف التفاصيل كانت عبارات بيل تضفي الطرافة على الجو بعباراته المذهولة الجاحدة منفذاً الأوامر وهو يبرطم بأقسامٍ غامضة، أما نارسيس فقد خضع بطيبة خاطر لأسلوبنا بالتصرف فكان الدرس ناجحاً.

اللغة بالطبع كانت هي الأساس، كنت أذهب إلى نارسيس في السجن صباحاً ومساءً لأكلمه بالفرنسية وذلك في الأسبوع الذي سبق إقامتنا في هذه العزلة التامة. لم يكن لدي أية فكرة عن الطريقة التي سأتبعها لأساعده عل استعادة لغته الأم، بقاؤه صامتاً تماماً كان عائقاً في وجهي. ظننت أن أدعه يتأقلم من جديد مع أصواتٍ كانت فيما مضى مألوفة بالنسبة إليه فيكون استذكارها أكثر سهولةً، فجلست بحذائه طالباً من الحراس الابتعاد ورويت له كل ما يجول في رأسي، لم أكن ثرثاراً وكان إلهام الكلام ينضب بسرعة، فلجأت للأعمال الفرنسية التي وضعها الحاكم تحت تصرفي وهي ثلاثة أعمال، ترى هل بإمكاني قراءتها لنارسيس وهي «عناصر الرياضيات لضباط الطفولة» و«ذكريات إيطاليا بقلم امرأة من العالم»؟

بقي أمامي مقاطع مختارة لـ «راسين»، فشرعت أنشد لنارسيس في فترة ما بعد الظهيرة مقالة «تيرامين» و«حلم أتالي» و«آلام بيرينيس» و«تحذيرات أغريبين»، بدا حساساً لآلام هؤلاء الأبطال وبشكلٍ خاص لإيقاع البحر الاسكندري واللغة الجزلة.

كنت أكرر في كل لحظة أسماءنا «نارسيس» و«أوكتاف» لكي يعتاد عليها وفي صباح اليوم الأول في مصيفنا خاطبته كما أخاطبه دائماً وقلت:

- «طاب يومك نارسيس»

ازدرد بصعوبةٍ وهو يحدق بي مطولاً وهمهم:

- «تاف».

سمعتُ، سمعتُ أخيراً هذه الحروف «تاف» إنها شاهدٌ على الجهود التي أكرسها له وهي مكافأةٌ ثمينةٌ بالنسبة لي. وددتُ لو أدعو اسم «بيل» إلى معرض الأسماء هذا إلا أن الحيطة منعتني فبيل لا ينطق بأية كلمةٍ فرنسية فخشيت أن تختلط عليه اللغات وهو ليس ناضجاً تماماً بعد. منذ ذلك الوقت طلبت من «بيل» المحكوم بالأشغال الشاقة أن يقتصر حواره مع نارسيس على الحركات و حسب.

عرف نارسيس أن يكرر اسمي إنه لم يكرره كالببغاء بل فهمه، فحاولت أن أقدم له أشياء جامدة واسميها له وأشجعه على تقليدي مثل السماء والبحر والماء والعشب والصخرة ولكن عبثاً، إنه يراقب إصبعي بانتباهٍ شديد ويراقب ما أشير إليه ويصيخ السمع إليَّ و أنا اردد الكلمات ويبقى صامتاً. بدأ الدرس بعد الغداء من جديد. فكرت ماذا سأقترح له؟ لقد قلت أسماءنا فكررها ولم نشهد تقدماً بعد. باءت محاولةٌ مع عناصر الديكور بالفشل هي الأخرى.

وجهت بعض الكلام لنفسي محبطاً وتنهدت ثم رفعت يدي إلى شفتي بشكلٍ مسرحي وقلت:

- «يا نارسيس المسكين لقد يئست فلم أسمع بعد جملةً تصدر عن فمك».

فقال مقلداً حركتي:

- فم.

كما أنه كرر «رأس» و«ساعد» وفشل بكلمتي «ظهر» و«بطن».

دونت في مذكرتي بدقة تفاصيل التقدم الذي يشهده يومياً وخلال أسبوع تمكن من لفظ حوالي عشرين كلمة.

قدمت لكم هذه التفاصيل، سيدي الرئيس، كبرهانٍ عن أهلية هذا الفتى، حقاً هو ليس بغبي، إنني على يقينٍ من أمري. إنه لا يتعلم لغتنا كطفلٍ رضيعٍ أو كشخص أجنبي بل إنه يجدها داخله، فهو يستكشف من جديد ما عرفه دائماً وفقده على الشواطئ الاسترالية. ليس لدي أدنى فكرة عن النتائج التي سنستخلصها إلا أن الحالة مميزة لدرجة أنني أريد توثيق ما بوسعي من تفاصيلها، لعل العلماء يستندون عليها لبناء نظريات فهاأنذا أقدمها لهم كما هي و بجهودكم.

أرغب أن أصدق أنه وفي غضون بضعة أسابيع سيستعيد لغته وذاكرته تقريباً. وهكذا سيتمكن من سرد حكايته وحكاية غرقه ويروي لي بلسان حاله عن القبائل التي استقبلته لنتمكن من معرفتها جيداً. سأطرح عليه في سكون غرفة العمل أسئلة دون انقطاع فأتجول دون جهدٍ أو قلق في أماكن منفاه لأحمل منها حشدٌ من الملاحظات الشيقة والنادرة.

لم ينبس نارسيس بأية كلمةٍ من لغة المتوحشين التي تأوّه بها على متن سفينة «جون بيل» فشكل ذلك غموضاً جديداً أمامي، لا بد أنه وبمرور هذه السنوات الطويلة تواصل معهم بلسانهم وأنه قد تعلم منها المبادئ على الأقل والحقيقة أنه لم يعد يستخدمها حتى سهواً بل يبقى صامتاً أو يلوذ إلى بعض الكلمات الفرنسية.

كيف سأتمكن دون مساعدته من بناء مفردات لغة المتوحشين شمال شرق استراليا؟ في هذه اللحظة لن أتمكن من افتتاح هذا المشروع للمبشرين والبحارة رغم النفع الذي قد يعود به.

عسى أن تغفروا لي فوضى أفكاري، سيدي الرئيس، فالقارب سيغادر خلال ساعة مع البريد إلى أوروبا في هذا المساء. سأرسل إليكم هذا

الملخص خوفاً أن أتسبب بإزعاجكم وسأنتظر بفارغ الصبر أن ترسلوا إليَّ برسالةٍ مختصرةٍ تسدي لي فيها بعض النصائح والتعليمات عن الخطوة التالية التي عليّ إتباعها. لا بد أنكم أدركتم كم تعني لي هذه المغامرة فهي تهمني أكثر مما خُيل إلي أبداً، هل تسمحون لي بإرسال تقريرٍ أخيرٍ فحالة «نارسيس» فريدةٌ جداً بالنسبة إلي فأنا لم أعرف حكايةً أو مغامرةً أخرى في أي محيط آخر تضاهيها. هل هي حقاً فريدةٌ إلى هذا الحد؟ لعلكم أنتم والمجلس والأرشيف في جمعيتكم قد دونتم حالات يمكن أن تستخدم كسابقةٍ أو كنقطة مقارنة. فالمعلومات مهما كانت ضئيلة والإشاعة مهما كانت بسيطة قد تجدي معي نفعاً: هل بقي هؤلاء الغارقين على قيد الحياة؟ كيف عادوا إلى الحياة عبر أي طريق وبأية مساعدة قدمت لهم؟ هل تمكنوا لاحقاً من استعادة مجرى حياتهم الطبيعية؟ هل خلفت إقامتهم عند المتوحشين عواقباً؟ ماذا حلَّ بهم فيما بعد؟ عسى قصصهم تمد لي يد العون في مساعدة نارسيس بشكلٍ أفضل. بانتظار نتائج البحث التي قد تتفضلون بالقيام به، سأتابع دروس اللغة الفرنسية مع نارسيس وأعلمه آداب السلوك. آمل أن أقدمه إليك قبل نهاية الصيف.

صدقوا سيدي الرئيس

3

جعلته تلك النارُ المتقدة في الطرف الآخر من فُرجة الغابة يزداد اضطراباً، فشعوره بالوحدة كان أكثر ثقلاً من إرهاقه وهذه النار كانت له وعداً.

جثا على ضفة البحيرة دون أن يرى تلك الخيالات المجتمعة حول الموقد ورمى رأسه أولاً في المياه الخضراء وداعبت أعشابٌ طويلةٌ رخوةٌ وجهه الذي أحرقته الشمس و تمنى لو أنّ أنفاسه تضيع في المياه.

استرجع تعليمات المعاون بألا تملئوا براميل المياه إلا من ماءٍ جارٍ وإذا لم تعثروا على مصادر إلا من مياهٍ راكدةٍ فانتظروا حتى العودة إلى متن السفينة لتغلي جيداً قبل شربها. ترى ما الدويبات والأمراض المخبئة بهذه المياه الباهتة حيث تعبر نباتاتٌ دقيقةٌ وطعم طين؟ سخر من كل هذا.

عندما انتهى نهض ونظر من حوله، ما من قريةٍ ولا كوخٍ كان هناك حوالي ثلاثين متوحشٍ عراة مجتمعين، والنساء عارياتٌ يلاعبن أبناءهن أسفل الأشجار والرجال عراة جالسين قرب النار حيث تطهى طريدةٌ على الفحم فتنتشر رائحةٌ شهيةٌ لشحمٍ ووبرٍ مشوي. شارفت الشمس على المغيب فغاب معها الحر. ثلاثة أطفالٍ عراة يلعبون في الأدغال والعجوز تحجل دون هدفٍ واضحٍ.

طاف ببطء حول البحيرة واقترب حتى قدر أنها مسافةٌ جيدةٌ فرأى

رجلاً مسناً خمّن أنه الرئيس فتوجه إليه بصوتٍ أراد أن يكون مترعاً بالثقة وقال: «أنا بحارٌ من سفينة سان بول، سيعود القارب لأخذي، فإذا قدمت لي ما آكله وأعدتني إلى شاطئ البحر ستتلقى الهدايا: قلائد مرآة ومسامير وفؤوس فأنا أراك سيدٌ ذكي ومنطقي».

كان يدرك تماماً أن ما من أحد يفهم إطراءه الصغير لكنه أمل أن تفرض نبرة صوته وهيبته نفسها. تفرّس الرجل العجوز في وجهه للحظة ثم جلس وشرع بتقشير غصنٍ ورجعت الحوارات والألعاب، يبدو أنهم لا يكترثون لوجوده. جال بينهم علّه يعتاد على هذه الوجوه ذات أقواس الحواجب المدموغة وتلك البشرات السوداء المائلة للرمادية والأجساد العارية الموشومة محاطةً برائحة القذارة والغبار.

كان المتوحشون جمعياً أقصر منه قامةً بمستوى رأسٍ للرجل على الأقل وهم أشداء وصحيحو البدن تبدو عليهم القوة. أما النساء فلا يعرفن الحشمة ولا يغطين أي جزءٍ من أجسادهن، فكر باختصار بمومس الكاب التي ستبدو من الآن فصاعداً بجمالٍ أخاذ إذا ما قارنها بهؤلاء النسوة اللاتي لا يرتدين أي حلي خلا قطعةً من عظامٍ وصدفٍ في الأنف وتقتصر الوشوم على الساعدين والفخذين، في حين أن الوشوم تغطي جسد الرجال بالكامل تقريباً.

بخطىً بطيئة قام بجولةٍ حول المخيم أراد أن يبدو أكثر ثقة مما هو عليه فجال هنا وهناك دونما نظامٍ، فرشٌ مجهزة في أحضان الأشجار الأكثر قوة والأغصان المتكئة على الجذع تشكل سقف كل مخدعٍ، لعله أمام محطة صغيرة أو مخيم صيد؟ هل هذا ما يتخذونه كمأوى لهم؟ هناك بعض الأغراض المبعثرة على الرمال مطراتٌ وحجارة خضراء وأغصانٌ مشذبة على شكلٍ رماحٍ صغيرةٍ وجلدُ حيوانٍ صغيرٍ مذبوحٍ بالإضافة لعريشةٍ مجدولة، حذر من ملامسة الأغراض وحافظ على مسافة من النساء والأطفال لئلا يتسبب في سوء تفاهم.

إنهم لا يكترثون له لا أحد ينظر إليه ولم يأت أحد ليتحدث إليه أو ليلمسه حتى الأطفال عادوا إلى اللعب غير آبهين بوجوده، تخيل إليه الأمر بشكلٍ معاكس فيما لو ظهر أحد هؤلاء المتوحشون في الطريق أمام منزل العائلة ما بين المغسل والكنيسة أية جلبة تلك التي ستحدث! فهل هو شفافٌ بنظرهم؟ أم أنهم اعتادوا على وجوده جرَّاء مراقبتهم له منذ اليوم الأول.

جرى حوارٌ ما بين مجموعة الرجال فاجتمعوا حول النار، لا بد أنهم يتحدثون عنه فما الحدث الآخر الذي يعلقون عليه؟ اقترب منهم ليصغي إلى لغتهم محاولاً أن يستدل على بعض العناصر المعروفة بعض الكلمات الأولية إلا أن ما سمعه لا يشبه شيئاً فهو عبارة عن مقاطع صوتية ترتفع وتنخفض تقطعها فرقعة اللسان وأصواتٌ صادرةٌ من الحلق.

جلس القرفصاء بالقرب منهم ووضع راحة يده على جذعه وقال ببطء: «مساء الخير، اسمي نارسيس، ادعى نارسيس».

بيدو أنه قاطع حديثهم فحدجوه جميعاً بنظرةٍ لا تعبر عن مشاعر خاصة ولا دهشة ولا استياء ولا فضول ثم عادوا إلى حوارهم.

هبط المساء معلناً وقت الطعام إذا ما كانت عادة العجوز هي عادة القبيلة فانتظر زادهم بما أنه ليس لديه شيءٌ آخر يقوم به ومع ذلك فلم يبدُ له أن هناك من هو منهمك بالطبخ.

أين السفينة الشراعية الآن؟ قد تعود سان بول خلال عشرة أيام، إنهم بعيدون جداً عن الشاطئ فلن يكون ضوء نارهم التي توقدها الأغصان على مرمى النظر حتى بالنسبة للمراقب أعلى السارية، ليعثر على البحر من جديد يجب أن يمضي بالدرب بشكلٍ معاكس، فتساءل إن كان قادراً على فعل ذلك لا بد من التفكير ملياً لينظم نفسه ويتمكن من الوصول إلى هناك فلا يهرب عائداً إلى الشاطئ إلا بالوقت المناسب. سيستجمع قواه وهو يعيش بين هؤلاء المتوحشين، سيسرق مطرةَ ماءٍ وقطعاً من اللحم

ويكون على الموعد، شكلت اللامبالاة التي يبدوها له إشارةً جيدةً فهم لم يعارضوا رحيله ها قد تم وضع مسودة الخطة.

قطعٌ من اللحم! إنه لم يتناول شيئاً منذ أن مضغ لقمات الحرباء واللفت التي حضرتها العجوز وها هو الجوع يقضّه من جديد بعد أن خمد عطشه.

لم يقدموا له لا المأوى ولا الغطاء فهو ليس بالنسبة لهم ضيفاً، بل أسوء من ذلك، فلو أنه سجين تحت المراقبة الدائمة مكبل اليدين لقدم له السجّان وجبتين على الأقل واحدةً في الصباح والأخرى في المساء فمن هو بالنسبة لهم؟

تعالت في الليل ضوضاءٌ خفيفة سببها الرجال إذ دفع الفتية منهم الجمر والحجارة بعصا ثم استخرجوا الرمل لتظهر حفرةٌ بعمقٍ كبيرٍ مغطاةً بأوراق ضاربةٍ إلى السواد وسّعوا الفتحة مجازفين بحرق أصابعهم ثم أبعدوا الأوراق، أمسكوا بشوكتين سيئتي الإعداد حيواناً ذا حجمٍ جيدٍ مطهو داخل هذا التنور تفوح منه روائح اللحم المطهو بالمكمورة ثم وضعوه على الأرض.

أخذ الرجل العجوز الذي خاطبه نارسيس حجراً مدبباً وببعض الحركات الدقيقة قطّع الطريدة لأجزاء، اقترب كل رجل وأخذ قسماً ثم عاد ليجلس قرب النار ويأكل عندما تناول الجميع حصصهم، اقترب نارسيس بدوره فأخذت الرجل العجوز الصدمة وأومأ إليه بالابتعاد وعندما رآه مترددا نبح بأمرٍ مختصرٍ لا لُبس فيه كما فعلت المرأة العجوز حين حاول أن يقدم الطعام لنفسه ثم نهض الشبان متأهبين للتدخل ليس لديهم خطة لمواجهتهم فلم يُصر.

تناول الرجال عشاءهم بهدوء زادوا وجبتهم حتى الشبع، وبعد نداءٍ لم يوجه لأحد، تقدمت مجموعة من الفتية تتراوح أعمارهم بين الخمسة عشر عاماً والعشرين عاماً أخذوا حصتهم من الطعام ثم انخرطوا بالراشدين،. جرب حظه مع الفتية فلاقى الرفض الجاف عينه.

بعد أن أصبح الحيوان صغيراً حان دور النساء. لم يحاول الذهاب معهن. هل سيأتي دوره أخيراً؟ عليه أن ينتظر ويقبل بأن يشبع الجميع نساءً ورجالاً ليأتي على الباقي؟ استحوذت النساء على قطعٍ لهن ثم عدن ليجلسن على الرمال مع أطفالهن الذين تناولوا مما تأكل أمهاتهم. أنهى الرجال عشاءهم فأصغوا لمقالٍ طويلٍ بصوتٍ منخفض. تجول بين المدعوين إلى العشاء فقادته الصدفة بجوار المرأة العجوز والتي يبدو جلياً أنها الأكبر سناً في القبيلة، لم يكن لديه ما يقول لها عندما مر بجوارها حتى إنه لم يكن مسروراً برؤيتها مجدداً. مدت له قطعةً كبيرة من اللحم يلف عظمة وفي جهة منها تفحم الجلد، والتهم ما ظن أنه الجزء السفلي من كبشٍ مطهوٍ بشكلٍ جيد، غاصت أسنانه في اللحم وسال الدهن على ذقنه فشعر بمتعةٍ عنيفةٍ وبدا جوعه يكبر أكثر، التهمها كلها ببضع لقيمات مضغها مطولاً وهو يمص العظم ويقضم الغضاريف ويكشط بسكينه بقايا اللحم العالق على الجلد.

هدأ جوعه إلا أنه لم يشبع بعد فعاد إلى المرأة العجوز وعبَّر بحركةٍ ملحةٍ أنه يريد المزيد، لا يحق له أن يقدم لنفسه فعليها أن تقدم له هي وبسرعة! نهضت وأحضرت له قطعة أخرى ما تبقى حول كتفٍ، فتناول قطعته الثانية بتمهلٍ تحت ضوء النجوم وبأحضان وميض النار التي يغذيها الرجال بالأغصان اليابسة. لم تعد المرأة العجوز تكترث به أما الرجال فتمددوا قرب النار وهم يصدحون بأنشودةٍ رتيبة. كل ما في هذه الأمسية الهمجية يوحي إليه بالرعب والاشمئزاز.

إنها المرة الأولى منذ خمسة أيام عندما بدأت مصيبته التي يشبع فيها فاختار لنفسه شجرةً نائيةً إلى حدٍ ما ثم انطوى على نفسه وما لبث أن غط في نومٍ عميق، هدهد له التعبُ والشباب.

أيقظته فجراً دعةٌ همجيةٌ فنهض قافزاً ليجد نفسه بمواجهة عشرات الرجال يحيطون به صامتين ومتيقظين، توخى الحذر فوراً فهناك

شيء ما بحركتهم يوحي بلحظةٍ جسيمة وخطيرة، فبدا له عدم اكتراثهم له ليلة أمس، والذي لم يحبه، أفضل من هذه الوضعية التي تعلن هجوماً. لماذا؟ لماذا اختاروا هذا الصباح؟ ماذا عساه يفعل بسكينٍ في مواجهة هؤلاء الأشداء الذين يطوقونه؟

تقدم أحدهم بخطىً بطيئةً حتى لمسه، لمس بيدٍ مترددة كم القميص القماشي ذي اللون الرمادي الضارب للبياض كما لو أنه يود تفحص القماش ولمسه. هل فضول المتوحش العاري من ثياب ذي البشرة البيضاء هو فقط ما دفعه لمثل هذه المداعبة؟ تعلق نارسيس بهذا الأمل.

«هل ترى يا بني إنه قميص، هنا زريين كما يمكنني أن أشمر عن ساعدي».

قارن الحركة بالكلام فما كان من الهمجي إلا وضع يده بحذرٍ على صدر نارسيس الذي قال: «جيد جداً، لقد فهمت. يوجد أيضاً صفٌ من الأزرار في الأمام فهو يسمح بارتدائه أم بخلعه. انظر».

أصبح عارِ الصدر كاشفاً عن عضلات حسنة الرسم ويغطيه القليل من الشعر في حين أن أجسادهم لا تكتسِ بالشعر أبداً، ثم ألقى القميص جانباً.

نطق أحد المتوحشون، وهو يحرك رأسه بانتظام، خطاباً صغيراً أصغى له الآخرون بانتباهٍ واضحٍ، أنهى خطابه بنوعٍ من الصراخ ثم عاد إلى الصمت ولم يؤت أحدٌ بأي حركة.

قفزوا فوقه إنه لم يرهم يهاجمون فشعر بأنه ممسوك من كل الأطراف، خُيل إليه أن ساعته الأخيرة قد حانت، كردة فعل تخبط ورفس بقدميه راغباً الإفلات منهم إلا أنهم كانوا كثر فثبتوه على الأرض. أدرك بسرعة أنه لم يتلقَ أية ضربة، أرادوا فقط أن يمنعوه من الحراك والألم الذي ينتابه ناتجٌ عن أيدٍ قويةٍ تكبح حركاته فتابع التخبط متلوياً بيد أن الخوف المرعب الذي اجتاحه قد تضاءل.

شعر مشدوهاً بأن الأيادي التي تحتجزه تكاد تنزع سرواله، حاول أن يمنع ذلك ولكن عبثاً، ذهب لباسه الداخلي في الطريق ذاته أوصلوه إلى العرقوب رغم التوائه وضربات ركبه، بات عارياً. لمح المرأة العجوز بينما هو يتخبط تلم ملابسه وتتجه نحو الغابة.

مضى كل شيء بسرعة كبيرة. لماذا أيقظوه ليعروه بالقوة؟ إنه لم يتلقَ أية ضربة. هل هذا نوعٌ من اللعب أو من المزاح المزعج؟ لم يبدُ عارياً البتةَ أمام كائنٍ من كان لا في القرية ولا لاحقاً على متن السفينة خلا أمام فتيات مواخير الميناء في النور الخافت وللحظة فقط. لم تشهد أية امرأة هذا المشهد وكل مهاجميه عراة بيد أنه تحرَّق ازعاجاً وإهانةً وتمزقاً.

مازالوا يقبضون عليه بقوة وما انفك يبذل جهده للإفلات منهم، إذا تمكن من ذلك سيلحق بالمرأة العجوز ويستعيد سرواله وسكينه المعلق بالحزام، على الأقل السروال. قبضت يدين على رأسه بارتفاع الصدغ وأرادوا رأسه باتجاه الناحية اليمين، حاول مقاومة هذه القبضة التي أبقت أنفه ممرغاً بالتراب، تدفق الشجن من جديد كأمواجٍ عاتية متكسرة، هل خلعوا ملابسه ليقتلوه أم ليذبحوه أم ليسيل دمه قبل أكله؟

كان الألم مباغتاً وعنيفاً حتى كاد يفقد الوعي، لم يعد أحد يمسك به وبات يعوي من الضيق ملتوياً على نفسه، يده متشنجة على أذنه اليسرى، والدم يسيل على رقبته لم يكن بوسعه سوى الطبطبة بأطراف أصابعه حيث تشعُ سيوفٌ من نار، انتزعوا أذنه على أية حال شحمة الأذن التي حملت بدلالٍ قرطا من النحاس المذهب.

تأوّه باكياً غارقاً في اليأس: «كنت سأعطيكم إياه، يجدر بكم فقط طلبه كنت انتزعته وحدي....»

ابتعد المتوحشون وفي أعماقه شيءٌ ما يتمزق، ولاحتمال الألم تابع منتحباً موجهاً لهم الكلام ضاغطاً أذنه الممزقة بين أنامله علَّ تدفق الدم

ينضب: «لِمَ أنتم قساة القلب إلى هذا الحد؟ دعوني أغادر أو اقتلوني حالاً ولكن كفوا عن تعذيبي أريد العودة إلى زورقي، اللعنة عليكم أليس في قلبكم رحمة، إن القرط ليس من الذهب، إنني لم أفعل ما يسيء لكم....»

بكى طويلاً وهو يفوق كطفلٍ عبر نشقاته ودموعه فأذعن غير آبه لشيء وألم جرحه يدوّي في كل الاتجاهات. لم يعش قبلاً ما يهيأه لاحتمال هذه التجربة لا شيء مما تعرض له بات يحمل معنى.

حمله هذا القرط النحاسي المذهب سنةً إلى الوراء في شارعٍ صغيرٍ في بوردو حين أصبح بحاراً على متن سفينة شراعية ذات صاريين تنقل براميل الخمر إلى لندن دفعتهم العاصفة خلال رحلتهم الثالثة إلى خليج «غاسكوني».

تجمدوا بريحٍ خريفية على طول ثلاثة أيام وثلاث ليالي تتلاطم فيها أمواج البحر العاتية على هيكل السفينة ليتخبط الطاقم محركاً ما تبقى من قماشٍ متضرعين للعذراء ولكل القديسين أن ينجوهم من هذه الأمواج الهائلة التي تنبثق من كل اتجاه.

شقت الشمس كبدة السماء في اليوم الرابع لتضعف أمامها الرياح ويغفو البحر على هدهدتها رويداً رويداً فاتجه الربان أخيراً إلى منارة «كوردوان»، على متن السفينة ثلاثة جرحى فقط، وما إن نزلوا إلى الرصيف الشاطئي حتى علموا أن العاصفة ابتلعت خمس سفن.

قدّم الربان لكل رجلٍ من الطاقم قطعةً نقديةً ما إن فرغوا من إنزال الحمولة وإصلاح السفينة. رغب نارسيس هو و أحد أصدقائه دون تردد بالتباهي بقرط أذن كما يفعل البحارة الأكثر قوة، زرعوا الرصيف بخطاهم الحائرة من متجرٍ إلى آخر، حتى حددت ابتسامةُ إحدى البائعات اختيارهما، فثقب كل منهما أذنه اليسرى واضعاً حلقةً مذهبةً. حليٌ وشاربٌ رفيعٌ يحمله بين الفتية والأخرى ليلقي على نفسه هيبة العمر بالإضافة لخطواتٍ واثقةٍ ولسانٍ طليقٍ، كل هذا يضفي عليه هيئةً حسنةً لا محالة.

بعدما صرفا قليلاً من مال، بقي لديهما ما يكفي للذهاب إلى الحانة ثم إلى ماخور البحارة.

شعر بحضور أحدٍ ما، إنها المرأة العجوز جلست بحذائه منتظرةً فقال: «أنت أيضاً أتيت لتعذيبي.....»

فتحت راحة كفها لتريه عجينة مخضرة ثم كررت مرة بعد مرة كيفية وضعها على الأذن حتى فهم ووافق أن تمد له البلسم على الجرح فخففت رطوبة الخليط ألمه قليلاً، ثم أكمل قائلاً:

«جعلتموني أموت جوعاً وعطشاً فأتيتني بالماء والطعام. صنعتُ سهماً على الشاطئ فبعثرتموه نزعتم أذني وها أنتذا تعالجينني. إنكم لمجانين جمعياً في هذا البلد؟».

قدمت له نوعٌ من أنواع الخيار ذي الزغب وأشارت إليه بتناوله فلم يكن الطعم المائي عديم اللذة كريهاً. رأى الدم الجاف تقريباً على معصمه عندما رفع يده إلى فمه، لا بد أن رقبته متلطخة بالدماء أيضاً.

لو أرادوا التخلص منه اليوم لما أرسلوا المرأة العجوز لعلاجه، إذاً بإمكانه الاغتسال بالبركة، نهض واضعاً يده اليسرى حول أذنه فانتبه لعريه الذي نسيه غارقاً في آلام جرحه.

وضع يده على عضوه بشكلٍ عفوي فلم يحتمل فكرة بقائه مكشوفاً هكذا فمنذ سنين خلت عندما تخطى الاختبار للمرة الأولى حيث خضع بجرأة لاختبارات الأب نبتون، طلب البحارة القدامى ذوو الأقنعة الشيطانية من النوتين الحديثين أن يخلعوا ملابسهم ويركضوا عراة من جؤجؤ السفينة إلى الكوتل فكان هذا الهرج الذي دام حوالي عشر دقائق اللحظة الشاقة الوحيدة في المهرجان. أما هنا فينبغي السير عارياً بين متوحشين عراة، لا أحد هنا يسير مثله بيدٍ منقبضة من الأعلى ويدٍ أخرى أسفل البطن، إن وقاحتهم هي أكبر دليلٍ على همجيتهم وهو لا يريد أن يغدو مثلهم.

اجتاز المخيم دون أن يراه أحد ليهزأ أو ليهتم به فهو عارٍ مثلهم عارٍ

بسببهم. من سيوجه اللوم له؟ وطأ حافة النهر و جثى على ركبتيه فخفف الماء الندي ألمه ثم سكب الماء مراراً على رقبته وقفنه وذراعيه.

خصلات الشمس الغافية على جسده العاري قرب البركة كانت أمتع وأغرب من شعوره الكريه وما زالت أذنه المبتورة تنبض بالألم.

جاءه أحد الرجال وهو ذلك الذي لفظ الحوار الصغير قبل الهجوم فنهض نارسيس متسائلاً عن الاختبار الجديد الذي ينتظره. على بعد خطوتين، وقف الرجل ومد يده مفتوحة إلى نارسيس وقال:

- «أمغلو».

كرر ببطءٍ مشدداً على المقاطع «أمغلو» وأشار بإصبعه نحو السماء. ماذا يريد أن يقول له؟ ماذا يود أن يقول؟ إن الرجل لا يبتسم، عبر عن نفسه بهدوء. فانفجر نارسيس غاضباً على هذا الهدوء:

«أمغلو؟ انتزعت نصف أذني، ما أنت سوى لص! أعد لي سروالي وسكيني! أعطني ما أسد به الرمق!».

لم تخلف هذه اللعنات أي أثر فهي من رجلٍ عارٍ يده اليسرى تلف كصدفةٍ حول أذنه الجريحة ويده اليمنى أسفل بطنه؟ بيد أن الهيجان في صوته لم يكن يحتاج إلى مترجم، إنه لم يسأل نفسه إن كان تصرفه صحيحاً فهو مشدود الأعصاب ثم اغرورقت عيناه بالدموع. تحدى بنظره هذا الرجل وأراد أن يدفع ثمن كل الآلام التي كابدها على هذه الأرض ثمناً باهظاً. فرجع المتوحش خطوة وانتظر من نارسيس أن ينتهِ ثم كرر كما لو أنه لم يسمع شيئاً وبسط راحة يده مرة أخرى إلى السماء:

«أمغلو».

الرسالة الثالثة

سيدني، الثامن من نيسان لعام 1861

السيد الرئيس.

أفرغت المحابر وودعتُ أياماً وأنا أكتب دون خطةٍ مسبقةٍ لذا لا بد أنكم ظننتم عند قراءتكم رسالتي المرسلة في السابع عشر من آذار أن الزمن قد اختلط في رأسي أو المنطق أو كلاهما معاً لكن التطور الذي يشهده نارسيس كان المصدر اليومي للمفاجأة، تكاد المشاعر التي أكنها لنارسيس تصبح مشاعر ذاك الأب الذي يشاهد تقدم ابنه مع أنني لم أنال فرصتها شخصياً ورغم أن نارسيس راشداً آويته لا تجمعنا صلة القربى.

بدأت هذه الرسالة بالغموض ذاته الذي أكتنف سابقتها رغماً عني وأعد بالتخلص من هذه النقطة من الآن فصاعداً.

منذ حوالي شهر عندما استعاد نارسيس لغته، ما انفكت قدرته على التعلم تثير مشاعري وهذه النقطة الأولى والأساسية.

إننا نمضي في الطريق السليم رغم غياب تركيب الجملة وأدوات التعريف بل إنني لا أتوصل لمنع نفسي من ملاحظة أنه يتكلم مرتكباً ذات الأخطاء التي يقوم بها طفلٌ بالرابعة من العمر كما أنه ينجز في غضون أسبوع ما يستغرق ستة أشهر ليتعلمه طفلٌ صغيرٌ. لفظهُ مميز فهو يغير الكلمات ويغنيها ويزينها بغرابة حنجرته أحياناً.

كيف لنا ألا نذكر حماسه للتعلم؟ إذ تتم الدروس مرتين باليوم لساعتين ولم يختر هو نهايتها البتة، أما في الوقت المتبقي فهو يستحم وينام ويتنزه ونتبادل بعض الكلمات ويشاهد بيل وهو يعمل بهدوء.

تبادر لذهني سؤال عندما رأيته يجدل سلة: هل هو سعيد؟ بيد أن هذا السؤال عقيم الإجابة فهو لا يعبر عن أية مشاعر شخصية فيبدو أنه يعيش كلَّ يومٍ بيوم. دفعته الصدفة على متن سفينة «جان بيل» ثم مضت به إلى سجن الحاكم حتى رمت به في هذا المنزل النائي وهو استسلم لكل ذلك كلياً فهل يمكننا أن نقول أنه فعل ذلك من باب الحكمة؟ اللامبالاة؟ أم نقصٌ في الفضول أو المبادرة؟ من يدري؟

أرسل إليَّ الحاكم الزورق بناءً على طلبي إذ سألته مقابلة ربان سفينة «جان بيل» عند عودتها إلى خليج سيدني لاستفهم عن ظروف اكتشاف المتوحش الأبيض. وصلت المدينة عند الغسق حيث حُجزت لاسمي غرفةٌ في أفضل الفنادق.

وأي ابتذالٍ يطغى على الابتذال في أمسيةٍ في فندقٍ حيث يرتدي الرجال الزي الرسمي وترتدي النساء أزياءً باريسية بأكتافٍ عاريةٍ ويتجاذبن أطراف الحديث بودٍ على الشرفة والنغمات الراقصة التي يعزفها بفن على البيان أحد المحكومين تملأ المكان؟

يصعب عليَّ وصف الضيق الذي تملكني منذ وصولي والذي لم يبارحني طيلة فترة العشاء؟ رغم أن الشوق لا يحملني لأمسياتي الوحيدة التي يقدم فيها بيل العشاء إليَّ تحت أنظار نارسيس المنتبهة. علاوةً على ما كابدتُ من شعور الغربة عن هذا العالم حين تناهت لمسامعي هذه الحوارات الاجتماعية التي عانيت من المشاركة فيها.

تملَّصت بعد العشاء من هذه الصحبة وثرثرتها وهمتُ على وجهي في شوارع المدينة والميناء. هناك عند بوابة الحانات بحارةٌ وجنود يحيون حياةٍ باذخةٍ تمسك بأذرعهم فتياتٌ أظن أنهن مومسات، يبدو عند نهاية كل شارعٍ

أو بعد منزلين أو ثلاثة منزل فانوساً أحمراً حيث هربت أيضاً نفسي المضطربة التي لن تجد هنا سوى السلوان العابر والمؤقت.

في الصباح الباكر وفي مكتب الحاكم جرى الحديث مع الريان «رولاند» وهو رجلٌ قصيرٌ وكثير التذمر ومخادعٌ بشكلٍ غريب بالكاد ألقى التحية علي ولم يخف ضيقه بالوقت كان بوده وبكل سرور لو يرسلني لأتنزه بعيداً عنه بيد أنه لا يستطيع فهو يود ملاطفة ديوان فخامة الحاكم.

إنه كثير الصمت مثل سائر البحارة ولم يكن وجود الحاكم ولا الأسئلة التي يطرحها فرنسيٌ غريبٌ يحثانه أبداً على الحديث، علي أن أشجعه دون توقف لأحصل على الإيضاحات التي أصبو إليها فأصل إلى السرد الآتي:

في التاسع عشر من شباط حدثت بعض الأعطال في صواري السفينة فلزمني سطحُ ماءٍ هادئٍ حتى أرسل النجارين للقيام بعمليات الإصلاح في الأعلى، سمعتُ عن ذاك الخليج في الشمال تحت «رأس يورك» حيث رست سفينة «جان بيل» في الصباح الباكر وبدأ العمل، سمحتُ لبعض الصبية الذين لا جدوى منهم في عمليات الإصلاح بالنزول إلى اليابسة فتنزهوا للحظة على الشاطئ، رأى بحارٌ من أعلى الصاري متوحشين يبحثون عن الأصداف بين الصخور، فأطلق صفيراً ليسترعي انتباه المجموعة على اليابسة ويشير إليهم بالذهاب للقائهم.

دائماً ما كانت رؤية هؤلاء المتوحشين المرعبين مذهلةً وتؤثر بالنوتين. والحقيقة أنه لو أراد أحد الصبية أن يجر إحدى هؤلاء النسوة متخطياً اللون والرائحة و يصطحبها إلى أحد الأدغال ليمضي معها بعض الوقت لما كان لدي ما أقول له. ذلك يتعلق بما وجدنا، أليس صحيحاً؟

مضوا إليهم إذاً وعندما وصلوا عثروا على أبيضٍ عارٍ وموشوم بين المتوحشين! سألوه ماذا يفعل هنا فلم يفهم شيئاً وأجابهم برطانة المتوحشين واستحال عليه قول اسمه حتى تصرف الشبان بشكلٍ جيد إذ اكتشفوا أنه غريقٌ وقرروا اصطحابه إلى متن السفينة دون تمهلٍ ولكن كيف سيأخذونه؟

لقد كان ذو البشرة البيضاء كثير الحركة فلم يكف عن المجيء إليهم ولمسهم ثم العودة إلى القبيلة التي توقفت عن صيد السمك، لم يبدِ أحدٌ منهم اهتماماً لكل ما عرضوه عليهم من تبغٍ ومسامير وقلائد. عادوا بهدوء إلى زورق الإنقاذ فتبعهم ذو البشرة البيضاء وتبع المتوحشون ذي البشرة البيضاء.

أُطلقت ثلاث صفارات معلنةً التأهب. عندما رأيتُ هذا الموكب أخرجت سلاح الغدّارة وسلحت الزورق الثاني، ما كنّا حذرين كفايةً.

الكل على الشاطئ بقي هادئاً، ولم يلح أي خطرٍ بالأفق، أخبروني أن أعمال الإصلاح شارفت على الانتهاء، فأعطيت الأوامر بالاستعداد للإقلاع على محمل السرعة دون أن أبدي ما أضمر. استمر ذو البشرة البيضاء بالذهاب والإياب ما بين صبياني والمتوحشين الذين لم يجرؤوا على الاقتراب لأكثر من عشرين خطوة. تحققت عبر المنظار من أن المجموعة تقتصر على نسوةٍ ومراهقين بصورةٍ خاصة وليس بحوزتهم لا عصي مدببة ولا هراوات.

صعد الصبي ثم الثاني دون مبالاة إلى زورق الإنقاذ وأمأوا إليه بودٍ. جلس ذو البشرة البيضاء مبحراً على مقعد التجذيف وركب الباقون فوراً ثم جذفوا بسرعةٍ نحو جان بيل. نهض المتوحش الأبيض فأرغموه على الجلوس. وصلوا لمحاذاة السفينة فتسلقوا عبر سلمٍ من الحبال وكذلك فعل المتوحش الأبيض ولم يبدُ أخرقاً جداً، تفرسّت بوجهه وقد أخذني هول المفاجأة أما هو فكان ينظر حوله ويذرع الجسر بخطاه والانفعالُ واضحٌ جداً. تولى مساعد القبطان أمر التحريك، انفتحت الأشرعة بين يدي نسمةٍ طيبةٍ وشرعت عزيزتي «جان بيل» بالخروج مسرعةً من هذا الخليج، اعترى المتوحش الأبيض الاضطراب الشديد عندما فهم أننا غادرنا فقفز على حافة السفينة فخشيت أن يلقي بنفسه في الماء، ركض في كل الاتجاهات، كدتُ على وشك أن أجعلهم يقيدونه خوفاً من أن يتسبب بحادث أو أن يهاجم أحد البحارة.

أذعن ما إن رأى السفينة تمخر عباب البحر وجلس في زاويةٍ ولم يعد يؤتِ بأية حركة. همهم كلماتٍ لا أعرف ماذا قال. طلبت أن يحضروا له

وزرة وبعض الطعام، ألبسوه دون معارضة صلبة، أما الحساء فق اشتمه بانتباه ولم يمسه رغم ما خسرناه من ديكنا المطهو، كما لم يلقَ لديه نجاحاً لا الخبز ولا البيرة ولا موزةً من آخر الموز لدينا، وعندما حلَّ المساء حملت إليه غطاءً فلم يستخدمه لا كمعطفٍ ولا كفراش ونام جالساً.

لم يؤتِ بحركةٍ ولم ينبس ببنت شفة حتى وصلنا سيدني، فرويت لدى وصولي كل ما جرى للسادة في مركز القيادة البحرية، وكان عليَّ أن أبقيه ليلةً أخرى على متن السفينة مع العلم أن رجالي ليسوا حراساً للمساجين في المؤبد وفي صباح اليوم التالي مفرزة من الجنود لتخلصني منه.

هاكم كل ما استخلصته من ذاك الرجل الشرير الذي غادر دون أن يلقي التحية ما إن أذن له الحاكم.

سنحت لي هذه الإقامة على طول ليلةٍ ويوم الفرصة على الأقل للمثول أمام قاضي الجالية ليعطني صيغةً أعتني فيها بنارسيس.

يكتنف الغموض القانوني الانكليزي وخاصة في نسخته في الجالية، إذ يبدو الرجل ذو الشعر المستعار نائماً على منصته ذات الخشب الأسود وهناك حيث كان من المفترض وجود محامين وشهود وحجاب ووكلاء تم تنظيم القضية فيما بيننا في غضون ربع ساعة، طلب مني القاضي وبعد قراءة تقريرٍ رسميٍ إخفاء هويتي والتأكيد بأنني قبلت أن أكون كفيلاً لنارسيس، لم يصغِ لأجوبتي ووقع وثيقةً كُتبت مسبقاً فأعطاني نسخةً منها وأحتفظ لنفسه بنسخة.

على متن الزورق، في طريق العودة، قرأت الصفحات العشرة التي نسخها دون أدنى شك محكومٌ بالأشغال الشاقة موظفٌ بالكتابة وتقريباً فهمت أنني بتُّ الوصي على المجهول المدعو «المتوحش ذو البشرة البيضاء» والذي نزل في سيدني على متن سفينة «جان بيل» في الخامس والعشرين من شهر شباط لعام ألف وثمانمائة وواحد وستين، ها قد أوفى الحاكم بعهده.

كان بيل بانتظاري على الرصيف العائم ليخبرني أن نارسيس قد

اختفى في فترة بعد الظهر، وذلك بعد مغادرتي، حيث تناولا العشاء معاً أو بالأحرى جنباً إلى جنب. لم يرَه منذ هذا الصباح وازداد قلق بيل أكثر فأكثر مع مرور الساعات، لم أصدق كلامه تماماً. أشار إليَّ، خوفاً من التوبيخ، أنني لم أطلب منه مراقبة نارسيس، فما كان مني إلا طمأنته من هذا الجانب، كما هنأته على أنه لم يخبر فريق الحماية.

لعل نارسيس قد غادر منذ عدة ساعات أو منذ الصباح دون أدنى شك أو منذ مساء الأمس. لماذا غادر؟ في أي اتجاه؟ لم تلقَ هذه الأسئلة جواباً.

ماذا عساي أفعل؟ هل أرسل إنذاراً ليعس الجنود المخيمون على ناصية الطريق في كل اتجاه؟ لست أدري إن كان باستطاعتهم بل أشك أن يكون بوسعهم اللحاق برجلٍ اعتاد الأدغال والتقدم السريع، ربما يتيح التجول بمساحات شاسعة العثور عليه بالإضافة لقيادة منهجية خلال عدة أيام، كما أن نارسيس لو أراد الاختباء لمرَّ الجنود بمحاذاته دون أن يلحظوه. عادةً تستخدم المجموعة للحاق بالمحكومين الفارين كلاب صيدٍ مروضة لاستفزاز الفرارين ثم القفز على رقابهم. ترى هذا هو الثمن الذي أريده لرؤية نارسيس من جديد؟.

غادر من جديد إلى الغابة. آلمتني مغادرته بشكلٍ غريب ولكن تحت أي مسمى سأقف بوجه اختياره؟.

لفت بيل الذي يبحث في كل مكان انتباهي إلى أن نارسيس قد ترك ملابسه قبل أن يختفي. هرب عارياً إلى الأمام نحو أرضٍ مجهولة، هل يعني هذا وبوضوحٍ رغبته بالرجوع إلى الوراء ورفضه لأسلوب حياتنا؟

عائلته تحيا بيقينٍ أنه قد توفي منذ وقتٍ طويلٍ ولا سبيل لدي للعثور عليها استناداً على الاسم الأول وحسب، لن تعرف أبداً أنه على قيد الحياة، إنه لا يرغب بالعودة إليهم. حسناً ما هي وسائل البحث التي اتخذها من الآن فصاعداً؟

إن نارسيس حر ويمارس حريته. لقد رحل خلال غيابي في المدينة،

هل غيابي سبب رحيله؟ هل ظن أني لن أعود؟ هل يكنُ لي شيئاً من المحبة أو من الصداقة؟ يبقى التزامي الوحيد أمام الحاكم الذي عهد به إليَّ، أنا على يقينٍ بأني لو حملت إليه نبأ موته لما اتخذ حتى المظهر اللائق بالنبأ فنارسيس بالنسبة إليه مصدرٌ للمتاعب والريبة ليس إلّا. لن أسارع بإرسال النبأ لأفسح لنارسيس المجال للاختفاء إذا ما كانت هذه رغبته.

يبدو من المنطقي أن أنتظر حتى يوم غدٍ حين سيأتي الزورق إلي ويصطحبني إلى مكتب الحاكم وبذلك سيمضي يومان قبل حملة البحث إذا تم تقريرها. ستضمن هذه المهلة فقدان فعالية هذه الحملة و هي هدية الوداع التي سأمنحها لنارسيس.

هيمنت هذه الأفكار الكئيبة عليَّ طيلة اليوم، تناولت طعام الغذاء في وقتٍ متأخرٍ دون شهية وبيل الذي قدمه إلي بدا على يقين مطلقٍ أن عودته إلى السجن حتمية بعد مغادرة نارسيس. ما يعنني فقط هو مصير نارسيس، هل سيلتقي في الغابة بمتوحشين آخرين وهل سيتوصل للتأقلم معهم؟ هل سيتحدث بلغتهم؟

هل سيمتلك القوة ليبدأ تأقلمه معهم على بعد ثلاثمئة أو أربعمئة فرسخ نحو الجنوب؟

لن أعرف أبداً الجواب. ستنتهي هذه المغامرة التي بدأت منذ حوالي شهرين على هذا النحو مجردةً من الخاتمة وفارغة من المعنى وبالتالي كل ما التزمت به وما تخيلت سيبقى قيد المجهول.

قاطع فارسٌ يحمل إليَّ رسالة من الحاكم هذه الأفكار التي انكبُ على تدوينها. لم يقل لي كيف علم الحاكم بهروب نارسيس مع عودة الزورق إلى المدينة بيد أني خمنت أن بيل الذي بدا مهموماً بترتيب مستقبله خالفني وأخبره برسالةٍ مقتضبةٍ عبر ربان الزورق أو عبر قيّمة البياضات. أخبرني الحاكم برسالته أنه لا يعتزم اللحاق به في أعماق الغابات المحيطة بسدني من كل حدبٍ وصوب، بكل برودٍ أو لعلها مجرد دعابة؟ كما بين لي أن ليس هذا التابع

الفرنسي لا الأوراق ولا التراخيص اللازمة للإقامة في الجالية، لا تبرر هذه المخالفات اللحاق بالرجل لقد خرج من مكانٍ ما وسيعود إليه ثم أُغلق الملف. انفعلت في اللحظة وقد صدمني انفعالي. عندما سألني الفارس ماذا يفعل؟ أرسلته ليمضي ليلته في مخيم الجنود عند مدخل الملكية لئلا يحمل جواباً حتى يوم غد. لم احتفظ من نارسيس إلا بمخططات وشوم. عليَّ التفكير ملياً.

سأنهي هذه الرسالة الطويلة جداً، تاركاً لكم، سيدي الرئيس، الاهتمام باستخلاص عبرة. هل كانت هذه المهمة التي قبلتها بسرعةٍ ثقيلةً على كاهلي؟ هل كان غيري جديراً بها؟ هل أخطأت بأسلوب تعاملي مع نارسيس وتعليمه من جديد؟ ما كان الخطأ؟ ماذا كان يجدر بي أن أفعل وما الذي لم أفعله؟ ماذا تعني لا مبالاته المذعنة بمواجهة عالمنا؟ لا تهم الأسباب بعد فشل التجربة. اختار نارسيس أما أنا فسأعود إلى فرنسا على متن سفينة العودة وأحرر مقالاً عن هذه المغامرة وأنشره في مجلة جمعيتكم.

التمس منكم ألا يكن حكمكم قاسياً على هذا العمل وبشكلٍ خاص على جهودي التي خلفت طعماً مراً بعد نقصانها.

صدقوا، سيدي الرئيس..

عند الغسق في حين كنت أنهي الرسالة، عاد نارسيس لم يشك بالاضطراب الذي سببه غيابه، يحمل بكل فخرٍ نوعاً من الثعالب الكبيرة بذيله. وجهت له لوماً عنيفاً كأول ردة فعل إلا أنني لست لا رقيباً ولا مديراً في ثانوية لأوجه الملاحظات إليه كما أنه لا كلمات لديه ليفهم ما وددت قوله، لاحظ غضبي دون أن يتمكن من تخمين الدوافع.

قرفص على عقبيه وارتدى ملابسه من جديد مشاهداً فريسته تطهى على النار التي حفر لها قرب النهر وغطاها بأحجارٍ مسطحة. لن يتناول هذا المساء من طعام بيل الذي كان متضايقاً وأرهقني بثرثرته رافضاً تذوق لحم هذا الحيوان الذي يظن أنه نصف قط ونصف ابن عرس.

اجتمعت العائلة المميزة التي نشكلها من جديد.

4

مر اليوم بطيئاً بعد الهجوم ولم يعد المتوحشون يكترثون إليه بعد بتر أذنه.

بقي في الصباح منتحباً على الطرف المقابل للبركة، ليس لديه سوى هذه الحفرة المائية لتشكل دفاعاً فعالاً أو على الأقل يأمل برؤيتهم قادمين، كما أن بعده عنهم يخفف شعوره بالخجل من عريه، جلس على التراب الأحمر الطيني، مرر يده اليسرى عفوياً من الصدغ إلى القفن بتدليكٍ نزقٍ يخفف شيئاً ما من وخزات جرحه، على كل حالٍ فقد أوقف المرهم الذي وضعته العجوز نزيف الدم.

خوت معدته من جديد فعاد يقترب نحو التنور الخامد، يده اليمنى أسفل بطنه ويده اليسرى تغطي أذنه الجريحة، عثر على عظامٍ تحمل بعض مزقٍ من اللحم فتناولها متشاجراً مع نملٍ سبقه إليها. في ظلال الشجرة المجاورة، استلقت إحدى النساء الحبالى تجدل عارشةً فتصنع منها حبلاً مسطحاً، تدندن وحدها دون أن تعيره انتباهاً.

نظر من حوله حين أنهى وجبته الضئيلة، فرأى مجموعة تضم حوالي عشر نسوة وأطفال يسلكون درب الأشجار إنه تقريباً نفس الاتجاه الذي سلكته المرأة العجوز حاملةً ثيابه وسكينه، فآثر اللحاق بهم عن بعد عسى الحظ يحالفه فيستعيد ثروته، هذا أفضل ما قد يقوم به. مضت المجموعة دون أن يتفوه أحدهم بكلمة، يسيرون بإيقاع خطى الطفل

نهض بعد أن هدأ قليلاً ليُشهد الأشجار المحيطة على إعلانه: «أنا نارسيس بيللوتي بحارٌ من السفينة الشراعية «سان بول»».

بعد استراحةٍ طويلة، حفرت خلالها النساء و هيّأنَ مؤونة من البصيلات ثم سلكن درب العودة عندما شارفت الشمس على المغيب فلحق بهن وما زالت أذنه تنبض بألمٍ حادٍ مصطحباً بوخزاتٍ تجتاح رأسه من كل جانب فحاول تمسيد صدغه باستمرار علّه يخفف هذا الألم.

حفر الشبان، في الفسحة المضاءة، حفرةً وأضرموا النار بعسلوجاتٍ وأغصان صغيرة ثم غطوا الجمرات بحجارةٍ مسطحة، قامت النسوة بإلقاء قطافهن على طبقة من الأغصان بالإضافة لبعض المخلوقات الصغيرة لعلها عصافيرٌ؟ أو خفافيشٌ؟ و وضعن فوقها أوراقاً أخرى ثم غمرن الكل بالتراب.

ترى كم عددهم؟ هاهم جمعياً مجتمعين قصيرو القامة ذوو بنيةٍ ضخمةٍ بشعرٍ أسود مجعد، يستحيل تميز الواحد من الآخر.

بالطبع المرأة العجوز ومجموعة من النساء أو بالأحرى الأمهات عددهن ثمانٍ لا بل تسع مع المرأة الحبلى والمرأة الأصغر سناً التي ترضع طفلاً. يحيط بالنسوة أربعة عشر طفلاً حتى عمر العاشرة تقريباً وهم يلعبون معاً دائماً ولا يتفارقون. أما الرجال فأحصى عددهم سبعة رجال أكبرهم ذو الستين عاماً تقريباً وهو الذي وجه نارسيس الكلام إليه، يمضي يومه كاملاً تقريباً حول الموقد فارتأى تسميته «القائد» تتراوح أعمار الباقين ما بين ثلاثين أو أربعين عاماً هكذا قدّر أعمارهم. تمكن من التعرف على الرجل الذي وافاه عند ضفة البركة بينما كان يغتسل، يبدو أنه الأقوى والأكثر حزماً فارتأى أن يدعوه «العريف البحري» بسبب قوامه.

قليلاً ما يتجاذب الرجال والنساء أطراف الحديث أما الشبان فهم أكثر ضجيجاً وتتراوح أعمارهم ما بين الاثني عشر والخمسة والعشرين

عاماً وهم لا يختلطون مع الأطفال ويتنحون جانباً بعيداً عن الراشدين. لا يبقَ الصبية العشر والست فتيات معاً طيلة الوقت. أحياناً يجلس الصبية جنباً إلى جنب يلعبون بالعظيمات، في أحيانٍ أخرى، يكوّنون مجموعتين للّعب أو العمل وقد يمضي أحد منهم مرّات عديدةٍ وحيداً إلى الغابة. تضم شجرةٌ وارفة الظلال شاباً وفتاةً يتداعبان جهارة دون أن يتخفيا، فاعتلت الحمرة وجنتي نارسيس حين رأى يد الفتاة ترتفع على طول فخذ الصبي.

تسع نساء وسبعة رجال وأربعة عشر طفلاً وستة عشر شاباً، هناك ستة وأربعون متوحشاً من حوله. عليه أن يراقبهم ليعرف من قائدهم ويفهم العلاقات ما بين الأزواج والنسوة وما بين الأخوة والأخوات وما بين الآباء والأبناء لعل هذا مفيدٌ له.

شرع بالإحصاء واضعاً عسلوجاتٍ وحجارةٍ على الرمل، فحصل على النتائج ذاتها رغم تحركات الواحد تلو الآخر.

لا بد أن يميزهم الواحد عن الآخر فهاهو القائد وهذا العريف البحري. ثم شُغل باختيار الألقاب فذاك «سيكاتريس» وهؤلاء «فانفارون» و«ذو الأنف المكسور» وذاك «كير مارك» لأنه يمشي كأحد أصدقائه على متن سان بول، لم يعد يعير اهتماماً للنسوة. ابتعد الرجال ودار حوار بينهم وعندما عادوا لم يتوصل ليميز الواحد من الآخر.

غطى الغسق بحمرته الأرجاء حينها خرج شابٌ بخطى سريعة من الغابة. شعر نارسيس أنه ما رآه قط، غير واثق من ذلك. وصل الشاب الجديد، إنه لم يلحظه حتى، فالتحق بمجموعة الشبان رغم أنه أكبر سناً منهم فمنكبيه أعرض على ما يبدو من هؤلاء المراهقين. تجمع الصبية حوله وبدأ بحديثٍ مطلقاً صرخاتٍ تعبر عن المفاجأة وأخرى عن الرضا، انضم كلٌ من «كير مارك» و«العريف البحري» ليصغوا إليه كما أنه مسافرٌ آتٍ من بلدٍ سعيد يسرد مغامراته.

قال في نفسه بحنين: «ترى هل سيحتفوا بي هكذا عندما أعود إلى القرية؟» إلا أنه لا يجرؤ أن يتخيل نفسه عارياً ويروي مغامراته لمستمع عارٍ. أضاف حجراً آخر لكشف حسابه فأصبح عددهم سبع و وأربعين متوحشاً بعد قدوم «شومينو».

أقبلت المرأة العجوز وأشارت إليه بألا يتحرك، نزعت البلسم عن أذنه بحركات دقيقة ثم بصقت القليل من الماء من مطرتها على الكلم ووضعت طبقةً جديدةً من البلسم.

كما جرى ليلة أمس، سيفتح الشبان الحفرة التي يستخدمونها كموقد، سيتقدم الرجال لتناول الطعام، حاول نارسيس الالتحاق بهم بيد أنه زُجز كليلة أمس. لم يعد عريه يضايقه كثيراً تحت جناح العتمة أو لعله اعتاد؟ حاول مرة أخرى، فقاطع طريقه «شومينو» الذي لم يتناول بعد طعامه يرمقه بشرٍ، لا طاقة لديه ليقحم نفسه في مشاجرةٍ مصيره فيها حتمي. فمن ذا الذي سينضم لفريقه؟! قام بنصف دوره وانتظر. بعد أن تناول كل الرجال والنساء طعامهم حملت المرأة العجوز إليه قطعةً من اللحم ضاربةً للسواد، أصغر وأقسى وأكثر نشافة من طريدة أمسيته الأولى، ثم أحضر لنفسه بضع لفتات نصفها محترق كان قد تذوقها سابقاً في الغابة. لم تخفف هذه الوجبة الضئيلة من جوعه وما زالت أذنه تنبض بالألم.

بدأ المتوحشون بالغناء للحظة إذا كان بوسعنا تسميته بالغناء تلك الأنشودات المرتجفة التي تقطعها طقطقة لسان وفكين حيث صوت النساء الحاد يهيمن على نخير الرجال ثم حان وقت النوم تحت سماءٍ بسواد الحبر، اتخذ كل رجلٍ من بعض أوراق الشجر مخدعاً هشاً لهُ بصحبة امرأة أو اثنين وبضعة صبية أما الشبان فقد نأوا بأنفسهم بعيداً قليلاً نحو الغابة.

عثر على الشجرة التي أمضى بظلالها ليلته السابقة وتمدد، منحته

نسمة المساء الهفهافة إحساساً جديداً ذكره بملابسه الضائعة. تغطى ببعض الأغصان وسعف النخيل التي قطعها، أرغمه جرحه على النوم نحو الجهة اليمنى منطوياً على نفسه، أرهقه شعوره بالوحدة فأجهش بالبكاء بهدوءٍ دون أن يصدر ضجيجاً ودون أن يتمكن من التماسك، أثلجت هذه العبرات المنهمرة صدره وساعدته على احتمال كل ما تعرض له من ضياعٍ ومصائب منذ أن وطأت قدمه هذا الشاطئ. ما بكى منذ نعومة أظافره، إذ كان والده يضاعف بضرباته إذا ما أبدى ضعفاً. ولكن هل تراه قادر على تلقي المزيد من الضربات في هذا التعذيب الطويل الذي يكابده دون أن يفهم؟ يتأوَّه وينوح وينخر ولا أحد يسمعه كحيوانٍ صغيرٍ جريحٍ مهجور ثم سرقه النوم من سيل الدموع.

استيقظ خائر القوى، تصطك أسنانه جراء رجفات عنيفة تمتلك جسده، تضاءل الألم في أذنه وغاب الجوع بيد أنه يرتعد برداً ويتعرق. استولت عليه حمىً عنيفةً، هل يعود سببها للمياه التي شرب منها؟ أم لجرحه والمرهم الذي طبقته العجوز؟ أو لليأس المبالغ به؟.

رتب الأغصان المقطوعة فوقه كغطاءٍ ورقد تحتها بوضعية جنينية، تسري الرجفات على طول جسده ولا يأمل بنجدةٍ من أحد.

اعتلت الشمس كبدة السماء بيد أن أشعتها المتسللة بين الأغصان لم تشعره بالدفء. على متن سفينة جان بول، يجر المريض قدميه في الممر بين الغرف ويمثل أمام مساعد القبطان ذي المزاج والرائحة السيئين، مطلقاً ملاحظاته اللاذعة. لكم يتمنى أن يسمع صوته الأجش الآن وهو يقول حكمته المفضلة:

«إذا كان بإمكانك المجيء إلى هنا فبإمكانك العمل إذن».

لم تكن الخطة أن يبقى راقداً في سريره الهزاز بانتظار زيارة المساعد تجدي نفعاً أيضاً، لقد رآه ذات مرة يرمي أحد البحارة القدامى أسفل فراشه ويرغمه على موافاة عمله.

كان المساعد يقبل الجريح وينهر المريض وإذا وافق على سبيل الصدفة منح أحدهم يوماً أو اثنين مهدداً إياه بخصمٍ في الأجرة فإنه لا يقدم سوى بعضاً من العلاج، قارورة زجاجية من البودرة التي كان يغرف منها ليركب جرعات سيئة الطعم حسب ما قيل. غطَّ نارسيس في نومٍ عميق آملاً أن يستيقظ فيجد نفسه أعلى الجسر على متن السفينة.

وافته المرأة العجوز في منتصف الظهيرة حسبما توقع. آه هناك أحدٌ يكترث لأمره؟ بدلت المرهم على أذنه الجريحة بذات الحركات الدقيقة ثم مررت يديها على طول جسده من رأسه حتى أخمص قدميه، راحةُ كفيها نحو الأسفل وأصابعها متباعدة مدمدمةً بغموض صوتاً صادراً من بين أسنانها. ثم لملمت حفنةً من التراب الطيني وجعلته ينسكب ما بين يديها وتنشره على سائر الجسد وكررت العملية عدة مراتٍ حتى تغطت بشرته اللامعةُ عرقاً بطبقةٍ رقيقة من الغبار.

لم يبالِ بما تفعل فهو يتصارع مع أمواجٍ من الحمى المتلاطمةُ على صدغيه، وعيناه مغمضتان تقريباً.

لامست مطرة الماء شفتيه فأرغم نفسه على الشرب، وضعت أغصاناً أخرى على جذعه وساقيه ثم ابتعدت.

غطَّ مجدداً بالنوم بعد أن حماه ظرفُ التراب الذي يحتويه من البرد.

جلست العجوز بحذائه مرةً أخرى وهي تجدل أوراقاً فتصنع شيئاً ما يشبه القفص أو الخوذة، وبعد أن أعجبها صنعها وضعته على رأسه كخيمةٍ صغيرةٍ تحجبَ عنه الشمس دون أن تلامسه.

أوقدت أحد الأغصان بجمراتٍ أتت بها ومررته فوق مريضها وهي تدندن والأوراق تحترق. خمدت النار مخلفةً دخاناً رمادياً كثيفاً وأسندت الغصن أعلى منكبيه. حملت نسمةٌ ذاك الدخان فولج في خوذته المجدولة وتجمع بها، عليه استنشاق هذا الدخان الساخن والحامز والمر والقابض.

اغرورقت عيناه بالدموع وشرع بالسعال فدفع حضن الدخان واستلقى من جديد.

أعادت المرأة العجوز بعناد شكلها المصنوع وقرّبت الغصن. استنشق رائحةً من الغابة المحترقة، فداعبت الحرارة وجنتيه وانفه. هل عساه سيشفى؟ أرغم نفسه أن يقبل هذا العلاج و ولج داخله.

عادت حاملةً معها قطعاً صغيرة من اللحم ليأكلها وليروي ظمأه. حاول النهوض بيد أنه هُزم أمام الدوار والقشعريرة. منعته هذه الحمى القوية من التفكير. ولاحت في غموض وجوده القرارات المهمة التي اتخذها إلا أن رغبته بالتخلي عن كل شيء غمرت لحظات الوضوح عسيرة الولادة، فغاص بين الأوراق والغبار تهدهد له أمواج الحمى إيقاع النوم.

أعطته العجوز ليشرب وعالجت أذنه ثم استحوذ الدخان على منخريه، هدأت الرعشات قليلاً فسرقته الغفوة من آلامه.

أرخى الليل سدوله بمفاجأة استوائية تشوشه دائماً. حملت له أيضاً قطعاً من اللحم المشوي، لابد أن أفراد القبيلة يتقاسمون فيما بينهم طريدة ما لوجبة المساء. توصل بعد جهد جهيد لالتهام لقمتين أو ثلاث تفوح منها رائحة الدهن المحترق ثم شرب مرةً أخرى وتمدد مغمض العينين.

دام مرض نارسيس خمسة أيامٍ، أعطته خلالها المرأة العجوز ما يسد الرمق وما يطفأ الظمأ وضمدت جرحه وغطته بالتراب والأوراق وجعلته يستنشق دخان الأوراق. انتابه شعورٌ بأنه يخبو. هل ستحط أيامه رحالها هنا مستلقياً كالكلب على الأرض ما بين هؤلاء المتوحشين الذي سيتركون الحيوانات تمزق جسده....

في اليوم الرابع. هبت نسماتٌ من الريح أكثر عنفاً وأكثر قسوةً من ليلة هجره. تتالى الغيوم الرمادية المنخفضة بسرعة مذهلة، تتطاير الأوراق التي تنتزعها الزوبعة في سائر الأرجاء والأشجار تأنّ وتتلوى تحت

سياط العاصفة، و قطرات المطر تلطم وجه الأرض. هبطت درجات الحرارة في المساء بشكلٍ ملحوظ. يرتعد نارسيس، غير قادر أن يمنع نفسه، برعشاتٍ تهز جسده كاملاً محاولاً الغوص في التراب علّه يغلق أقل منفذٍ ممكنٍ للريح.

شعر فجأةً بجسدٍ يلاصق جسده، تمددت المرأة العجوز بجواره وغمرته بذراعيها الصغيرتين يدها السوداء المجعدة تحطُ على صدره. تنام هذه المرأة العارية بقربه وهو عارٍ أيضاً. تفوح رائحة الدهن والعرق، إلا أن هبات الريح قضّت الدفء عن ظهره وأليتيه وساقيه، والعجوز تطلق أنفاسها على رقبته. بدا له في البدء عناق الجسدين هذا عجوز سوداء وشابٍ أبيض غامضاً في ضباب الحمى، أين مضت مومس الكاب والزهور والضحكات.....

ثم استسلم للعناق ووجد فيه ملاذاً...

الرسالة الرابعة

سيدني، 5 حزيران 1861

سيدي الرئيس.

خلت، بادئ الأمر، أن عودة نارسيس إلى عالمنا ستكون بسيطة لعلها بطيئةً بيد أنها تتقدم بخطىً مثابرة. إجمالاً لم يكن الأمر مجرد تسلق هضبة تسلقها طفلاً ونزلها في منفاه.

الحقيقةُ كما أراها؛ إن لنارسيس إرادته الخاصة إذ يبدو لي أنه يرفض بعض التقدم إنه أمرٌ تحققتُ منه بيد أنني ما فهمته.

في الكتابة أيضاً وددتُ مساعدته لاستعادة هذه المعرفة التي لا بد أنه أتقنها على مقاعد الدراسة، تبدو لي فكرة أنه بحارٌ أمي تماماً مقبولةً إلى حد ما. كتبتُ حروف أسمائنا ثم قرأتها مشيراً إليها بإصبعي، تعّرف على ما لفظت إلا أنه لم يربطه مع الإشارات المخطوطة على الورقة. ماذا عسى أستاذ القرية يفعل لو كان هنا؟

كررت اسمي مشيراً إلى حروفه ثم مددت إليه الورقة وقلم الرصاص، أمسك بهما ثم نظر إليَّ ليطمأن نفسه أنه فهم بشكلٍ جيد، قلتُ بهدوء والقلمُ بين يديه:

- «اكتب: نارسيس».

دون تردد انكب بخطُ إشارات: أوه! كلا! إنها ليست بأحرف فاشلة ولا خطوطاً منحرفة غير محددة بل هي خطوطاً مكسورةً بتتابعٍ دقيقٍ،

أشكالاً دائريةً وحلزونية ونقاطاً بتطابق ملحوظ، رسم وبسرعة سلسلةً من الأشكال الهندسية التي غطت رويداً رويداً الصفحة كاملةً بتناسقٍ مستحدثٍ وعبثي. إن التعقيد الخطي لمركبه مدهشٌ حقاً ينتمي بأسلوبه إلى الوشوم التي يتباهى بها ولكن ما هو أكثر إدهاشاً هي الطريقة التي نفذ بها إذ لم ينطلق من المركز أو برسم الصورة الرئيسية وإنما انطلق من الزاوية السفلية اليمنى في ركامٍ من التفاصيل اجتاحت كامل الورقة لتحط الرحال في الزاوية العليا اليسرى. إن رافايل وبوسان يعجزان عن القيام بهذه الأشكال، لا بد أن هذه التركيبات الهمجية الغريبة محفورةٌ في ذهنه مما يفسر الغموض في التنفيذ حيث ينبثق انطباعٌ غريبٌ بالتوازن يحطُ على النتيجة الغريبة التي توصل إليها. ياللمهارة التي رسمت بها يداه ويا للعلم بالزخرفة!.

بأقل من عشر دقائق غطى نارسيس كامل الورقة بالهيروغليفية ثم حط القلم قانعاً بالعمل الذي أنجزه غير آبهاً به.

إن التقدم الذي يشهده لغوياً أسرع بكثير فهو يعثر كل يومٍ على مفرداته المفقودة حتى لهجته لاقت تحسناً فهو يلفظ كل الأصوات بشكلها الصحيح متخلصاً من طقطقة اللسان والأزيز الذي أعاقه منذ شهرٍ تقريباً. ما زالت جمله ذات إيقاعٍ ومغنى كغريبٍ يتحدثُ لغتنا.

لم يكن نارسيس ثرثاراً البتة ولم أكن أدري هل هذا الإيجاز يعود لطبعه الأصلي؟ هل يعاني بإيجاد الكلمات الصحيحة للتعبير عن مشاعره؟ أم ليس لديه ما يقول؟

كما يفوته الاستخدام الصحيح للزمن وخاصة المستقبل إذ بدا له بدعاً من اللغة قول: «غداً ستشرق الشمس» بما أنه حدثٌ أكيد. كما بدت جملة «غداً سنسبح في النهر». لا معنى لها، إنه يعي كل كلمة إلا أنه توقع أن ننزل حالاً إلى حافة النهر. كما أنه يبدأ كلامه «إنني أقول...» بشكلٍ رسمي ليعطي رأيه بأي موضوع مهما كان تافهاً وأعتقد أن هذا أحد أساليب

الخطاب لدى المتوحشين أو لعله من آدابهم في الحديث: «أقول: طعام بيل شهي».

إن بإمكاننا الآن التحدث معاً ومع ذلك فإنه يأبى أن يقصّ عليّ حياته لدى المتوحشين، يخال إليّ أنه يفهم أسئلتي بيد أن محاولاتي جمعيها وأساليبي تبوء بالفشل أمام صمته فأنا لا أعرف شيئاً مما جرى معه إلا منذ لقائي به.

لا يمكن لمشروعي ببحثٍ عن متوحشي شمال شرق استراليا أن يرى النور أمام شحه بالمعلومات في حين أنني قبلت أن يريكني أملاً بهذا المشروع.

فشلٌ إذاً أو لعلها مقدمةٌ منطقية للفشل؟ لست أدري لماذا لم يكن هذا هو الشعور الذي أكنه حقيقةً فإن التقدم الذي يشهده نارسيس علمني أموراً مختلفة تراودني بغموض ويتعذر عليّ ترتيبها، ربما لن أعلم شيئاً عن أولئك الزنوج الاستراليين بيد أن ما استشفه من مسيرة نارسيس هو تعليم من طبيعةٍ أخرى لا يقل أهمية.

لاحت أمامي نتيجة أخرى فقد تحققت من أن لنارسيس أموراً يمتنع عنها لن أتوصل عبرها لشيء بعد أن خيل إليّ بأنه إذ لا يتوصل إلى الكتابة أو التفكير بالمستقبل أو حتى سرد ماضيه فإن ذهنه ليس سوى صفحةً بيضاء سأنقش عليها دروسي أو شمعاً رخواً سأطبع عليه بصمتي. أخطأت في صورة نارسيس الذي يتقدم نحو عالمنا تاركاً كهف أفلاطون نحو شمس القرن التاسع عشر فداخله يتصارع شخصان أحدهما بحارٌ سجينٌ في زنزانة منذ سنين يكافح ليتحرر من سجنه وآخر هو شيطانٌ متوحشٌ صغيرٌ يحاول منعه خطوة بخطوة إن البحار في داخله يخطفه ولكن ليس بشكلٍ دائم وليس بالتزامٍ تام.

كما دمغت الوشوم بشرته وستظل طيلة حياته كذلك سيظل ذهنه موشوماً بما عاشه في منفاه ربما لن يتحرر منه كلياً. سعيت لفهمه فما وجدت فكرة سوى صراع رجلين داخل رجلٍ، إنها لفكرةٌ غريبة!.

بدا لي أن الوقت غدا مواتياً للعودة إلى البحر فما من شيء يعارض مغادرتنا كما اعترف بأن الملل في هذه العزلة الطوعية قد انتابني بشدة إذ لم أذهب إلى سدني مرة أخرى خوفاً من اختفاء آخر لنارسيس، إنني أقضي وقتي بالدروس التي أعطيه إياها وأشعر بالحبور للتقدم الذي يشهده بيد أن عالمه يفتقر للترفيه.

كتبت إلى الحاكم لأخبره بنهاية إقامتنا في الجالية فوعدنا برحلة خلال الأسبوع القادم على متن سفينة شراعية سريعة «ستراسمور» صُنعت حديثاً في ورشات بريستول إن شاء الله سنكون في فرنسا في منتصف آب. وسآتي لأقدم لكم، سيدي الرئيس، نارسيس الذي عهدته بحمايتي كأولى الخطوات التي سأقوم بها عندما أصل.

وصلتني رسالتكم في السادس عشر من نيسان حيث قرأتُ إجابتكم على رسالتي الأولى فأثر في كثيراً المديح الذي منحتني إياه بسخاءٍ كبيرٍ مع أنني ما رأيت قصة نارسيس من الزاوية ذاتها، إذ كان البحث العلمي هو دافعي الوحيد وما حملت قط لا الرغبة ولا المشاعر لأكون هذا «السامري الطيب» الذي وجهتم له الإطراء. حقاً إنه شابٌ جذاب والكوارث التي انهالت عليه مرعبة بيد أني أود أولاً أن أصف بشكلٍ كاملٍ التبدلات التي تطرأ على أبيضٍ ليصبح متوحشاً ثم يعود أبيضاً.

للأسف فإن عناد نارسيس بصمته حول إقامته لدى المتوحشين يجعل التحقيق المفضل الذي أبلغتني إياه والذي أعرف فوائده دون جدوى فهم يبتسم حين أطرح عليه الأسئلة ولا يجيب ولا يشرح سبب التزامه الصمت، كما أنه لا ينطق بكلمةٍ حول ظروف وصوله إلى استراليا وحياته قبل الغرق ولا حتى عن شبابه، لست واثقاً من أنه تعرف على اسمه: نارسيس أن يكون مجرد سوء تفاهم ووافق عليه كنوعٍ من الحوار اللغوي بيننا.

لا بد أن أروي لكم عن حادثٍ جرى وبتفاصيله إذ أغرقني بتفكيرٍ

عميقٍ لا بد من مناقشته معاً: كنت في غرفتي أعيد قراءة ملاحظاتي فتناهى لمسامعي صراخٌ، ميّزت فيه صوت الخادمة، إنها ضجة عارمة بعد صدمة تبعها خطواتٌ متسارعة. خرجت حالاً متأهباً وجلت في أرجاء المنزل لأكتشف مشهداً مدهشاً، بيل يتصارع مع نارسيس أو بالأحرى يسعى ليفعل فإنه يرسل وابلاً من اللكمات والركلات تخيب جميعها، إن نارسيس لا يتراجع بل بالكاد يتحرك لكنه يتحاشى الهجمات يراوغ بسائر جسده فتضرب قبضة وقدم خصمه الهواء وهو يعود لوضعه دون أن يتزعزع قيد أنملة، لا يتيح لأحد البقاء جامداً هكذا متحاشياً الضربات حتى آخر لحظة سوى علماً راسخاً بالقتال كما انه لم يسعى لضرب بيل الذي فقد توازنه بسبب هجمات مقاتل العرض الخائبة التي لا تصيب سوى الفضاء كفريسةٍ سهلة.

بصرخةٍ مني أمرتهما بالتوقف ثم تدخلت وأبعدتهما وددت معرفة دافع هذا الشجار بيد أن نارسيس لم يفهم ما الذي جرى أما بيل و الخادمة فما أرادا الكلام وروي حماقات فما كان مني إلا أن أذكرهما بشروط السجناء وأهددهما بإرسالهما إلى السجن مجدداً.

ها كم ما تمكنت أن استخلص بعد أسئلةٍ عديدةٍ طرحتها عليهما كلٌ على حدا:

يرسو زورق الإنقاذ على الرصيف ويحط هناك لعدة ساعات، يأخذ بيل والشابة وقتاً ليلتقيا في غرفةٍ من منزلي ويستسلما لحبٍ ما بين الخدم، لا يهم إذا ما كانت هذه هي المرة الأولى أم لا ولا إذا ما تدبر بيل لنفسه نقوداً خلسةً من حسابي ليعطي الخادمة، إلا أن فرضية الأجرة أو السرقة قد ضاعفتا من وضعه فرأى بيل نفسه يقطع الأشجار في سجن الإصلاح المرعب على ميناء «آرثر» لذلك اعترفَ بكل شيء جهارةً ملتمساً شفقتي: كان مستلقياً على فراشه مع الخادمة مضحياً من أجل فينوس أو على الأقل من أجل إيروس وفي خضم الوضع استدارت الشابة فاكتشفت وجود

نارسيس متكئاً على النافذة يبتسم للمشهد الفاحش الذين يعرضانه في دفء بعد الظهيرة.

صرخات الشابة ثم دهشة بيل وغضبه إذ شُغل عن عمله فنهض بقفزة وركض موجهاً لكمة عنيفة لم يتحاشاها نارسيس لأنه لم يرها، ثم أصلح بيل ملابسه ووثب إلى الحديقة ينوي الشجار وكما ذكرت مسبقاً لم يتوصل لضربه. هل تستحق هذه الطرفة التي لا تخلو من قلة الأخلاق السرد؟ دعوني أقنعكم بالأمر بشكلٍ مغاير، سألت السجين والسجينة كلٌ على حدا وكلاهما وصفا لي نارسيس وهو يشاهدهما بأنه يبتسم دون شراهة من يستلذ بمشهدٍ ممنوعٍ تحت خطر أن يُباغت أو أن يُفضح أمره وإنما بابتسامةٍ صريحةٍ تشهدُ على منظرٍ ممتعٍ يستمتع هو والممثلين معاً، إنه لا يعرف الحشمة.

فهم أن بيل قد ضربه تاركاً كدمةٍ لا بأس بها تحت عينه ذلك لأنه رآه مع الخادمة بيد أنه لم يفهم لماذا ضربه. حاولت أن أناقش الأمر معه بل كان ذلك هو جوهر نقاشي العسير الذي خضته معه، كما أنه لا يضمر أذىً لبيل ولكن للمرة الثانية بدت له أساليب حياتنا صعبة الشرح إلا أنه قبلها كما يُقبل القدر.

بدا لي هذا الاكتشاف رئيسياً ففي قبيلته إذاً لا يختبأ الرجال والنساء لممارسة الحب ويتمكن الجميع من مشاهدة ممثليه، أما بالنسبة لنا معبد فينوس في المنزل لا بل في الغرفة تحت الأغطية بنورٍ خافتٍ لشمعةٍ خامدة حتى الناس ذوي الأصول الأكثر وضاعة مثل بيل و الخادمة يتحيان عن الأنظار على فراشٍ ويغلقان الباب ولو كان وضح النهار. لا يُخيل لأحد أن يُشاهد في هذا الوضع إلا بخلسةٍ متناهية أو رؤية دعارة لا توصف، إن هذا الاحتشام يتناسب مع كل العصور وكافة الأجواء ورغم ذلك فإن ليس لكل هذا معنى لدى نارسيس. حصلتُ على معلومةٍ دقيقة ما حلمتُ قط بسؤال نارسيس عنها بفضل سذاجته وفساد بيل ودسائسه السرية ثم غضبه.

للأسف تضيع هذه السذاجة في اللحظة التي تظهر فيها. لعل بوسعي أن أكرر المشهد: جندي يُباغت مع فتاة في الميناء تترك نفسها في وضعية مشابهة مقابل المال إلا أنني وبالإضافة لكوني قليل الحيلة بدور قواد لم أتمكن من استخلاص شيء من ردة فعل نارسيس لا بد أن لكمة بيل ستعلمه وسيتردد قبل أن ينظر من النافذة وستفارقه إلى الأبد تلك الابتسامة الهادئة وذلك التصرف البريء الذين ما رآهما سوى الخادمة وعشيقها.

إن نارسيس يتغير فكل يوم يمر يدنيه منا ويبعده عن أعماق استراليا فهو يتقيد بقواعدنا ما إن يدركها. السروال الذي ارتداه منذ ذلك الوقت والكلمات التي يتمكن من لفظها والعلاقات التي يقيمها معي تحمله إلينا وتحجب في داخله ما أبحث لأتعرف عليه.

عندما أعيد التفكير بتلك الحادثة أفهم تماماً أن نارسيس يشبه رسالةً مكتوبة بالإصبع على بخار الزجاج، يمحى الدخان فتضيع الرسالة نهائياً، علي إذاً قطاف كل ما تعلمته والذي سيختفي لاحقاً فكلما مرت الأيام غدا نارسيس أقل صدقاً رغم أنفه. يتسنى للكيمائي إعادة تجربته مئة مرة ليتحقق منها أما عودة نارسيس إلى عالمنا فلن تحدث سوى مرةً واحدةً وباتجاهٍ واحدٍ وأنا كاتبها.

سنحت لي هذه التأملات باستعادة صفائي في خضم الاضطراب السائد في المنزل وطلبت من بيل و الخادمة مغادرة المكان على متن الزورق إذ لم يكن ممكناً بالنسبة إلي أن أبقي في خدمتي سجيناً تطاول على من عهدته بحمايتي.

ضم الحادث في ثناياه درساً آخر فقد تحاشى نارسيس ضربات بيل المضاعفة وما بحث للكمه، فهو لم يدر له خده الآخر كما جاء في الكتب المقدسة بيد أنه وبلطفٍ انجليي رد على ضربةٍ مسبقة موجهةٍ إليه إن القليلون منّا قادرون على هذا فالمعروف أن الكلب تظهر أسنانه إذا ما

ضُرب والطفل الصغير يحاول خدش من عامله بقسوة فالضرب يواجه بالضرب تلك هي شريعة حمورابي.. فأن تثق بتحاشي الضربات دون توجيه هجوم يتطلب رباطة جأش هائلة.

ولكن ماذا بعد؟ هل يجب التعرف على ثقافة العادات الهمجية التي يبديها نارسيس في كل لحظة؟ هذا مستحيل. ما توصلت في تلك الأمسية حين سطرت هذه الكلمات إلا للتفكير بهذه الرقة. فرض الموقف نفسه حيث أظهر المتوحش الأبيض في هذه المشاجرة حضارةً تفوق حضارة بيل السجين.

إلى أين ستصطحبني هذه النتيجة؟ يبدو لي أن الوقت غدا ملائماً لمخر عباب البحر من جديد.

صدقوا، سيدي الرئيس.....

5

لم تعد المرأة العجوز راقدةً بجواره في صباح اليوم التالي وحطت العاصفة رحالها حاملةً معها الحمى، ما انفك الضعف يراوده بيد أنه يشعر بالهدوء والصفاء. عاد الجوع يقضُ قواه ملحاحاً إلا أنه مطمئن لجوعٍ تافهٍ بعد أن توقف ألم أذنه.

نهض وخَطى بضعة خطىٍ دون ارتعاشٍ أو رجفة، عادت فكرة الحشمة إليه بمصادفة امرأتين فوضع يده أسفل بطنه. اختلط عرق المرض بالغبار والتراب الذي غطته بهما المرأة العجوز فتشكلت قشرةٌ متشققةٌ أعاقت حركته، وجنتيه تحكانه بسبب ذقنه الشائكة، ما أهمل قط ذقنه لفترةٍ طويلة هكذا، ما عاد يميزه شاربه المجذب جيداً والذي تباهى به واعتنى به في الأيام الهادئة عنايةً فائقة ليتمتع بهيئة الشجاع....

وصل إلى البركة فدخل الماء حتى غمرت السرة ثم اغتسل بأفضل ما أمكن، أدخل إحساس الرطوبة السكينة لقلبه فدعك نفسه طويلاً بيديه العاريتين كما لو أنه يمسح الماضي، يمس بحركةٍ آليةٍ أذنه اليسرى فانتابه انطباعٌ غريب ثم وضع أصابعه على أذنه اليمنى، حاول أن يرى صورته إلا أن الماء العكر لا يعكس صورةً فما وجد بغياب المرآة وسيلةً أخرى سوى اللمس ليتحقق أن شحمة أذنه اليسرى قد انتزعت تماماً.

من بين أفراد هذه القبيلة التي عاقبته فبترت أذنه لانتزاع قرطٍ مذهبٍ هناك المرأة العجوز التي عالجته، اعتنت به وسهرت على راحته وقدمت له

الطعام والشراب والدفء، لعل صلواتها وتبخيرها لم يكن فعالاً حقاً إلا أنها بذلت ما بوسعها لتعتني بالجرح والحمى، لم تبدُ الشفقة ولا الرحمة في سلوكها إذ أنها أتمت مهمةً موكلةً لها دون انفعالٍ خاص فهي من تعتني بصحة القبيلة على طريقتها. إنهم لا يضمرون له السوء على أي حال ليس حالاً فلو كانوا يحافظون على حياته ليأكلوه فلا بد أن يدعوه يكتنز قليلاً من الشحم ليكون وليمة شهية أما نارسيس الذي ما كان بديناً البتة فقد جففه الجوع والمرض. يأمل أنهم ليسوا من آكلي لحوم البشر...

جاء بخطىً بطيئةً ليتربع قرب الموقد حيث تم، ليلة أمس، طهو حيوانٍ بحجم عجلٍ في حين كان هو يرتعد برداً بسياط العاصفة، ما زالت أضلاع الحيوان المبعثرة فوق الرمال مكسوة باللحم إلى حدٍ ما والرجل العجوز الذي لقبه «القائد» يغفو تقريباً هناك في الجانب، تناول نارسيس عظماً نفض عنه الغبار بشكلٍ مختصر وشرع يأكل، للنسيج الليفي البارد طعمُ دخانٍ قوي، قضم كل الأجزاء الليفية بالعض والحك. قرفص صبيٌ صغير بقربه يراقبه دون أن ينبس ببنت شفة.

أمضى نارسيس طيلة النهار وهو يأكل ويشربُ من مطرةٍ منسية ويرقد في الظل، ثم استمع للغناء حول النار وأكل من جديد عندما قدمت له المرأة العجوز، شعر بأنه أقل يأساً وكانت تلك الليلة الأولى منذ أن هُجر يراوده فيها ذاك الشعور.

في صباح اليوم التالي، استيقظ كلٌ بوقته وبإيقاعه فلاحظ نارسيس تغيراً في نشاط القبيلة فما من وقتٍ للعب أو التنزه أو الاستراحة. بدا المتوحشون نشيطين كلٌ يعرف مهمته فيؤديها بهدوء ولكن ما الهدف؟ لماذا يحملون هذا الغصن ويشكلون مجموعاتٍ صغيرة لاجتماعات مختصرة ويصنعون سلالاً من عارشات مجدلة ويضعون حجارةً على الجمر البارد؟

قبل أن تتربع الشمس في كبد السماء، اجتمعت النسوة ومعهن الأطفال ثم وافت المرأة العجوز نارسيس ومدت له قربتين مليئتين وأفهمته أن عليه

حملها، تردد بادئ الأمر وانتهى بالإمساك بها، لم يكن الحمل ثقيلاً إلا أنه غير مريحٍ بغياب مقبضٍ وحبلٍ رفيعٍ ليمسك بها. ولكن لماذا هو من يحمل الماء؟ ومن هي حتى تلقي الأوامر؟

التحقت المرأة العجوز بالمجموعة التي غاصت رويداً رويداً في الغابة. ماذا عليه أن يفعل؟ لم يخاطبه أحدٌ. ها هم الشبان يتتابعون.

خلا المخيم من سكانه فساد الحزن أكثر فأكثر واختلطت مخادع الأوراق التي يرقدون بفيئها بالنباتات وها هم الرجال يجتمعون رويداً رويداً وبيد كل منهم غرضٌ ما: أحجاراً وسهاماً وسلةً وجلد حيوان وقربة ماء. تتعالى أنشودة حزينة من المضاءة في الغابة. ثم اتجهوا بدورهم نحو الغابة دون ترتيب وبمسافاتٍ غير منتظمة وسلكوا ذات الاتجاه الذي سلكته النسوة والشبان فهجروا المخيم على حافة البركة.

هل يبقى هنا؟ إذاً لن يظل على قيد الحياة، لا بد أنه سيموت جوعاً ثم إنه لا طاقة له على احتمال الوحدة المطلقة مجدداً كما في أيام منفاه الأولى، هذه الصحبة رغم آلامها العبثية ورغم الإزعاج الذي عاقبوه به فهي أفضل من مواجهة الغابة العقيمة وحده وانتظار دنو أجله.

تابع الحركة بعد أن أمسك بقربتي الماء التي عهدت بهما العجوز إليه، وما إن وصل إلى الحافة حتى عاد أدراجه فلاحظ أن «كير مارك» و«شومينو» مازالا بالانتظار أو لعلها يمشيان في المؤخرة ليتأكدوا أن ما من أحد يتباطأ بالسير خلفاً.

كل القبيلة غادرت، ما غادروا خلال الأربعة أيام المنصرمة التي طرحته فيها الحمى أرضاً ولا حتى في اليوم التالي حين كان بحاجةٍ ليستعيد قواه، هل يفهم أنهم غيروا مسيرهم بانتظار أن يقف على رجليه؟.

حمل قربتي الماء المصنوعتين من عضو حيوان لا بد أنها المثانة ومضى في سبيله حيث بدا له أن تقديم العون للقبيلة أمراً طبيعياً، فهم يقدمون له الطعام فلا بد أن يعود لهم بمنفعةٍ. هل هذا هو المستقبل الذي ينتظره؟ عتالٌ

وعبدٌ لدى قومٍ المتوحشين. اختياره لمهنة البحار كان أمراً بديهياً للابن الأصغر الذي لا تتسع له ورشةُ العائلة فالاستسلام لنداء البحر خير من أن يخدم طيلة حياته في إحدى مزارع المنطقة! ما تردد قط اختار البحر فوجد نفسه خادماً لهذه العجوز يحمل مائها، أخبر أشجار الرتل الأول: «أنا نارسيس بيللوتي، بحارٌ على متن السفينة الشراعية «سان بول»».

طَفت رطوبة الغابة على حرٍ ألقاه وضح النهار، حاول أن يعيد الاتجاه الذي سلكوه، حين عبر الشاطئ الأسبوع الفائت مع المرأة العجوز كان الرأس باتجاه الشمال تقريباً. حقاً على متن سفينة سان بول لم يعر انتباهاً للخريطة فظن بالضبط أن خط الشاطئ كما تذكر باتجاه الشمال الجنوبي تقريباً على طول مسافةٍ طويلةٍ كفاية. إذاً ففي كل الأحوال هذا الدرب لا يجعلهم يعطون ظهرهم للبحر.

لحق الرجال ومن خلفهم نارسيس بمجموعة النسوة وحاذوهن بالسرعة، لا يرشدهم لا طريقٌ ولا دربٌ احتموا بوادٍ مترامي الأطراف بظلالٍ جذابة لأيكاتٍ ثخينة ريثما تمضي الساعات الأكثر حرّاً، أنهك الأطفال فشربوا من قربِ الماء وناموا من فورهم.

باشروا السير مجدداً في منتصف العصر، باعدت المسافات رويداً رويداً ما بين الرجال والشبان والنسوة. ما زالوا يسلكون الاتجاه عينه حتى وصلوا مساءً إلى هضبةٍ صغيرة، جهز الشباب مخادعاً من الأوراق وأضرموا النار في حين تفرق الصيادون في الغابة ليعودوا عشوائياً بصيدٍ أو خائبين.

كالعادة تم تقديم العشاء المختصر، قدمت المرأة العجوز لنارسيس عصفوراً مشوياً بريشه فانكب على تمزيقه قبل أن يمص عظامه، حسنت هذه الخطوة من حاله بيد أن هذه النقاهة أيقظت شهيته التي عجزت على طمرها تلك الوجبة الهزيلة. ثم وقبل أن يستسلم للنوم مسد طويلاً أذنه اليسرى.

تابعوا المسير طيلة اليوم التالي وما قدموا سوى استراحة موجزة للأطفال حيث تناولت المرأة العجوز قربتي الماء منه ليتقاسموها فيما بينهم.

شعر نارسيس نفسه خائر القوى ويعاني من حرٍّ في هواءٍ دبقٍ لا نسمات فيه ثم رأى البحر.

انتهت الغابة بوضوحٍ مشكلة دائرة كاملة تحيط بشاطئ رملي وهي تقارع بحجمها حجم الشاطئ الذي وطئه إلا أنهم لم يعودوا أدراجهم فتحقق من الشاطئ بتفاصيله العديدة الصخرة المعزولة وتلك الحشفات البارزة وغياب الجرف بالإضافة للأشجار الملتوية، يتكسر البحر عالي الموج على حاجزٍ يستحيل عبوره تميزه ثلاثُ جزرٍ صغيرة ذات أحراجٍ هزيلة، تغلق سطح الماء تماماً فتعيق مرور أي زورق. ربما تبادرت لذهنه بعفوية أسماءٌ للخلجان: خليج الشمال وخليج الهجران. كم يبعد خليج الهجران؟ لا أكثر من مسير يومين.

كم مضى عليه من الوقت على هذه اليابسة؟ فأحصى على أنامله عددها: أربعة أيامٍ وحده تماماً ويومين مع المرأة العجوز ويومين على ضفة البركة قبل الحمى زد خمسة أيامٍ من المرض والنقاهة وأخيراً مسير يومين إلى هنا. إذاً لم يكن مخطئاً ها قد أمضى على هذه الشطآن خمسة عشر يوماً. قد تستغرق رحلة السفينة إلى جاوا أسبوعاً ثم يومين لإنزال المرضى وللاستعداد ثم أسبوعاً آخر لطريق العودة. إذاً خلال يومٍ أو يومين سترسو سفينة سان بول أو أية سفينة أخرى ترسل لإنقاذه في خليج الهجران.

بالطبع هو ليس على يقينٍ مطلقٍ بما سيستغرقه الطريق من وقتٍ قد تشوبه العواصف و يتأخرون لملء القوت ولاستئجار بحارين آخرين قد يستغرق ذلك لأكثر من يومين ولكن إذا ما جاءت الصدفة بالموعد فإن سفينة الإنقاذ ستلوح بالأفق بعد غدٍ، يجب أن يكون فيها، يجب أن يحصل على ما يأكل ويشرب ويفرُّ هارباً. إذا ما حاذى الشاطئ لا بد أن يصل الخليج الهجران. منهكاً وأذنه مبتورة وعارٍ وسط سخرية رفاقه ولكن على قيد الحياة، فتذكر العهد الذي قطعه على نفسه: مهما جرى سيخرج على قيد الحياة من هذه المغامرة.

حطت القبيلة رحالها أسفل الأشجار الأخيرة، اجتمعت المرأة الحبلى

والأمهات مع أطفالهن بالظل في حين انكب الشبان على تجهيز مخادع من أغصان الشجر وذهب الرجال للصيد أما النسوة فدخلن إلى المياه لجمع الأصداف والمحارات البيضاء وبلح البحر الضخم ذو اللون الأخضر الغامق ومن حولهن الأطفال يقدمون لهن العون أثناء لعبهم مع الأمواج. يلقي البحر في نفس نارسيس الرعب فهو لا يتقن السباحة، مع ذلك فقد أوحى إليه هذا الخليج ذو الانحدار الطفيف بالثقة. ولج إلى المياه وتجاوز النسوة، من باب الحشمة، حتى غمره الماء إلى الصدر وبما أنه أكثر طولاً بشكلٍ واضح فكانت قدميه تصلان لما هو أكثر عمقاً مما تصل النسوة إليه، الصخور المحيطة به مغطاة بالصدف وهي بعيدةٌ عن متناول الجمع إلاه فانكبَّ على جمعها. عاد إلى الشاطئ عندما ملأ كفيه فمدت له إحدى النسوة سلةً فعهد إليها بقطافه ورجع نحو الصخور، للتو امتلأت السلة فبدلها بسلةٍ أخرى فارغة. نهشت الشمس رقبته ولمع الضوء في عينيه إلا أنه لم يشعر وانكب على العمل بأقصى جهده فرحاً بأنه يفعل شيئاً ما متبادلاً السلال الفارغة والممتلئة مع النسوة كما الناعورة.

في غضون ذلك تم إيقاد النار على الشاطئ ووضع أعلاها حجرٌ كبيرٌ مسطحٌ بالتوازي مع دائرةٍ من الحصى، كُومت الأصداف بعشوائيةٍ على الرمال. استجابت النسوة لصرخةٍ فخرجن من الماء وجلسن حول الموقد ثم لحق نارسيس بهن ما إن ملأ السلة الأخيرة وكذلك فعل الأطفال.

وضعت النسوة أصدافاً وبلحاً على الحجر الساخن وشرعن بالتهامها بالكاد مطهوة بعد بضع دقائق ثم وضعن أصدافاً أخرى دون توقف وتحول الحجر لمائدةٍ تحمل وليمةً من ثمار البحر. بعد أن لاحظ وفهم ما يجري، جازف بوضعِ قبضةٍ من بلح البحر، ما وجه له أحدٌ ملاحظة و لا حتى حين أخذها ليتلذذ بها منفرداً. ما من نسمةٍ ترطب حرَّ الظهيرة والموقد المرهقين. أكل ما أمكن كما فعلت النسوة وكذلك الأطفال إن الطعم اليودي لوجبة اللحم هذه كان شهياً والتي ما احتاجت لتجهيز الجمرات، وفرةُ الأصداف بدت مطمئنة.

احتمى بشجرةٍ وارفة الظلال ذات نوعٍ يجهله وأخذ قيلولة كذلك فعلت النسوة ثم عاد إلى البحر سبح وشعر بالرطوبة. جاءه صبيٌ في الثامنة من العمر كان قد شاهده طويلاً ليلة أمس الأول ولعب بجواره وتسلى بالدوران من حوله يرشه بالماء فينفجر ضاحكاً، يهرب ثم يعود. إنها المرة الأولى منذ أن لجأ إلى هذه القبيلة التي يبدي فيها أحد المتوحشين اهتماماً به أبناء عمه ورفاقه اللذين طالما لعب معهم في المغسل وفي النهر بعيدون جداً.

توقف الصبي بعد وثبته الأخيرة وخاطر بالوقوف أمامه واضعاً يده على صدره قائلاً: - واياكي.

ثم مد راحة يده اليمنى نحو نارسيس وقال:

- أمغلو.

شرع نارسيس بهذه اللعبة من جديد وقال: «اسمك واياكي؟ واياكي. أمغلو. واياكي. أمغلو. أنا أدعى نارسيس».

انبهر الصبي الصغير بالكلمتين اللتين كررهما نارسيس فكرر الصبي كلمة «واياكي» عدة مرات ثم فرَّ ليروي هذا الحوار لأمه ولباقي الصبية الأشقياء.

عادوا لاصطياد الصدف عند نهاية العصر في حين خرج الشبان رويداً رويداً من الغابة يحمل كلٌ منهم سمكةً أو سمكتين رائعتين ويضعونها على الحجر الساخن حيث ما خمدت النار قط. عاد الصيادون مع الغسق حاملين عظاة وعصافير وخفافيش وحيوانات صغيرة ذات فروٍ تشبه القطط إلى حدٍ ما.

كلٌ قدم لنفسه حسب هواه دون ترتيب أو نظام، على خلاف الوجبات السابقة. لم يعارض أحدٌ نارسيس حين اقترب واستحوذ على سمكةٍ مزرقةٍ بحراشف كبيرة ومنقارٌ بارز فذهب وجلس على حدا يتلذذ بنصف السمكة وخبأ الباقي ما بين أوراقٍ جافة. اقترب مجدداً من النار والتهم أصدافاً وتذوق نوعاً من الحمام ذي طبقةٍ دهنيةٍ رقيقةٍ. وضع الصيادون الواصلون مؤخراً

غنائمهم على الحجر وجاءت العجوز بقربتين ممتلئتين بالماء، ما عرف من أين ملأتهما، ومروا من يدٍ لأخرى حتى وصلت إلى نارسيس قربةٌ ممتلئة تقريباً فبالكاد شرب منها نهض وذهب يخبأها مع النصف الآخر للسمكة ما انتبه إليه أحد . رجع إلى مكانه قرب النار وتناول أصدافاً حتى امتلأ بطنه وأخيراً نجح بنشل عظاة انضمت لمدخراته الأخرى.

أدخلت غزارة الطعام الحبور لقلب كل أفراد القبيلة، ما سمع قط هذا الحد من الضحكات والأحاديث الحيوية والأغاني. تنزه زوجان على الشاطئ ولحقهما زوجان آخران، لاح تحت الضياء الأخير للغسق خيالين سوداويين يتأرجحان على الرمال ويلهوان.

كانت السماء بلون الحبر حين استيقظ فجراً إلا أنها أضاعت عتمتها مبديةً أعماقاً واسوداداً شفافين. يراقب نارسيس بزوغ النهار منذ ليالٍ طويلة، منذ مناوبته لأربع ساعاتٍ حتى الحاجز أو حتى ليلة أمس، لذا فهو يعرف أن هذا التعبير يعلن التقزحات الأولى في الشرق.

نهض وعثر متخبطاً على المدخرات المخبأة ثم اتجه نحو الغابة متعثراً بعقبات لم يرها . المتوحشون جمعيهم نائمون.

توقف لتناول السمكة التي شقّ عليه الإمساك بها عندما ابتعد بمسافة كافية عن المتوحشين، حسب تقديره. للوصول إلى خليج الهجران عليه محاذاة البحر خيرٌ من عبور الشطآن وإحاطة ثلمات الشاطئ، خمن أنه من الأفضل تسلق النجد الذي يرتفع حوالي عشرين متراً ويوازي البحر. وُلد النور رويداً رويداً ليكشف الأشجار الواحدة تلو الأخرى.

خبَّ بطريقه ممسكاً مطرة ماءٍ بيد والعظاة باليد الأخرى، يفسح الخليج الشمالي بمستواه الأدنى المكان لنتوءٍ صخري يليه سهلٌ غارقٌ بالماء ثم خليجٌ جديدٌ محاطٌ بأكوامٍ من المرجان. بدا اختياره لخط السير هذا حكيماً رغم فقدان الدروب. سهل النهار الذي بالكاد ظهر خطاه المتعثرة. لا بد أن أفراد القبيلة قد استيقظوا ولاحظوا غيابه، ترى ماذا سيفعلون؟ هل

سيكتشفون أنه ينوي العودة من حيث أتى إلى موطنهم؟ كيرمارك وشومينو وسيكاتريس سيركضون سريعاً ترى هل سيكلفون أنفسهم عناء اللحاق به؟ هل سيعاقبونه على هروبه؟ وبأي نوعٍ من العذاب البربري؟ عليه أن يسرع أكثر ليصل خليج الهجران النائي ولكن كم يبعد؟ خليج الهجران، هناك سيأتون لنجدته! ها قد انخفضت المرتفعات البحرية التي تبعها منذ البداية ثم اختفت تاركةً المكان لهذه الغابة الشاسعة الرتيبة حيث من السهل الضياع. لاح البحر من بين الأشجار التي شكلت مساناً فاقترب منه بحذرٍ، تناثرت هناك على الأرض أكوامٌ من المرجان تعثرت بها قدمه، هاجمه الحر والذباب بآنٍ واحدٍ فمنح نفسه استراحةً موجزةً، اقتصد بشرب الماء ثم غادر. كم من الوقت سيستغرق المسير أيضاً؟ وماذا سيفعل حين يصل إلى هدفه؟

انتهت الغابة مترامية الأطراف بهضبة كلسيةٍ عاريةٍ كلياً وبيضاء كظهر سلحفاة ضخمة. لمح من أعلى القمة منظراً يشبه المنظر الذي وطئه بادئ الأمر: خلجانٌ صغيرةٌ وجروفٌ صخرية صغيرة وغاباتٌ متصحرةٍ، في الأفق، داخل البلد، تتعرج مرتفعاتٌ بحريةٌ متواضعة ضاريةٌ للزرقة لتوازي البحر وتغلق النجد الساحلي حيث يقف.

ما زال نارسيس يسير بباسلة وما توسطت الشمسُ بعد كبد السماء، يسير وهو لا يدري هل يتبع وهماً أم أملاً حقيقياً. وصل هضبة جديدة مشجرةً تعلو الأخرى بقليل ويغلقها من الشمال جرفٌ صخريٌ مهدم، إنه خليج الهجران. لا يلوح على سطح الماء ولا في عُرض البحر لا شراعٌ ولا سفينة.

يجب أن تكون سان بول أو أية سفينة أخرى هنا، هل قدَّر الزمن اللازم من جاوا إلى هنا بشكلٍ خاطئ؟ أم المدة اللازمة للرسو ولتجهيز الرحلة؟ أم أنهم أمضوا الأمسية هنا ثم غادروا؟

ركض نحو الشاطئ وزرعه بالخطى في كل اتجاه. لا أمانة ولا رسالة ولا أثر من أي نوعٍ.

التفكير، عليه أن يفكر مليّاً، قادته خطاه لفيء الشجرة ذاتها التي أمضى تحتها يومه الأول. أرغم نفسه ليتناول العظاة وليشرب تحت ظلالها الوارفة وتساءل: هل عليه البقاء؟ هل بإمكانه أن يرغم نفسه على البقاء لثلاثة أو أربعة أيام؟ ولكن ماذا لو لم تظهر أية سفينة هل سيقوى على العودة إلى خليج الشمال؟ قد يكتشف أن القبيلة قد رحلت والله أعلم إلى أين. إذاً عليه العودة حالاً؟ إن المسافة الفاصلة بين هذين الخليجين أقل مما افترض لذا بإمكانه أن يعود ليلاً فيتناول السمك والصدف والحمام ويشرب ويشرب ويشرب.... ما رأى قط نبع ماء ولم تجعله المرأة العجوز يرى من أي تملأ قرب الماء. ولكن ماذا لو جاء أصدقاؤه غداً؟ عليه ترك رسالة، لن يراه المتوحشون فهم بعيدون لن يتمكنوا من تحطيمها كما حطموا سهم الحصى. تتبوءُ صخرةٌ ضخمة عرش الشاطئ فرأى أن يكتب بالقرب من هذه الصورة الواضحة التي تعلو مستوى المد حروف اسمه [ن. ب] بالحجارة الصغيرة بالإضافة للتاريخ ليعرفوا أنه ما زال على قيد الحياة. في أي يومٍ نحن الآن؟ هجرانه على هذه اليابسة تم في الخامس من تشرين الثاني، أحصى الأيام ثم رسم خطاً ثانياً من الحصى ليكتب الواحد والعشرون من تشرين الثاني ثم رسم سهماً يشير إلى الشمال.

ربما سيعثرون غداً على هذا النقش حديث العهد ويذهبون للبحث عنه. ستعس سفينة سان بول على طول الشاطئ مطلقة نار البنادق والمدافع، سيرى الأشرعة ويضرم النار في الغابة ليدل على مكانه.

خبَّ في خطاه عائداً ما إن أنهى نقشه، تنتظره ستُ ساعات من السير المضني تحت شمسٍ من البارود، حتى وصل منهك القوى ظمأناً حائراً هل اتخذ القرار الصائب، جاهلاً بالاستقبال الذي سيلاقونه به.

لم يكترث إليه أحدٌ من أفراد القبيلة، فاستعاد قواه وهو يلتهم أصدافاً وأسماكاً صغيرة ثم ذهب لينال قسطاً من الراحة في مياه البحر. جاء «واياك» يلهو بجواره. كانت وجبة المساء أقل تنوعاً من ليلة أمس إلا أنه تمكن من تناول حمامةٍ كبيرةٍ وخفاشين، فغلبه النعاس فوراً و غطَّ في نومٍ عميقٍ.

الرسالة الخامسة

على متن ستراتمور في 12 تموز 1861

السيد الرئيس.

ما ظننت قط أن أروي لكم السفر من سيدني، إذ أوفى الحاكم بعهده فرحاً بالتخلص منا وأخذ على حسابه الخاص بطاقتين إلى لندن وكان عليَّ الإلحاح ليحجز لنارسيس بالدرجة الأولى معي لا بالدرجة الثالثة كما خُيل للمكاتب دائمة الجشع. لم يكن الأمر بالنسبة لي مبدأ فحسب بل ضرورة، فعلي أن استثمر هذه الأيام لمتابعة العمل في دفع تقدمه المؤثر كما علي أن أرعاه بشكلٍ دائمٍ ما دامت ردود أفعاله قد تفاجئ الآخرين.

بالكاد تعرف الحاكم على المتوحش العاري الذي عهد به إليَّ منذ ثلاثة أشهر فأمامه رجلٌ متواضع حليق الذقن يرتدي بنطالاً رمادياً وقميصاً أبيضاً فضفاضاً ووشاحاً وقبعةً زرقاء، ودّعناه على محمل السرعة وأبحرنا على متن سفينة «ستراتمور» التي أبحرت في الأمسية ذاتها. الأيام الأولى كانت شحيحةً بالأحداث، فالبحرُ جميل والنسمات ساكنة. تعارف ركاب الدرجة الأولى فيما بينهم ضباطاً وموظفين في نهاية إقامتهم وتاجر أقمشة قطنية وانكليزية تلحق بأخيها في سان فرانسيسكو ومبشرين بريطانيين - (هل المبشرون البريطانيون كثيرون إلى هذا الحد ففي كل رحلةٍ لي على متن سفينةٍ مهما كانت ألتقي باثنين؟).

أنا ونارسيس كنّا الفرنسيين الوحيدين قليلاً ما اختلطنا بالآخرين إذ كانت أمامنا عقباتٌ كثيرة.

تنزه في صباح اليوم الأول على الجسر وتفحص بانتباهٍ عالٍ أعمدة الصواري والأطراف وحركة الأشرعة والبحارة وقاداتهم والنوتيين الذين ينظفون الجسر كما راقب الربان ببزته ذات الشرائط المذهبة، وتأمل الأمواج والرياح. أضاف لي بطريقة ملاحظته لهذه التفاصيل دليلاً آخر أو بالأحرى دليلاً إضافياً على ماضيه كبحار.

رغم كل هذا فهو لا ينطق بكلمة، سألته عن الشعور الذي يراوده وهو على متن باخرة بيد أنه لا يتحدث عن انفعالاته ومشاعره وما زلت أجهل إن كان يفهم حقاً السؤال أو إذا ما كان يكره أن يكشف عما يكن في قلبه أم إذا ما كانت الكلمات تنقصه أو إن كان حقاً لديه ما يقول.

طوى نارسيس في إحدى الأمسيات أكمام قميصه حتى المرفق وكنا في الجزء الخلفي فلمحت سيدةٌ انكليزية الوشوم على ساعديه فصرخت باستغراب وعندما لاحظت أنني أتكلم لغتها سألتني عن هذه النماذج الغريبة. فأجبتها ببرودٍ أن صديقي عاش لعدة سنوات في جزيرةٍ في المحيط الهادئ فخطر له أن يتزين مثلهم. ابتسم نارسيس في وجهها، لاحظ أننا نتحدث عنه بيد أنه ما عرف الموضوع.

في اليوم التالي، لحق بي إلى الصالون من أجل وجبة الإفطار وقال لي بحرية دون استعداد: «لقد ضاجعت الانكليزية هذه الليلة»، لم يكن هذا الإعلان واضحاً كفايةً فأمسك ما بين فخذيه من فوق البنطال.

كدت انفجر ضاحكاً حينها، فشرحت لنارسيس أنه من غير المناسب أن يختال بهذا الزهو بمثل هذه الحركات فخوراً بثرواته الجيدة. حيرته هذه القاعدة الجديدة فسأل: - لا يجوز الحديث عن هذا؟

- بل لا يجوز أن تختال بهذه الطريقة، فالنساء عامة لا يفضلن أن يُكشف عن ذلك. عليك أن تكون كتوماً.

- يمكنني القول ولكن بسرية.

- لست مرغماً، يمكننا أن نعهد بهذه الأسرار للأصدقاء والمقربين ويبدو مسلياً أكثر لو تتركه يكتشف ذلك وحده فلا تصر كثيراً.

-؟؟

- أو بالأحرى تلك الحركة التي قمت بها، إذ يكفي غمزةٌ أو رفع الإبهام.

ثم أريته الإشارة السرية التي اقترحتها فتدرب عليها وقال لي:

- وأنت هل ضاجعت على متن القارب أو في سيدني.

اعذروني، سيدي الرئيس، على نقل كلماته كما هي بكل همجيتها، إذ طلبتم مني تسجيل كل شيء، لا حياء بالعلم وسترون إذا ما تكرمتم بأن تقرؤون حتى النهاية أهمية هذه الكلمة.

شرحتُ لنارسيس أنه لا يجوز طرح أسئلةٍ مباشرة هكذا وآثرت ألا أجيب، فقال: «لكننا أصدقاء مقربون ورفاق؟»

ابتسمت وقد دمي فؤادي لعدم فهمه، فطمأنته من هذه الناحية، فهم بغموضٍ تحفظي فأبدى دماثة غير متوقعة وما ألح بالسؤال.

- «أنا ما ضاجعت في سيدني لم أرد ذلك».

ماذا تعني هذه الجملة؟ هل قدمت الخادمة نفسها له؟ لم أستطع منع نفسي من سؤاله عما قصد بهذا فقال:

«كنا في المنزل فأومأ إليّ بيل بالمجيء إلى غرفته فوضع يده على بطني أو أسفل فسألته لماذا. فحاول أن يدعني أفهم بالحركات أنه يريد أن يضاجعني فقلت: لا، ثم خرجت من الغرفة».

صعقني هذا السر المكشوف. منحتُ ثقتي لسجينٍ محكوم بالأشغال الشاقة وسمحت له بالخروج من سجن المؤيد وأخذته لخدمتي، فاستغل ذلك وأقحم قذارته الأكثر دناءة تحت سقف بيتي وهاجم نارسيس الأبعد ما يكون عن الدفاع عن نفسه. مهما تخيلتُ الأخلاق التي تهيمن على سجينٍ

بالمؤبد إلا أن هذا الفسوق ونكران الجميل فاجآني. عنَّفت نفسي بمرارة على ما أبديت من سذاجة كما لمت نفس أنني عرَّضت نارسيس لمثل هذا الموقف بعد أن قبلت أن أكون مسؤولاً عنه فبدأت أقيس كل يومٍ أبعاد هذا الالتزام.

قدمت لي حركة بيل الدنيئة توضيحات كثيرة، إن جدالاً حول هذا الأمر يزعجني كثيراً لم يكن هناك متسعٌ من الوقت لتحديد الإجابة الأكثر تفصيلاً فاكتفيت بجوابٍ بسيط: «حسناً فعلت».

صعقتني الفضيحة التي كُشف النقاب عنها فمنعتني أن أسلط فوراً الضوء على الجانب الأكثر أهمية في هذا الحوار إذ استخدم نارسيس كلمةً جديدةً «ضاجعت الانكليزية». حقاً ما تلقنها مني كما أنهم سدني لا يتكلمون سوى اللغة الانكليزية وكذلك على متن السفينة، هل يمكن أن من علمه تلك الكلمة هي صديقته الجديدة.

قررت أن أجازف بفضح السر لأتحرى الأمر، فحين صادفتها لاحقاً في ممر بين غرف السفينة وبنفس النبرة التي اسأل بها: «هل نمتِ جيداً؟» طرحت عليه السؤال بقولي «إذاً هل ضاجعك صديقي؟». ما تلقيت لا صفعةً ولا شتيمةً بل سألتني أن أكرر ما قلت بالانكليزية فاعتذرت عن تهوري وتفوهت ببعض الترهات ثم مضيت في طريقي وخرجت من الموضوع.

إذاً فقد استعاد نارسيس بعفوية هذه العبارة الشعبية التي لابد أنه قد استخدمها خلال حياته كبحار لعشرات المرات دون أن يعيد النظر بها ما بين قسمٍ يطلقه أو تبجحٍ يزهو به. فخورٌ بمغامرته الظريفة لذا عثر على هذه الكلمة من أعماق ذاكرته ليخبرني بها، لعل في ذاكرته كلمات أخرى قبلها لم ألاحظها لأنها غير رنّانة، إذاً أنا ما علمته الفرنسية فتقدمه الساطع إنما دليلٌ على أنه سيكتشف كل ما نسي من جديد حتى دون مساعدتي.

أخال أن إلمامه بلغتنا ما كان ممحياً وإنما كلماتٌ مدونةٌ في كتابٍ والكتاب بقي تحت الماء إلا أنه مجمدٌ بشكلٍ جميلٍ وجيد وما كانت حواراته

معي حتى في بداية قراءاتي لراسين سوى نسمةً دافئةً تقبل هذا الجليد فيذوب في أحضانها رويداً رويداً، أكثر فأكثر حتى انبثق من أماكن عدة ما هرب تحت ذاك الغطاء الجليدي. تتراقص أمام ناظري صوراً لربيع إيسلندا حيث تتحدى أزهارٌ قطنية الثلج على ضفاف مروجٍ بالكاد تحررت من سجادتها الشتوية شكرتُ في نفسي السيدة الانكليزية أن أتاحت لي هذا الاكتشاف.

غالباً ما كانت تغلق على نفسها باب المقصورة في فترات العصر لاعنةٍ دوار البحر ثم يغيب نارسيس لاحقاً لبعض الوقت وفي الصباح التالي يلاقيني في البهو ليغمز بعينه ويرفع إبهامه.

قبل وصولنا إلى «فالبراسيو» بثلاثة أيام كنا نتحاور عن كل شيء وعن اللاشيء مسحورين بنسمات البحر العليلة في الكوثل. يبدو فعل «نتحاور» غير ملائم فأنا الوحيد الذي يتحدث عن كل شيء وعن اللاشيء ونارسيس بالواقع يصيخ السمع ونادراً جداً ما ينطق ببضعة كلمات. ألمحت إليه بأنه سيستعيد مجرى حياته عند وصولنا إلى فرنسا فسألنيٍ أن أكرر الجملة على مسامعه طلبٌ ما أقدم عليه البتة. فنفذت وأنا ألفظ بوضوحٍ وعناية، فلفظ بوضوح:

«في.... في..... جيل.... في »

ما كان ذلك الجمع العفوي للكلمات عادياً وكلمة «جيل» كانت جديدةً مثل تلك العبارة السعيدة التي ذكرتها لكم مراراً وتكراراً، فاجأني نارسيس بما تظاهر به من رصانةٍ وتركيز ثم كرر:

«جيل.... في...».

من أية حياةٍ له يبقي بهذه الذكرى الغامضة؟ وماذا يعني هذا «جيل أو جيليه»؟ جيل وفي؟ لست أدري لعل منظر البحر والأمواج ما دفعني لأفكر ببلدةٍ «فانديه». لم أشأ أن أؤثر به كثيراً فاقترحت:

- «جيل سورفي».

فأجابني دفعة واحدة:

- «سان جيل سورفي». وأخذته المفاجأة مثلي بأن سمع نفسه يكمل ذاك الاسم.

فطرحت عليه السؤال:

- هل تعرف سان جيل سورفي؟

- لا أدري.

كرر هذا الاسم عدة مرات كما لو أنه يتلذذ برنينه أو كما لو أنه يحاول أن يخرج منه أصواتاً أخرى وذكريات أكثر دقة.

- نارسيس هل أنت من سان جيل سورفي؟ هل كنت تقطن هناك؟ هل أهلك هناك؟

لم يجب بشيء وذهب يجلس في مؤخرة السفينة يتأمل محور السفينة الذي يشير إلى استراليا. بماذا يفكر؟ احترمت رغبته بالوحدة.

أية مدينةٍ هذه التي تطرق بقوة في ذاكرةٍ منكوبة سوى مسقط رأسه، تلك المدينة التي تمخضت عنها طفولته وأيامه الأولى في المدرسة؟.

لم يعد المتوحش ذو البشرة البيضاء مجهولاً فاسمه نارسيس وهو من بلدة سان جيل سورفي، فكتبت إلى مختار البلدة رسالة أسأله فيها إذا ما غاب أحد أبناء البلدة منذ أكثر من عشر أو عشرين عاماً في رحلةٍ طويلة.

أسأل نفسي في كل يومٍ أقترب فيه من أوروبا ماذا سأقترح لنارسيس.

شهدت «فالباراسيو» وقوفاً مختصراً في حوضٍ بحري حيث تم نقل السيدة الانكليزية التي تعرضت لدوار البحر، و كذلك المراسلات والطعام الطازج. خشي الربان أن يلامس جزءٌ من طاقم اليابسة فيغادرونه إلى كاليفورنيا حيث تجتاح حمى الذهب الطاقم أسرع من وباء الكوليرا، فحمى الذهب هذه تجذب المكتشفين من العالم بأسره باحثين عن صدفة. في مساء اليوم نفسه، مخرنا العباب قاصدين الجنوب حيث وافانا الطقس السيء بسرعة لتتبعه العاصفة. خلال أسبوعٍ طويلٍ جداً، أخلص عبورنا الشتوي

لسمعة رأس «هورن» إذ لا بد أنكم سمعتم عن بحره الهائج وسمائه المخضرة والقلق من احتمال وجود جبالٍ جليدية ناهيك عن الأمواج الغاضبة، لن أحاول أن أصف لكم النوارس ومربعات الرأس الهاربة بين يدي الريح.

استولى الضيق على أغلب المسافرين ومنهم خادمكم الأمين جرّاء التمايل والتموّر وصخب تلك الأمواج العالية التي تتكسر كمنازلاً أسفل الهيكل، يستحيل النوم على فراش يهتز بكل الاتجاهات ويفضل ألا تحلم، حتى تناول الطعام بات مستحيلاً لم أعد أقوى على العناية بنارسيس ولا لأحاوره. أما هو فما أثرت العاصفة به إذ بقيت قدمه ثابتة وشهيته مفتوحة، ثم وبعد مضي ثلاثة أيام من الكسل والملل رغب بمد يد العون للبحارة في تحريك السفينة وما استطعت ثني عزيمته فأخبرت ربان «ستراستمور» ما بين غثيانين، وأوضحت له بأنها ليست مجرد نزوة فلصديقي خبرةٌ حقيقيةٌ بالبحر. رفض الربان بتهذيب بعد أن فكر بما عليه من عمل مع رجلٍ هاوي للإبحار فهو لا يستطيع أن يرسل مسافراً من الدرجة الأولى في قلب العاصفة إلى صواري السفينة إلا في تهديدٍ وشيكٍ لغرقٍ ونحن لسنا في هذا الوضع! كما أنه لا يفهم الأوامر الملقاة بالانكليزية. اقتنعت بذلك فترافعت من أجل موقع موجه السكان.

بعد حربٍ شعواء، استسلم الربان أن يقود السفينة مع بحار المناوبة لأربع ساعات مشكلاً معه ثنائياً وراهنني على زجاجةٍ من نبيذ البورتو بأن صديقي لن يصمد لساعة قدم قائد المناورة لنارسيس ملابس بحر، بزةٌ وبنطال محشوين ومغلفين بالقماش بالإضافة لقبعةٍ وكفوفٍ من الصوف، رفض الحذاء الطويل وبقي حافي القدمين وواجه زوبعة الثلج.

قاد نارسيس السفينة طيلة اليوم إذ استعاد الحركات ليرافق السفينة في انزلاقها على الأمواج وعودتها مع جوف الموجة والإمساك بها في علوها ومواجهتها للريح من أفضل زاوية محافظاً في كل ذلك على اتجاه السفينة دوى هزيز العاصفة وعوت الأمطار الأفقية فصمت الآذان حتى استحال

على الجميع التحدث معه حتى البحار الذي يشاركه بالمهمة والذي وبغموض نالت إعجابه تلك المعونة الغير متوقعة.

تبدل البحار بعد مضي أربع ساعات إلا أن نارسيس رفض النهوض إلا من أجل تناول بضع لقيمات ويرشف الشاي، كان القائد الجديد أقل خبرةٍ فترك لنارسيس قيادة العمليات، بقي مترنحاً بعد مضي ثلاث ساعات بفعل موجةٍ ضخمة ضربت جسر السفينة وغمرته ثم ضرب رأسه بقطعةٍ من النحاس فتحت قوس الحاجبين والجبهة فأعماه الدم متعباً تقريباً، دخل ليضمد جراحه، ما حلَّ محله أحدٌ، لست أدري على أية حال هل لاحظ ضابط المناوبات ما جرى.

غادر نارسيس مكانه مع غياب الشمس واندس في فراشه بثيابه المبللة ونام دون تناول الطعام. بذلت جهدي عند وجبة العشاء لتناول القليل من الحساء فأخبرني الربان أنه مدينٌ لي بزجاجة نبيذ البورتو، فطلبت منه أن يقدمها للطاقم عندما ننجو من هذا البحر الهائج.

علمت في صباح اليوم التالي أن نارسيس نهض في منتصف الليل وقدم يداً قويةً للقادة الذين تتالوا حتى بزغ الفجر إذا ما صح لنا تسمية فجر تلك الغيوم الكثيفة التي تسرب ضوءاً زئبقياً بارداً من الزبد يختلط بالغيوم.

ثمانية أيام على التوالي و نارسيس يقوم بأعمال القيادة خلال ثماني إلى عشر ساعات وينام لثلاث أو أربع ساعات، يقضم ببطء كسرةَ خبز يدسها في جيب معطفه فيكتفي. لم يلحظ المسافرون الباقون هذا العمل الباهر فقد وقعوا مرضى أما ضباط ورجال السفينة عبروا عن إعجابهم وامتنانهم. وأخيراً وبعد تجاوز «الهورن» اتجهت سفينة «ستراتمور» نحو الشمال ودخلت إلى المحيط الأطلسي حيث أفسح الجو العاصف المكان لطقسٍ رديء.

رحلت الأمواج الضخمة ليحل محلها أمواجٌ صاخبة مجوفة إلا أنها منتظمة. غادر نارسيس موقعه ورمى رداء المطر في الممر ونام لثلاثة أيام

متتالية. وهكذا فقد عثر نارسيس الذي ما أبحر لسنواتٍ طوالٍ على حركات مهنته الأساسية، عن ذاكرته تعود على مراحل لا بالمفردات فقط بل أيضاً في ذكرى مسقط رأسه وارتكاسه كبحارٍ واثقٍ من حسن سلوكه.

سألته عندما استجمع قواه وأزاح عنه التعب، لماذا خاطر بنفسه بهذا الشكل لم تكن السفينة بخطر وكان بوسعه البقاء في الدفء وانتظار العاصفة لتهدأ. فأجابني: «إن الصبية كانوا يعانون لا بد من تقديم يد العون لهم.» حتى الربان الذي وافاه ليقدم له امتنانه لم يحصل على إجابة أوفى.

صار بحوزتي ثلاث إشارات، اسمه: نارسيس، مهنته: بحار، مكان ولادته: سان جيل سورفي. هل ستكفي لإعادته إلى ماضيه ولمعرفة ظروف غرقه؟

مضى أسبوعٌ على نهاية العاصفة فجاء بحارٌ من ستراتمور لرؤيتي ويمسك قبعته بيده، أراد الطاقم أن يقدم لصديقي هديةً صغيرة كعربون شكرٍ، ترجمتُ لنارسيس فرسم ابتسامةً كبيرةً فأخرج البحار من قبعته نصف قشرةٍ محفورة بالسكين كُتب عليها «رحلة الهورن» وقد دوّن التاريخ ثم قدمها له، أخذها نارسيس بوقارٍ وانفعالٍ مؤثرين أوجز بهما خطاباً كاملاً ثم قال لي: «قدموا لي هدية علي أن أقدم لهم الهدية أنا».

بتُ أعي صيغ الأدب بعد أن ألفت المحيط الهادئ. ماذا عسانا أن نقدم للطاقم؟ أحضرت زجاجة بورتو أخرى وقدمها نارسيس لزميله الانكليزي ما كان ليتبادل سفيرين من الباب العالي أو من بلاط إمبراطور الصين تقدميتين بهذه الأبهة الهائلة.

ومنذ ذلك الحين ونارسيس يحتفظ بهذه اللعبة من الخشب المحفور.

أتأمل نارسيس وهو يشاهد البحر، ها قد مضت أربعة أشهر ونحن نمضي كل أيامنا معاً. المتوحش الأبيض الأصم المرعب والمرعوب بات صديق الرحلة المبتسم المتحفظ الذي لا يثير الانتباه. ترى هل تغيرتُ أنا أيضاً مع هذه المغامرة؟ حفرت الملاحظات التي قمت بها يقيني: ما هو

المتوحش؟ وإذا كان نارسيس قد تحول سابقاً إلى متوحشٍ تماماً ففي أي يومٍ وأية ساعة عاد متمدناً؟

ماذا عسانا نتعلم من تعلمه في ظاهرة التعلم بحد ذاتها؟ ومن منا هو المتعلم؟

لم أعرف إجابة لهذه الأسئلة ما أعرفه فقط هو أن قصة نارسيس ليست طرفةً بسيطةً، دراساتي عن الأدب القديم في ثانوية «غرنوبل» وقراءاتي وزياراتي لجمعية الجغرافية وكل ما اكتشفته وتعلمته في إيسلندا والمحيط الهادئ زد على ذلك أنا نفسي ما خدمني لفهم نارسيس ولكن كل شيء هيأني لذلك، ليس بحوزتي الأدوات اللازمة لتحليل ما يعلمنا تطور نارسيس، بدأت أعي أن علي صنع تلك الأدوات بنفسي.

لن تنتهي مهمتي عندما نطأ أراضي فرنسا، فهل أتركه على الرصيف. سيمضي نارسيس بقية حياته بقرب عائلته إذا ما توصلتُ للعثور عليها وإلا لبقي برفقتي في مكانٍ ما حيث أضمن له مستقبله. يجب أن تبني الملاحظات التي دونتها بمراقبته باستمرارٍ بمرور شهرٍ تفكيراً واسعاً بالكاد ألحظ مقدماته.

لست أدري هل ستسعفني قوتي وشجاعتي أن أصل به لمكانٍ جيد. إن قصة نارسيس أكبر منه والنظريات المبنية أكبر من قصته. الطرائف حول عودته إلى فرنسا والتي أخمن اختلافها وجاذبيتها ليست بتسالٍ وإنما عوائق. عليَّ أن أتذكر ذلك.

سيتوجب عليكم سيدي الرئيس تقديم يد العون لي لأصل إلى هذا الطموح العالي. أتوقع- بالنهاية هو مجرد توقع - الاتجاه الذي ستأخذه حياتي إذا ما توصلت بهذا الحد. هل ستكون سنوات حياة نارسيس المقبلة عاديةً أكثر من سنوات حياتي؟

أنتظر بفارغ الصبر أن ألاقي في أسورس أو في لندن رسائلكم ونصائحكم الحكيمة.

صدقوا، سيدي الرئيس...

6

بعد تلك الرحلة الطويلة، انقض الجوع عليه وما انفك حتى صباح اليوم التالي. شيءٌ ما قد تغير في حياة القبيلة فما عاد هناك ضحكاتٌ ولا لعب، يتمتم المتوحشون فيما بينهم وما عادوا يتنزهون جنباً إلى جنب، يبدو أنهم قلقون. ارتاب في البدء أن يكون هو وهروبه إلى خليج الهجران السبب إلا أنهم ما زالوا غير آبهين به.

تأنُ المرأة الحامل وقد تنحت جانباً مستلقيةً، جثت المرأة العجوز عند قمة رأسها وأحرقت بعض الأعشاب أما سيكاتريس بقي جالساً عند أخمص قدميها إذ ظن أنه إلى حدٍ ما والد الطفل الذي سيلد.

لا يهتم أحدٌ بتحضير الطعام، ولج نارسيس في الماء، ما رأى أية نار متقدة فقرر أن يأكل في مكانه بعضاً من بلح البحر الذي قد يعثر عليه. خيّل إليه أنه سمع ضجيجاً مصمّاً دون صدى كما لو أن مدفعاً قد ضرب من بعيد. لعلها من سفينة سان بول؟ أو شجرةٍ انهارت في الغابة؟ لا، لا ضير، قرر ألا يدع الأمل يتلاعب به وتابع وجبته، لم يتجدد الضجيج مما ألقى الطمأنينة في نفسه بشكلٍ غريب.

تلوت المرأة الحامل طيلة النهار وتحول نواحها إلى عويل ألمٍ ثم إلى حشرجات ضيق. جلست كل الأمهات من حولها وهنَّ يدندن أنشودة شؤمٍ، أما الرجال والأطفال فتنحوا جانباً إذ لا جدوى من وجودهم. أمضى القائد وقته ذهاباً وإياباً ما بين المجموعات وهو يلقي المواعظ محركاً ذراعيه.

غابت الشمس خلف الأشجار ساحبةً عذابها وحياتها فتبعها صراخ ونحيب النسوة أما سيكاتريس فالتحق بالرجال وقد أعياه الحزن. تجمعت النسوة مع الأطفال والشبان ثم غابوا بعد بضع لحظات في الغابة. أومأ كلٌ من المرأة العجوز ووایاكي و«العريف البحري» إلى نارسيس أن يتبعهم دون نقاش، فأطاع.

بهدوءٍ ودون فرح، تابعوا السير في الغابة حتى حُلكة الليل ورقد الجميع ببطونٍ خاوية. واصلت القبيلة السير مع بزوغ الفجر حتى وصلوا إلى خليج جديد أطلق عليه اسم الخليج الدائري، بعد أن انتصف النهار. لا يبعد الخليج الدائري عن خليج الشمال سوى ثلاث ساعات بالسير قُدماً بخطِ نظرٍ مستقيم، أي تسع أو عشر ساعات إلى خليج الهجران ولكن ما فائدة رسم الخرائط في رأسه؟ سار هروبه الأعزل دون أن تعترضه عوائق وكان عليه العودة. هل يخاطر مجدداً بخطوةٍ مضنية أخرى ليعود على عقبيه مجدداً ما إن يطأ خليج الهجران؟

اتجه نحوه وایاكي وكرر مجدداً هاتين الكلمتين «وایاك أمغلو»، بيد أن نارسيس لم يجبه، شغل نفسه ببناء كوخٍ من الأغصان ما بين جنبة وصخرة، لن يفترش الرمال هذه الليلة كالكلاب بل في تصميمٍ لمنزلٍ صغيرٍ.

أوحى هذا العمل فكرة أخرى أن يبني طوفاً أو جذعيةً أو زورقاً دون شكلٍ محددٍ ثم يهرب في البحر؟ ستكون سيدني في متناول اليد إذا ما حاذى الشاطئ خلال أسبوعين ولِمَ أسبوعين؟ إنه لا يعرف شيئاً ولكن هل يتعلق بهذا الحساب في عُرض البحر، علّه يصادف سفينة إنقاذ.

هو عارٍ بالطبع وسكينه لم يعد معه. إلامَ يحتاج؟ لخشبٍ ولنارٍ كي يقسي الخشب ولروابط كي يتماسك فيما بعضها البعض. لا يمتلك شيئاً من كل هذا وليس لديه أدنى فكرة عن طريقة الحصول عليها ولكن فكرة المشروع أدخلت الحبور إلى فؤاده. لن يقدم المتوحشون له يد المساعدة لكنهم لن يكترثوا إليه ولن يعارضوا عمله، بيد أن حركتهم التي تتوقف شكلت

عائقاً بوجهه، علّهم يخيمون على شاطئ البحر خلال ليالٍ عدةٍ حينها عليه أن يكون جاهزاً.

ما الخشب الذي قد يستخدمه؟ لا تضم الغابة الرملية سوى نوعاً واحداً من الأشجار. تنمو تحت أشجار المانغروف شجيرة الشورى ذات الجذوع الملتوية، كسر أغصاناً من كلتا الشجرتين، أغصاناً مختلفة الأحجام كما جمع أغصاناً مترامية ثم وضع هذه العينات على صخرةٍ مشكلاً حصناً ثم مشروع يرمي الواحد تلو الأخر نحو البحر، الأغصان الخضراء والرمادية تغرق بسرعةٍ كافية ويبعثرها مجرى الماء، هذا لم يثني عزيمته: كان يلزمه محاولات أخرى ولا بد أن يمرر الأغصان فوق شعلةٍ من النار حينها وباللمس سيحدد المادة الأفضل، بناء مادة تطفو كان المشكلة الأولى فقط، عليه أن يجد طريقة لدفع الشراع أو مجذاف، يجب أن يبحر بحذرٍ على طول الشاطئ ويعود ليلاً إلى اليابسة. بدا الأكثر تأكيداً هو خطورة أن يُدفع إلى عُرض البحر ويفقد أي عودة كما أن عليه يحذر الجروف الصخرية العمودية والتيارات العنيفة عند الشواطئ والتقلبات المفاجئة للرياح والأمواج العاتية...

ماذا عن وسائل العيش؟ إنه على يقين بأنه لن يطيق البقاء لأكثر من أربعة أو خمسة أيام دون طعام، لا يعرف كيف سيجمع بعض المدخرات نظراً لأسلوب حياة المتوحشين. والماء؟ ليس من الصعب سرقة قريةٍ أو اثنين أم سرقة مطرات القبيلة كلها؟

عليه تجهيز زورقه الصغير بشيء ما كالصندوق لحفظ مدخراته وعارضةٌ ولو موجزة لتشكل جؤجؤ الزورق ومجداف من أجل التقدم وعصىً طويلة من أجل الأعماق شديدةُ العمق وسيعوض المرساة بالحجر وهكذا باتت صورة زورقٍ بدائي من الجذوع ترتسم في مخيلته.

مغادرته هذه تعني الرحيل ما من عودة إلى الوراء فمن يدري كيف ستستقبله القبيلة إذا ما باءت محاولته بالفشل..... نحو الجنوب باتجاه

سيدني حيث يلاقي أول بناءٍ لأناسٍ ذوي بشرةٍ بيضاء على هذا الشاطئ.

حقاً ليس بحوزته أيةٌ من الوسائل الضرورية للهرب ولا أدنى فكرة عن طريقة صناعتها إلا أن ذلك خيرٌ من أن ينتظر السعادة العارمة التي ستحملها سفينة النجدة أو سعاد العيش بين المتوحشين، لا بد أن يحصل بصبرٍ على المعلومات ذات الفائدة وأن ينذر نفسه للتجهيزات دون كلل للتأكد من كل شيء، وما إن تسنح الفرصة سيرمي نفسه في المغامرة.

طريقُ البحر محفوفٌ بالمخاطر التي يتنبأ لها أما طريقٌ اليابسة فيخفي أخرى أقل أُلفة، حيواناتٌ ضارية ومستنقعاتٌ لا يمكن تجاوزها وحشراتٍ سامة وقبائل أكثر توحشاً، ماذا عساه يختار؟

لا سيء يدفعه للسرعة باتخاذ القرار، لا شيء البتة.

ما زال الوقت بصالحه. التحق بمجموعة النسوة. لم يعد الرجال والشبان، لا بد أنهم ما زالوا على ضفاف الخليج الجنوبي ليؤدي طقوس عزاء مجهولة، غنه وحيدٌ مع نسوة القبيلة كلهن.

كم تمازح مع أصدقائه بحادثةٍ مماثلة وهم يتبادلون أطراف الحديث على طرف السفينة الأمامي... ها هو في منأى عن البرد والرطوبة، بعيداً عن الاضطراب وعن تنفيذ الأوامر المصدرة دون توقف، إنه يتكاسل ليل نهار في ظلال أشجار شاطئٍ مرمي في طرف العالم، رجلٌ وحيدٌ بين نسوة عاريات، هذا ما لا يحدث أبداً، جمعيهم يعرفون ذلك، وبانتظار دورهم بالمناوبة لأربع ساعات يتمازحون بدعاباتٍ فاحشة ويتباهون بقصصٍ حب بعيدة المنال، أما البحارة الأكثر قدماً فيرون رسواً استوائياً بتفاصيل مَاجبة ويبقى البحارة الأكثر شباباً حالمين ببشراتٍ ذهبية وشعر أسود طويل.

كان عارياً وحيداً بين نسوة عارياتٍ وليس لكابوسه نهاية. لا تفارق مخيلته سخرية الموقف وهو يفكر بأكثر أصدقائه تشدقاً على متن سان بول فتنهد وقال: «آهٍ أيها المسكين كير مارك أبادلك حقاً مكاني....»

سحبه هيجان النسوة المفاجئ من أحلام اليقظة الكئيبة التي استحوذت عليه نادى واياكي بصرخاتٍ قويةٍ وفرحة فأسرعن إلى الرأس الرملي الذي يغلق الخليج الدائري من الشمال. إنها سلحفاةٌ على الرمال فلحقت بها النسوة واستخدمت عصياً كرافعات لقلبها ثم قمن بسحبها على فراشٍ من الأوراق قد حُكنه بسرعة.

عُدن إلى الخليج حيث المرأة العجوز ونارسيس والأمهات مع الرضع ما حركوا ساكناً ثم أوقدن ناراً وذبحوا السلحفاة بصدفةٍ رهفةٍ من رقبتها. جاءت كل واحدةٍ منهم للعق الدم من الجرح عينيه. قطّعن الحيوان الذي ما زال دافئاً ووضعن أجزاءً من النسيج على أحجارٍ مسطحةٍ متكئة على النار، فتتكمش قطع اللحم البيضاء لتغدو ذهبية تفوح منها رائحة عديمة اللذة. أمسك نارسيس بحذرٍ بقطعةٍ وطهاها جيداً من الطرف الآخر، سلوكٌ لطيفٌ ما قلده به أحدٌ وما منعه أيضاً ثم نهش بسعادة عارمة النسيج الذي يشبه طعمه طعم لحم العجل. كما تباهى القدامى على متن سان بول بتناولهم للحم السلحفاة والآن فهم السبب. النسوة أيضاً أكلن بشهية ثم قدم لنفسه قطعةً أخرى ورش القطع التي لم تُطهى بعد بمياه البحر للحصول على طعمٍ مالحٍ فسال لعابه مسبقاً، سيحصل من جديد على نكهة اللحم المشوي بعد كل هذه الأيام التي تناول فيها الأصداف والأسماك واللحم الليفي الذي بالكاد يُطهى بالمكمورة.

ما وصل الرجال بعد أما النسوة ممتلئات البطون فقد تباعدن رويداً رويداً وغفون تحت الأشجار، رحلت مساء أمس وها هي أختها وابنة عمها يتلذذن بوجبةٍ شهية ويأكلن ويأكلن ما بوسعهن.....

استمر نارسيس بطهي شرحات السلحفاة متلذذاً بها بشراهة تتناقص، شعر أنه استعاد رويداً رويداً قواه، كما قبل المسير لإلى خليج الهجران لا بل كما قبل أن تستحوذ عليه الحمى، قبل المجاعة التي كابدها في أيامه الأولى لا بل كما قبل الشؤم الذي لحق به منذ عبورهم للرأس. مصّ أصابعه المطلية

بالدهن وأرغم نفسه على قطعة أخرى. ستفسد كل اللحمة المتبقية تحت أشعة الشمس ولكن ما عاد بوسعه التهام المزيد. ترى متى سيحظى بوليمة كهذه من جديد؟ عاد إلى كوخه غط فوراً بالنوم. غادرت جفنيه الغفوة رويداً رويداً مع مضي العصر حيث بدأ الحر يتبدد. لاحظ أن يده على عضوه. فضغط بخفةٍ وشعر به يتحرك ويكبر بعفوي، فسرت في جسده رعشةُ هناءٍ وشعورٌ بالفخر. أسبل جفنيه قليلاً إنه في مأمن من النظرات في كوخه. لم يتوقف بعد. ماذا سيفعل إذاً؟ ما كان يفعله على متن السفينة مساءً على سريره الهزاز عندما لا ينال منه الإنهاك ولا يقوى على انتظار الملذات المعلنة في الرسو القادم. قبل مومس الكاب التقى في بوردو بمومسٍ بدينة وودودة تمارس في حانة الميناء حيث احتفل مع زملائه بما دُفع لهم من مال ومغادرتهم نحو الصين، كما كان له في نانت قبل بوردو علاقاتٌ عابرةٌ مع أخريات إلا أنه لم يعد يذكر أياً منهن بدقة خلا مومس الكاب التي ما لمحها مع أخريات إلا أنه لم يعد يذكر أياً منهم بدقة خلا مومس الكاب التي ما لمحها إلا برجفان الشموع بيد أن الدقائق القلة التي أمضاها معها ما انفكت تطرق ذاكرته ذهبت يده وعادت، حملته أفكاره إلى سريره الهزاز على متن سان بول فاعتراه انفعالٌ شديد بزيارة الحانة في ليلةٍ أفريقية في الفناء الخلفي حيث الكوخ وفراش القش، حذرٍ بألا يؤتي بحركاتٍ تلفت إليه الأنظار تحت غطائه ويتحاشى السخرية.... منذ مجيئه إلى هذه الأرض وهو يحيا بين نسوةٍ سوداواتٍ عارياتٍ، يبدو أنهن لسن نسوةً فهن لا يثرن فيه أية رغبةٍ من أي نوعٍ يبدو أنهن لسن من العرق نفسه هذا ما ساعده أن يعتاد بالنهاية ليحيا عارياً بينهن. كان هو وزملائه يتبادلون الاتهامات بشكلٍ مضحك إذا ما تمكنوا من معاشرة أية امرأة، إذا رفض بعضهم في الحانات «قطع الفحم»، أما هو فما كان لديه حكماً مسبقاً عندما وصل حانة الكاب، أما نساء القبيلة اللواتي يكشفن أجسادهن كاملةً ولا يتنحين جانباً ليضاجعها رجلٌ فلا... أبداً... لا إنه لا يستطيع!

إنه هنا ورغم طيلة الوقت الذي أمضاه، لا يفكر سوى بالزهد أو بهذه العملية المنعزلة التي اعتاد عليها. تتحرك يده اليمنى فتثير فيه أحاسيساً عفويةً ومألوفةً وممتعةً، ما أمتعه شيء منذ هجرانه إذ ترنح ما بين الخوف والألم والظمأ والسأم والتعب واليأس والضغينة والضرب تتالت على فؤاده المنهك واجتمعت عليه أحياناً، ما لاحت بينها لحظةٌ من المتعة، أفعمه هذا الشعور الذي امتلكه بالكمال، لم يعد يكترث لشيء واستسلم للنار التي تتقد في صلبه.

ما الذي يجعله فخوراً؟ لماذا لا يتمكن أن يعود بأفكاره إلى فراش القش في الكاب إلى حركات جسده الملتهب حاجة لذلك الجسد الأسود؟ قوةٌ ونشاطٌ هكذا استعاد بخياله ليلةً مرت بعد أسبوعٍ هربوا فيه أخيراً من زوبعةٍ ثلجية ودخلوا المناطق المعتدلة حاز على متسعٍ من الوقت إذ الخدمة على متن القارب أقل تطلباً. ليلتها أنهى مناوبته وخلع ملابسه عند جسر السفينة وعلقها على المسمار، ثم تحسس طريقه ليصل سريره الهزاز تمدد باسطاً فوقه غطاءً رقيقاً وواضعاً يده على سرواله الداخلي، منتبهاً لأنفاسه ولطقطقة السفينة وحركاتها و فتش في ذاكرته على فتاة حانة الكاب التي دفع لها ثلاثة جنيهات في حضن الرمال ثم انشغل تماماً في سريره الهزاز ليمتع نفسه دون أن يوقظ الآخرين.

أرجلٌ متباعدةٌ وعينان مغلقتان ونفس لاهث لم يعد يفكر بشيء....

التوى على نفسه عندما انتهى وعاد إلى خليج الشمال وأجهش بالبكاء، سالت الدموع على رسلها فاستكان لها كما استسلم من قبل للمتعة، سالت الدموع على وجنتيه تبكي عجزه عن العيش في القبيلة وعجزه عن العيش بدونها. إذ اعتاد رويداً رويداً للبؤس الجسدي وللشك بمصيره وللعري وللغذاء العفن، وأقسى ما في الأمر تلك الوحدة المطلقة، أدرك أنه محكومٌ بحرمانٍ تام من سائر العلاقات الإنسانية بكل ما فيها من موجات صداقةٍ وصحبةٍ وحب وشراكة واحترام وإغراء وجنس، بدت له كل المشاعر

على اختلافها ممنوعةً من الآن فصاعداً، لا يقاسمه أحدٌ هنا أعمق يأسٍ كابده في حياته. بكى على نفسه علَّ البكاء يواسيه قليلاً.

ذات يومٍ قال قس القرية للصبية أنهم إذا مارسوا بعض الأشياء الحقيرة في فراشهم مساءً فإن الملائكة التي تحرسهم ستبكي. حسناً فلتبكي هي أيضاً! إما أن تبكي وإما أن تأتي لمساعدته خيرٌ من بقائها هناك بالأعلى ساكنةً في السماء!

ما رأى قط متوحشاً يبكي في القبيلة. إنه لا يشترك معهم بشيء، لا شيء البتة، بل إنه لا يريد أن يشاركهم بشيء ولا يشارك نساءهم ولا حتى فتياتهم، سيحيا متعةً منفردة كما ينفرد بتأملاته ومنغصاته ومشاريعه وذكرياته.

نهض ومضى يغتسل في مياه مدّ البحر، جاء إليه واياك راغباً باللعب معه، فما أعاره انتباهاً وولج بالبحر حداً لا يتوصل إليه الطفل وتابع تقدمه حتى غمرت المياه ذقنه. تتكسر الأمواج بعيداً على صخرة كبيرة لتشكل هضاباً هشةً في الأفق تتهدم وتتشكل من جديد، عقابٌ يتلوه عقابٌ ليقدمان عرض باليه أنيقاً في الهواء. ماذا لو انتظرها؟ إنه لا يتقن السباحة، ارتفع الماء بهدوء وغمر فمه منخريه وعينيه، تلزمه الشجاعة والإرادة حتى يجتاحه الماء الفاتر ويحرره....

بصق حين ملأت إحدى الأمواج فمه وتمتم في مواجهة الأفق: «أنا نارسيس بيللويتي بحارٌ من سفينة سان بول الشراعية....»

الرسالة السادسة

لندن في 2 آب 1861

سيدي الرئيس.

عثرت على رسالتكم في الفندق وقد حملت تاريخ الخامس والعشرين من تموز حيث هنأتموني بإطراءٍ كبيرٍ على ما شهده نارسيس من تقدم في استراليا وأعدتم إليَّ الأحقية بهذا النجاح بكرمٍ شديد من ناحيتكم. ضمت رسائلي الجديدة تفاصيل أوفى بهذا الخصوص آمل أن تجيب على تساؤلاتكم واقتراحاتكم.

والآن وبعد أن تقلّصت المسافة فيما بيننا سيجري هذا الحوار الذي عَبر المحيطات والذي أُدين لك به بشكلٍ أكثر يسراً.

مضت الأيام الثلاثة في لندن بسرعة البرق يكتنفها غموضٌ شديد.

رسونا في الصباح الباكر وغادرنا «ستراتسمور» استقلينا عربةً من حي المرافئ إلى سافوي. شاهد نارسيس الهنغارات والمعامل والدخان والحدائق والأبنية المسوّدة والقصور وقمة سان بول والسماء الرمادية وعامة الناس كما شاهد الأطفال والنسوة ذات القبعات ومفارق الطرق وحراس الأمن وعربات الخيل بالإضافة للمحلات والجادات والأشجار المصطفة على الأرصفة والرجال ذوي الأزياء السوداء... أغرقه مشهد العاصمة الإمبراطورية بشيء من البلادة، أمسكته بمرفقه لأساعده على النزول من

عربة الخيول والدخول إلى الفندق حيث التصق بالنافذة وأمضى فترة العصر كاملةً يراقب دون حراك ودون كلام.

ماذا يعرف بالحقيقة من عالمنا؟ منزلٌ ناءٍ يغفو على ذراع البحر وسفينة شراعية سريعة وسيدني القرية الضخمة التي لمحها من بعيد والآن إنه في أحضان المدينة الأكبر والأكثر حداثة في العالم. لن أفكر بهذا فماذا بوسعي أن أفعل؟

في حين كان نارسيس يراقب لندن، كنت أنظّم أمور مغادرتنا إلى فرنسا عبر سكة الحديد الجديدة نحو دوفر ثم إلى كالي وأخيراً إلى باريس. وضع الحارس أمامي سيلاً غزيراً من الرسائل من بينها ظرفٌ من (سان جيل سي في) فتسارع خفقات قلبي، حتى إني فتحتها قبل رسالتكم ولا بد أنكم ستتفهمون ذلك. ها كم جواب المختار:

«سيدي الفيكومت:

أيقظت رسالتكم المرسلة إلى فالباريسو في الواحد والعشرين من حزيران ذكريات حزينة. إن الشخص الذي تتقفون أثره هو بالطبع نارسيس بيللوتي من مواليد الثالث عشر من أيار 1825 وهو الطفل الأصغر لحذّاء ذائع الصيت في المنطقة، اعتنق مهنة البحار وهو بعمر الخمسة عشر عاماً، أبحر كنوتي ثم كملاحٍ على متن بواخر مختلفة، إنه شجاع مضى في رحلاتٍ طويلة. يعود لحضن أهله وأخوه وأخته بين الفينة والأخرى.

أبحر من بوردو على متن السفينة الشراعية سان بول متوجهاً إلى الصين فوافته المنية في البحر ما بين الكاب و جاوا وذلك في الخامس من تشرين الثاني عام 1843، تم ذكر هذا التاريخ على شهادة الوفاة بالإضافة لظروف الحادثة. غياب هذا الشاب المقدام الذي ما خلّف وراءه سوى ذكرياتٍ طيبة خلال وجوده المختصر جداً أذهل عائلته بل أذهل سان جيل برمتها.

ما صدق والده هذا العزاء أبداً حتى بعد مضي ثمانية عشر عاماً

وما خففت من حرقتهما حتى أنهم أطلقوا على أحد الأبناء التي رُزق بها ابنهم وابنتهم اسم نارسيس. ما وددت أن أحدثهما عن الخطوة التي جئتم بها والتي ما توصلت لحصر دوافعها، لا بد أن تفسر لي السبب الذي من أجله قمت بإحياء هذه المأساة القديمة وآمل ألا تؤتي بحركةٍ دون تروي، لنقصي عذاباً لا فائدة منه بحق هذه العائلة الكئيبة وإذا حُزتم حسب ما افترض على بعض شهاداتٍ عن لحظات نارسيس بيللوتي الأخيرة فأوصيك ألا تخبرها إلا لي وحدي وتوافق بأن أكون القاضي الوحيد بفائدة إخطارهم بالأمر.. أخاطب إنسانيتك بانتظار الشرح المفصل، أسألكم أن تصدقوا ....»

رغبتُ لأول وهلة أن أركض إلى حضن نارسيس وأعطه اسمه وعمره وحكايته وأخبره بأن والديه على قيد الحياة بيد أنني آثرت الاحتفاظ بهدوئي وقراءة هذه الرسالة مجدداً وأعيد التفكير بها. لماذا استخدم المختار عبارة «مات في البحر»؟ كثيراً ما ظننا أنا والحاكم بأن نارسيس كان الناجي الوحيد من غرق سفينة أو الناجي الوحيد الذي بقي على قيد الحياة بإقامته لدى المتوحشين في حين أوحى المختار بأنه توفي إثر مرضٍ أو جراء حادثٍ على متن سفينة تابعت طريقها بل ووجه ربانها محضراً رسمياً وحدد التاريخ وتابع إجراءات الأحوال المدنية. بحارٌ توفي في البحر هذا يعني أن الأمواج قد ابتلعته كيف تمكن نارسيس من البقاء على قيد الحياة؟ شيءٌ ما في هذه المعلومة غير منطقي!!

ولد نارسيس عام 1825 إذاً فقد كان عمره ثمانية عشر عاماً عندما ولسببٍ غامضٍ ما عاد ملّاحاً على متن سان بول بل تائهاً في عمق أعماق استراليا وهكذا فقد أمضى ثمانية عشر عاماً عند المتوحشين. ثمانية عشر عاماً! قسّمت مأساة ما حياته لقسمين متساويين لتباغته في نهايتها قفزةً من الهمجية إلى المدنية. ثمانية عشر عاماً! كيف بوسعنا احتمال أو حتى مجرد تخيل عزلةً بهذه الخطورة.

أرسلت لاحقاً إلى مختار سان جيل رسالةً مقتضبةً أروي فيها مصادفتي لشخصٍ في استراليا يدعى نارسيس وهو بحارٌ أمضى عدة سنوات عند المتوحشين فنسي ماضيه برمته، أوجزت بالوصف فما تطرقت لجسده المغطى بالوشوم وتابعت راجياً إياه أن يعلم والديه بقرب عودته بما تتطلبه مفاجأة كهذه من لطف ولباقة، لا بد من لم شمل نارسيس وعائلته وعندما تُهيأ عودة الابن الضائع سيخبروننا حين نصل إلى باريس لاصطحابه بأقصى سرعة. عادت تلك الصرخات التي أثرت فيَّ كثيراً في الأيام الأولى للقائنا كانت تعني «نارسيس بيللوتي بحارٌ من السفينة الشراعية سان بول». مزقَ الكلمات التي أضاع معناها كانت الخيط الأخير الذي يربطه بتاريخه، تلك هي هويته الأخيرة التي تفوق عليها. ما إن أنهيت كتابة الرسالة إلى المختار حتى طلب صحفيٌ من جريدة «ديلي ميرور» مقابلتنا فوافيته وحدي في البهو. إنه شابٌ لا يخلو من المرح وأصبح على درايةٍ بقصة نارسيس، كيف؟ عبر سيدةٍ انكليزية كانت قد أبحرت مؤخراً من سيدني إلى سان فرانسيسكو فروت لأحد زملائها من كاليفورنيا، انتابنيٌ شعورٌ بالاستياء من الثرثرة الطائشة التي تبديها تلك السيدة. ماذا ينبغي أن أقول عن هذه المغامرة؟ ازدادِ سخطي عند سماعي للأسئلة التي يطرحها هذا الشاب ذو المواضيع المتعددة والذي يعجز ربما عن تحديد مكان استراليا على الخريطة: هل كان نارسيس من آكلي لحوم البشر؟ هل تحصي الوشوم المدهشة عدد الأعداء الذين أجهز عليهم في معاركه؟ هل تزوج من فتيات القائد الأكبر الثلاث؟ لماذا أرهق بحارة السفينة الذين أنقذوه وأرغم الربان على القبض عليه بشبكة الصيد؟ أنكرتُ بهدوءٍ كل هذه الحماقات وحاولت وصف طبعه اللطيف وتطوره باستعادة لغته الفرنسية وسلوكه الحسن. صمَتُ بحذرٍ عن الفشل الذي لحق بي وعن مغامرة نارسيس اللطيفة مع السيدة المفترضة كما لم أتحدث عن رفضه للبوح عن ماضيه بين المتوحشين وما

كشفت بالطبع عن أية إشارةٍ من هويته. لم يصغِ جيداً الصحفي لحديثي بينما كان يدوّن ملاحظاته ثم أراد التحدث إلى نارسيس فعارضت. هل كنت مخطئاً؟ على كل حال ما ألح بطلبه وغادر.

ما إن صعدت إلى غرفتي وجلستُ إلى مكتبي حتى باغتني نارسيس بثيابه المبعثرة وهيئته الضائعة التي ما رأيته بها قط، وقال لي بكل بساطة: «تعال»، بنبرةٍ لا تنتظر الجواب ومضى إلى الغرفة المجاورة حيث وجدتُ خادمةً من الفندق بملابسها الداخلية وتقوم بتصحيح صدارها وتلفظ الشتائم، فسألتها ما الذي جرى فأجابت بلهجة الطبقة الوضيعة المرعبة في لندن: «صديقك هذا الذي لا يفهم أية كلمة انكليزية كان سعيداً بكظم غيظه واصطحابي إلى فراشه والآن بعد أن انتهى وحصل على ما يريد يرفض أن يقدم لي هديتي الصغيرة....»

تخلصنا منها بفضل عدة شلنات ثم توجب عليَّ أن أوضح لنارسيس ما الذي جرى لم يتمكن من فهم الحب الذي يباع ويشترى وحتى ولو فهمه جيداً ففي داخله تبريرٌ خاصٌ للحب بين الرجل والمرأة ولم يعِ أن تبحث على الحصول على منفعةٍ أخرى مباشرةٍ سوى ممارسة الحب، ومهما كانت هذه التجارة مميزة فهي ترتكز كسائر التجار على حقيقة أن نارسيس لا يعي تماماً مفهوم: المال، فهذه القطع التي دسستها في يد الفتاة لا تؤكل ولا تعطي الدفء ولا نفع منها. لقد فشلت تماماً في هذا الدرس المضاعف. دام نقاشنا حول هذه النقطة لساعة تقريباً فبدا للحظاتٍ مُخلاً بالأدب وللحظاتٍ أخرى كوميدياً حقاً، لو كان هناك من يراقبنا؟

شعرت بسذاجتي بهذه اللحظة؛ عاد نارسيس إلى عالمنا لأنه يرتدي بنطالاً ويشرب بالكأس؟ إن نارسيس بعيدٌ عنَّا وعن المفاهيم الأولية التي تشكل مجتمعاتنا إنه يقلّد ما أمكنه من تصرفاتنا، ظننت أني أرشده إلى طريقٍ مستقيم واضح المعالم في حين أنه تاه دون أدنى شك في غابةٍ كثيفةٍ

بدا كل شيءٍ فيها غريباً عنه. ألم أكن في البدء على وشك أن أقوّمه وأجعل منه حيواناً عارفاً تحركه الأوهام وفقط الأوهام؟ إنه يدخل طور المدنية أكثر فأكثر ودائماً ما يتعذر الوصول إليه...

هل يتبادل كل سكان لندن تلك الكلمات لإزعاجي؟ هاك الآن محقق الشرطة في الحي الذي قيل له عن هذا الفرنسي دون أوراق، فتخلصت منه أن قدمت له قرار قاضي الجالية في سيدني، رغم ذلك طلب رؤية نارسيس ثم طرح عليه بعض الأسئلة وكنت هنا مترجماً، يعاني نارسيس من المضي بمثل هذا النوع من الأدوار فمضى المحقق بحال سبيله. حلَّ المساء حينها أخذت علماً بملحق رسالتكم حيث أجبتم فيها على اقتراحٍ كنت قد سمحت لنفسي بتقديمه لكم منذ ثلاثة أشهر خلت، علمتُ بشكلٍ خاصٍ أنكم راضون عن العناصر التي قمتم بالبحث عنها في كل ما نُشر عن قصص البحارة الغارقين في أراضٍ عدوانية. لا بد أن نستبعد من هذا الإحصاء أولئك الذي شاركهم في مصيبتهم رفاقاً لهم، فمجموعةٌ من الناجين ولواختصر عددهم على اثنين يدعمون بعضهم بالقوة والشجاعة و يتكلمون بلغتهم الأم تلك المميزة التي فقدها نارسيس بالمثل، إذا تجرأت أقول، لابد أن أستبعد «الروبنسن الحديثين» الذين تم إلقاؤهم في جزيرة مقفرة، لم أقصد أن عذابهم ضئيلٌ بيد أنهم ما كان عليهم سوى مواجهة الطبيعة وهذا ما لا يمكن مقارنته مع ما خاضه نارسيس من تجارب. بقي أمامنا حالة البحارة المعزولين ما بين المتوحشين إلا أن دافع الغالبية كان الهرب فسحر الجزر الاستوائية أغراهم بالإضافة لاحتمال حياة كسولة لا يشوبها همٌ تزينها ابتسامات النساء والأراضي الخصبة بل إن الأكثرية من الأوضاع السيئة كانوا فرحين بالهروب من سياط السفينة، فأقاموا في حضن قبيلةٍ ومنهم من تزوج بامرأة ليشكل عائلة وغالباً ما يجدون مكاناً لهم في تجارةٍ كبيرةٍ ليكونوا فيها وسطاء ما بين عائلاتهم بالتبني والسفن العابرة، كما أمَّن

بعضهم مراكز لا بأس بها في جزر الصندل أو في مغرقة البحر، أمضوا وقتهم كوسطاء ما بين عالمين فما نسوا قط من قرروا هجرهم وساوموا على أفضل المنافع المادية. كما يجب تقدير وضع المبشرين الكاثوليك والبروتستانت على حدا فإخلاصهم لخدمة الله تمدهم بقوة لا نظير لها.

حقاً، يحيا الفارون والمبشرون وحيدين بين المتوحشين الأكثر رعباً أحياناً إلا أنه خيارهم.

بإطار هذا الغربال دُونت سبعُ مآسي كما ينبغي وهي لبحارة منفردين مرميين على الشاطئ بأحضان بعض القبائل، ورغم ذلك فقد وافتهم النجدة حسب ما ورد في هذه المعلومات القيّمة إذ كانت حدود إقامتهم ما بين ثلاثة إلى عشرين شهراً.

هذه الفترة التي لا يمكن تحديدها مسبقاً وبدقة لا بد أنها بدت مرعبة لهم ولكن حسب رأي فإن هذا غير كافٍ ليتم دفعهم بعمقٍ كما حلَّ بنارسيس، لا أرمي للاستهانة بآلامهم أو بشجاعتهم وإنما أقصد أن إقامة نارسيس التي تضاعفت لأكثر من عشر مرات من إقامتهم ما اقتصرت على تغيير المدة فحسب وإنما قلب طبيعة التجربة كلياً.

زد على العمر الذي لعب دوراً إضافياً ففي كل ما ورد من مصائب كان يتجاوز عمر أصغر سناً ستة وعشرين عاماً أي أنهم راشدون بينما نارسيس وصل لأحضان المتوحشين في عمر الثامنة عشر أي طفل أو بالأحرى في مقتبل العمر فحسب أي مقياس يدرس هذا الأمر؟

ترى يتعارض هذا الحدث مع إبداء أية مقاومة ولو ضئيلة بمواجهة الضغط الذي تعرض له مهما كان سياقة؟ حقيقةً أجهل الإجابة.

لا بد أن هناك حالات أخرى، بحارةٌ غرقوا فاستقبلهم المتوحشون وبقوا بينهم على قيد الحياة يترقبون النجدة حتى وافتهم المنية جراء الضرب أو الجوع أو المرض أو الحزن أو الشيخوخة. لا ندري هل أمضوا سنةً أم خمس سنوات أم عشرين سنةً أم ثلاثين سنة دون أن يشاهدوا رجلاً

ذا بشرة بيضاء مجدداً. يستحيل علينا الإحاطة بذلك وستبقى هذه المآسي طيَّ المجهول للأبد إلا إذا تم مصادفة هجينٍ مجهولٍ أشقرٍ أو أصهب ليكون أثراً وحيداً لإقامة سابقة قد تتجاوز جيلاً أو جيلين لمولودٍ على شطآن بحر الشمال....

في صباح اليوم التالي، جاءتني الحارسة عن عمدٍ بجريدة «ديلي ميرور» حيث تحتل قصةُ المتوحش الأبيض نصف صفحةٍ. لن أرسلها لكم سيدي الرئيس ولن ألخصها لئلا أتسبب بإهانتكم فكلُ جملة كاذبة وكل تفصيل مغربل ما خلا أن المتوحش الأبيض فرنسي الجنسية إذاً فقد هدرت وقتي باستقبال ذاك الصحفي إذ أملت ألا يكتب ترهات، ثبيت الجريدة وأرغمت نفسي ألا أفكر بها مجدداً.

للأسف قرأت لندن بكل أرجائها المقال ومضى النهار برمته لاستقبل الرسائل الأكثر تناقضاً والأكثر غرابة، فجمعيةٌ ترنو أن تلتقي بنا لمناقشة التبشير في المحيط الهادئ، وسيدةٌ تود احتساء الشاي مع البحار المسكين وكاتبٌ ذائعُ الصيت استجداني لأقدم له التفاصيل الوافية لروايته القادمة بالإضافة لعالمٍ غامضٍ أخذني كشاهدٍ على دقة نظرياته التي أجهلها كلياً.....

دعاني وزير فرنسا لمقابلته ليستعلم عن وضع مواطنه فما كان لدي متسعٌ من الوقت لألبي دعوته.

ما تمكن من استمالتي سوى رئيس الجمعية الملكية للجغرافية وذلك لأنه استند بادئ الأمر لصداقتكم ولخصوصية كونه عضواً منسجماً مع جمعيتنا بالإضافة أنني اكتشفت أن أساطير الصحافة لم تخدعه وانه يبدي اهتماماً بصديقنا، فقبلت مع بعض الزهو دعوته لتناول الحساء مساءً برفقة بعض المستكشفين الأكثر شهرة في بريطانيا، كان فيه من الدماثة ما دفعني لاحترام فكرة حضور نارسيس بيد أنه رفض المجيء عندما أخبرته فبررت اعتذاره متذرعاً بخجله الشديد وجهله بالانكليزية لم آتي على ذكر

السبب الحقيقي وهو أن الأولوية تذهب لجمعية الجغرافية في باريس قبل لندن.

في أواخر الصبيحة بينما كنت منكباً على هذه الرسالة الهائلة، رغب مدير الفندق أن أستقبله ليصطحبني إلى الشرفة حيث فوجئت بجمهرةٍ من مئات الناس مكتظين على الرصيف، بالكاد تمنعهم الشرطة. ماذا يريد كل هؤلاء المتسكعون؟

رؤية المتوحش الأبيض. هل كان عليه أن يخرج إلى الشرفة؟ بالطبع كلا، فغوغاء المشهد ستجذب سحابةً لا تتوقف من الفضوليين الجدد. كلا، عليه أن يبقى مختبئاً و لا يخرج البتة إذ خشيتُ أن تستحوذ عليه حركة الحشد هذه.

رمى هذا الوضع المزري القلق والبلبلة في نفوس النزلاء الآخرين الذين أرادوا أن ينعموا بالهدوء والرزانة وقبل أن يجد المدير متسعاً من الوقت لأفهم أنه لم يعد مرغوب بنا، اصطحبته إلى الباب مؤكداً له أننا سنغادر يوم غد. هربت برفقة نارسيس عصراً من الباب الخلفي وقمنا بجولةٍ طويلةٍ سيراً على الأقدام لم أثقل كاهله بالتعليقات أردتُ بشكلٍ خاص أن أعي تأثره بحياة المدينة، مشى بهيئةٍ يائسةٍ وتنهد في كل مرةٍ يرفع فيها عينيه نحو الأبنية ذات الأربعة أو الخمسة طوابق ولم يكف الناس عن مسه وهم يمضون على عجلةٍ من أمرهم. هدأت « الهاي بارك» من روعه فدعس على العشب بفرحٍ واضحٍ.

عند زاوية «ريجانت ستريت» وفي إحدى شوارعه الضيقة المعتمة من شحاذٌ أصهب يمد قبعته للمارة، فتوقف نارسيس أمام هذا الرجل الذي يصعب تحديد عمره بذقنٍ أشعثٍ وملابس مهترئة، أثار تفرسه الملحاح بالرجل بعض الشكوى باللغة الايرلندية فدسست له صدقةً لأضع حداً لها، وقلت:

«حسناً نارسيس؟ هل نمضي في سبيلنا؟»

فكر طويلاً قبل أن يجيبني:

«كل الناس في لندن يتراكضون أما هو فثابتٌ دون حراك؟»

كيف يمكنني أن أشرح له أنه مخطئٌ تماماً؟ هل عليَّ أن أوضح له أنه لا يعي شيئاً مما يرى؟

كانت بانتظاري عشرات الرسائل التي لم أجرؤ على فتحها كلها وبعد رشف الشاي الذي اعتدها تاركاً نارسيس في الفندق، استقليت عربةً ومضيت نحو الجمعية الملكية.

إنكم سيدي الرئيس تعرفون ذلك المكان المهيب كما تعرفون رئيسه وغالبية أعضائه بل إنني شاهدٌ على ما يكنوه لكم من تقدير وإعجابٍ موّقرين، ارتقيت أدراجه وأنا أفكر بمن دخل مثلي إلى معبد القوة والإقدام البريطاني هذا، الاستقبال الذي حُفيت به كان ودياً ودافئاً بل وأكثر. في بادئ الأمر، استمعنا لمحاضرةٍ حول القضية دائمة الجدل وهي منابع النيل، في غضون عشاءٍ خفيفٍ تم تقديم السمات الأكثر تميزاً في مغامرة المتوحش الأبيض في جوٍ يسوده الهدوء الورع، طُرحت بضعةُ أسئلة تبرهن عن نوع الانتباه الذي يعيره الضيوف. كشف المخاطب الأخير في هذه الأمسية المميزة عن المعارف حول العبور من الجهة الشمالية - الغربية. مضت هذه الساعات الأربع كالسحر، كلٌ من هؤلاء السادة من تجارٍ أو ضباط أو مبشرين أو ربّانٍ لفترات طويلة حاز على وقته بالمشاركة ليكشف النقاب عن جزءٍ خطيرٍ ومجهولٍ من كوكبنا، وأبدوا لي جميعاً في تلك الأمسية أنني أشاطرهم المكانة في حين أن مساهمتي الوحيدة ارتكزت على كشف النقاب عن قصة نارسيس إذ وصفت من خلالها الشاطئ الشمالي الشرقي من استراليا والقبائل التي تعيش هناك حياة الترحال، طُرِحَت عدة أسئلة ما كان جوابها بحوزتي. ترى هل كنت جديراً بالإطراءات التي وجهت إليَّ؟

في الصباح وقبل أن استقل القطار إلى دوفر حيثُ أنهيتُ رسالتي

هذه أفضى إليَّ نارسيس بحادثٍ مزعجٍ جرى خلال المساء، تأهبتُ للتو إذ إنها المرة الأولى بالواقع التي أتركه فيها وحده لقد سلمته لنفسه، كان يتناول طعام العشاء في مطعم الفندق فتبادل النظرات مع شابةٍ على المائدة المجاورة وهي سيدةٌ ألمانية تسافر برفقة أخيها وعمها، فتحدثوا باللغة الفرنسية لبرهةٍ، لا أدري ماذا أسرَّ إليها إذ وافته بعد وقتٍ في غرفته حيث اكتشفت تدريجياً وشومه التي أضافت شعور السيدة بالغثيان دون شك.

قلّد نارسيس عندما أفضى كل شيء للنهاية ما كنت قد فعلته في الأمسية الماضية مع موظفة الغرفة، حيث بحث في جيوبه وقدّم لها بتهللٍ بضع قطعٍ النقدية زوّدته بها من باب الحيطة. أهانها بتصرفه فرمت النقود على رأسه وغادرت غرفته بسرعة وهي تشمته بلفته، سألني:

«ماذا بعد هلّ يجب إعطاءهن المال أم لا؟»

واسيته دون أن أتطرق لشرح سوء التفاهم وأنا أتساءل في داخلي عن سر نجاحاته النسائية لا شك أنه شديد البنية وبقوة شابٍ في الستة والثلاثين من العمر ولكن لا يمكن نعته بالصبي الجميل فيغيب وجهه في موجةٍ حزينةٍ كما أنني ما وجدت تميزاً بهيئته لا بد أن خجله لا يخدمه، لن نعرف سر جاذبيته إلا من امرأة، لعل الميزة الوحيدة التي لمحتها والتي تسبب لي أنا شخصياً بعض الضيق هي نظرته المركزة والكثيفة إذ يزرع عينيه في عيني مخاطبه بطاقةٍ لا مثيل لها محتفظاً بهدوءٍ أكثر كمالاً دون أن يزيغ بصره. هل هذا التصرف الواثق المليء بالوعود والتحفظ هو ما يجذب النساء؟

لم تكن هذه اللطافة المتكلفة أساسيةً، إذ ترددتُ منذ يومين أن أبوح لنارسيس بما أعلمني مختار سان جيل، عليَّ وضع حدٍ لترددي ويجب قبل الوصول إلى فرنسا أن يعرف هويته، كنا جالسين في بهو الفندق فبدأتُ معه الحديث وما كان عليَّ سوى تغييره كثيراً:

- «نارسيس هل تذكر سان جيل دوفي؟

أومأ برأسه موافقاً، أنا أعرف تماماً هذه الإيماءة التي تدل على انتباهه لمحدثه أكثر من فهمه للموضوع.

- «أرسلت إلى سان جيل رسالة لأستفهم عن اختفاء بحارٍ منذ عشرين عامٍ خلت فحصلت على الجواب، اسمك هو تماماً «نارسيس بيللوتي»».

- نارسيس أم بيللوتي؟

- الاثنين معاً. إننا نحمل اسمين، اسمٌ يختاره الأبوين والثاني ينتقل من الأب إلى الأبناء.

- أي نارسيس ابن بيللوتي.

- إذا أردت ذلك. لقد ولدتَ في سان جيل في الثالث عشر من أيار لعام 1825 وكنت بحاراً على متن السفينة الشراعية «سان بول».

كررَ بتأملٍ: «السفينة الشراعية سان بول.»

رنت هذه الأسماء في داخله تاركةً صدىً لعباراته «سيس - تي - ليت - بول» التي قالها منذ خمسة أشهر لكنه لم يعطِ أي تعليق.

ما زال كلٌ من والديك وأخيك وأختك على قيد الحياة وهم في سان جيل، نبأتهم بعودتك هم بانتظارك ستلتقي بوالدك ووالدتك.

- والدتي ماتت.

- كلا يا نارسيس إنها بانتظارك.

- لم تمت والدتي؟

- والدك صانع أحذية في سان جيل، وهو على قيد الحياة ووالدتك أيضاً.

أتى بحركة ما قام بها قط، إذ وضع قبضتيه على صدغيه كما لو أنه يريد تهدئة عاصفةٍ داخله وأغلق عينيه، يا للانفعال لفكرة العودة لمنزل العائلة، إنه أقل مما توقعت.

تمتم دون حراك كما لو أنه يتحدث مع نفسه:

«والدتي، ماتت. رأيتها، لقد ماتت. أنا كنت هناك.»

والدته؟ عن أية امرأة يتكلم إذاً؟ هل يذكر والدته بالتبني إحدى النسوة من المتوحشين والتي اعتنت به؟ ما ذكر قط علاقة تربطه معها ولا كيف عاملوه أولئك الناس هل كان بينهم خادماً أم متخلفاً عقلياً أم نبياً أم أميراً بالمنفى أم وحشاً؟ وهنا أيضاً كان كتمانه مطلقاً عن السنوات التي أمضاها في استراليا فإما أنه لا يرغب بالحديث عنها أو لأنه لا يجد الكلمات ليتحدث عن تجاربه المنصرمة، لا يجوز مفاجأته.

- «نارسيس إن والدتك في سان جيل ما زالت على قيد الحياة وهي بانتظارك.»

بقي منطوياً على نفسه وهمهم كما لو أنه يخاطب ذاته:

- «والدتي ماتت، لقد كابدت المرض لعدة أيام، حرارةٌ مرتفعةٌ جداً، حرارةٌ هائلةٌ في داخلها ثم ماتت.»

إنه عاجزٌ عن الوصول إلينا فهو سجين تجاربه الماضية، لقد كنتُ هنا لأدون ذكرياته وتحولاته لأقدم له يد العون. حاول العثور على الكلمات فقلتُ: - «نارسيس أنت من عرق أبيض مثلي، والدك ذو بشرةٍ بيضاء وكذلك والدتك وكلاهما على قيد الحياة أنا لا أعرف من هي السيدة التي تتحدث عنها والتي توفيت، بيد أن زنجيةٌ من استراليا لا يمكن أن تكون والدتك الحقيقية وإذا اعتنت بك من باب العاطفة وساعدتك أثناء إقامتك بينهم فبإمكانك القول «والدتي بالتبني» أو «والدتي السوداء»».

عند هذه الكلمة حدجني بنظرةٍ حانقة مليئةٍ بالحقد فكففت عن الكلام حتى خلت للحظة أنه سيقوم بضربي. ما رأيته البتة بهذا الغضب الذي يكبحه بضعوبة وبغموضٍ وكنت له الهدف، أشاح بنظره عني وكأنه لم يعد يطيق رؤيتي أو كأنه خياره الوحيد لقمع العنف الجسدي فالتزمت

الصمت ولم أوتِ بأية حركة دون أن أفهم ماالذي جرى وبماذا تفوهت حتى أخرجته عن طوره هكذا.

ثم خبأ رأسه بين يديه وأجهش بالبكاء بتنهدات صامتة طويلة، آلمتني هذه الدموع التي كنت سببها أكثر من الألم الذي كان قد وجهه إليَّ بالضربات التي أمسك نفسه عنها. ماذا عليَّ أن أقول لئلا أضيف سوءاً لاضطرابه؟ فانتظرت.

في نهاية لحظة بدت لي لا نهاية لها، وافاني الحارس ليخبرني أن العربة التي ستصطحبنا إلى المحطة بالانتظار، لا بد أنه ظن أننا علمنا بوفاة أحد أقربائنا عندما رأى كلانا. نارسيس يبكي وأنا بهيئة حزينة قاتمة جداً. وفي الحقيقة إننا نحضر حداداً لامرأة متوحشةٍ من استراليا أجهلها تماماً بحياتها وبوفاتها.

لماذا لا يكلمني نارسيس أبداً عن إقامته هناك؟

صدقوا سيدي الرئيس....

7

أين تعثر المرأة العجوز على الماء؟

ما من ساقيةٍ تسيل في الخليج الدائري ولا في خليج الشمال رغم ذلك فهي تعود إلى المخيم بقربتين ممتلئتين، جاب برفقة القبيلة هذه الغابة المسطحة والجافة وما عثر قط على ماء على السطح عدا البركة، إن الماء في القربة موحلٌ بعض الشيء ويترك في الفم طعماً قابضاً من الغبار والصوّان: ترى هل تحك الأرض بيديها أم بحجرٍ أم بعصا لينبجس ماءً آسناً؟

الماء هو المفتاح ولا بد أن ينتزعه من المرأة العجوز.

راقبها ليومين متواصلين إذ كانت تلج الغابة عشرات المرات باليوم، عندما لا يطول غيابها تعود بأعشابٍ ودرناتٍ أو بحرباءٍ وعندما تحمل معها قربتين فارغتين تغيب لأكثر من ساعة.

لا يهمه كثيراً كيف يعثر على الماء على بعد نصف ساعة من الخليج الدائري، يبدو له العثور على الماء على بعدٍ منطقي من الشاطئ أكثر أهمية. عليه أن يتعلم كيف يعثر على الماء في هذه المناظر الروتينية.

ما إن رآها تمسك بالقرب حتى شرع باللحاق بها على بعد بضع خطوات، يبدو أنها لم تلحظه، سار بخطٍ مستقيمٍ كما بدا له ما بين هذه الأشجار المتشابهة على طول ربع ساعةٍ من الوقت ثم جلست المرأة العجوز على الأرض وقام بالأمر نفسه على بعد عشرة أمتار منتظراً قرارها بالمغادرة من جديد، ما تركها تغيب عن ناظريه في ظل نباتات الحراج

الفضي. قحطٌ بماءٍ آسن في براميل الكبيرة في سان بول تسبب بإبحارهم حول استراليا ودفعه لكل هذه المصائب. هناك في جاوا، حيث لا بد أن يبحروا للبحث عنه، يتلذذ أصدقاءه بالنبيذ السيئ وبالبيرة الهولندية وماء جوز الهند وعصير الفاكهة ذات الألوان المتعددة التي رآها في أسواق الكاب في العام المنصرم في سيلان. الماء الرقراق كان حلمه الوحيد ما بين كل هذه الطعمات الممتزجة. في منزل والديه، يشرب من مياه الآبار طيلة العام، يتوق للدلو والحبل والبكرة....

إنه يرى نفسه بصورةٍ واضحة صبياً فخوراً بحمل الدلاء إلى والدته للطهو والجلي.

عاد بعد لحظات للواقع ليكتشف أن المرأة العجوز لم تعد هنا، لا بد أنه شرد بذهنه لبرهةٍ اختفت خلالها. لابد أنها ليست بعيدةً قفز إلى الأمام ثم ركض في كل الاتجاهات بيد أنه ما تمكن من العثور عليها رغم كل ما ضربه من أقسام ورغم حماسه الشديد على التجوال في الغابة المشجرة برمتها وما عثر حتى على دليلٍ ضئيل على وجود الماء. هام عبثاً في أرجاء الغابة وأدرك أن تجوالاته ودوراته العشوائية ستفضي لضياعه تماماً فعاد على عقبيه متجهاً نحو الخليج الدائري والمخيم.

كانت العجوز جالسة هناك بقرب قربتين ممتلئتين، لا يبدو أنها لاحظت وصوله لحق بها ثلاث مراتٍ وغابت عن نظره ثلاث مراتٍ رغم تغييره للخطة.

عليه أن يقنع نفسه أن هذين اليومين مرا دون فائدة إذ أدرك بُعد الماء كما أدرك أن العجوز ولسببٍ غامض لا تدلّه على المنبع.

احتضن المساء الخليج الدائري فجمع الأصداف برفقة «واياك» والذي ما عاد يفارقه وتناول بعضاً من المحارات النيئة ريثما يضرم الشبان نار الموقد، بينما كان يعبث بالمحارات عثر على لؤلؤة بيضاء غير منسجمة، تأملها بمشاعر متخبطة بعد أن غسلها، لم تكن هذه اللؤلؤة

ذات قيمة كبيرة بيد أن بياضها الناصع وكبرَ حجمها وتكوينها الجيد جعلا منها قطعاً نقدية بعد التفاوض في أي ميناء في العالم. منذ شهرٍ فقط، كان لهذه الهدية المفاجئة وقعها إذ يدسها في جيبه منتظراً الرسو القادم، لكن هنا ... لا جيب لديه فهو عارٍ تماماً وما من مفاوضٍ في الأفق، فلا وزن هنا لا للؤلؤة كبيرةٍ ولا لتبرٍ ذهبٍ ضخم فلن يقايضها أياً من المتوحشين على قطعةٍ من اللحم ولن يخطر لأية امرأة هنا أن تتحلى بها فهي ليست سوى زائدة فطرية في المحارة أو لعبة «لواياك». رماها غيظاً على الرمال بعيداً عنه.

مضت خمس دقائق فهرع كالمجنون ليبحث عنها بشوق، حالفه الحظ بأن عثر عليها بالكاد تغمرها الرمال. رميه للؤلؤة يعني أن لا أمل بإنقاذه، بل سيتم إنقاذه وسيبحر معها ومع عددٍ أكبر فلا بد أن محارات الخليج تخفي لآلئ أخرى لابد من العثور عليها وإيداعها في مكانٍ آمنٍ، فتخيل نفسه وهو يصنع مستودعات من اللآلئ في كل خليجٍ فإذا وافته النجدة لا يذهب بأيدٍ فارغة حتى إذا ما هرب سيراً على الأقدام أو عبر البحر لا يتركها فهي لا تزن شيئاً. تتوسط الخليج الدائري صخرةٌ ضخمة كمعبدٍ صغيرٍ فتشها في كل اتجاهٍ ليعثر في الوجه المعاكس للبحر وأمواجه تجويفاً يُمكنُه من غرز قبضته ففرشه بحجارةٍ صغيرةٍ وأعشاباً يابسةً تعلوها اللؤلؤة، هذا التجويف سيشكل صندوقه. قلّده واياك فأودع بحذرٍ بعض الحجارة في حفرةٍ تساويه بالطول.

لؤلؤة.... عقد من اللؤلؤ؟ إنه يتوقع أن يضم مخبأه ثلاثين أو أربعين لؤلؤةٍ بيضاء متشابهة بتألقٍ تام تزين رقبة أميرة.... ولن كلا، هذا مستحيل كم محارةٍ عليه أن يفتح؟ كم يوماً ويوم عليه أن يخيم في الخليج الدائري؟

لآلئ بعدد حبات الساعة الرملية تشير ببطءٍ لا محدود عن مرور الوقت.. لعله لن يعثر سوى على هذه اللؤلؤة فخلال عدة أيام على الأكثر ستظهر سان - بول سيبحر مع لؤلؤته ولن يبيعها، سيلفها في الصين أو في

عدن برباطٍ جلدي ويقفلها بقفلٍ من الفضة ويقدمها إلى أخته. اشترى في الكاب من تاجرٍ هندي قماشاً بنفسجي اللون متموجاً بخيوطٍ ذهبية خبأه تحت ملابسه في خزانته على متن السفينة. كم ستبدو جميلةً بهذا الخمار وهذه اللؤلؤة النائمة على عنقها، كم سيفتخر بأخته؟

سيحيط بها العشاق وستأتي اللحظة المناسبة لتقول نعم لشابٍ جدي و تحيا معه سعيدة معه طوال حياتها وتبقى اللؤلؤة غافية على عنقها لا يعرف أحدٌ حكايتها.

القماش على متن سان بول وهو على هذا الشاطئ. عندما يموت أحد البحارة في البحر يتقاسم زملاؤه ثرواته البسيطة، ترى هل فتحوا صندوقه وبعثروا على الجسر ملابسه البحرية وقبعته وجواربه ومشطه وقدح القصدير والموس؟ هل اختار القدامى أولاً ما يهمهم؟ من الذي نهب قماشه البنفسجي بعد أن فك ورقته الحريرية معجبين بما تسوق من الكاب؟

الرسالة السابعة

سان جيل سورفي 16/ آب / 1861

سيدي الرئيس.

وصلتُ باريس فاستقبلني كلماتكم التي تخبرونني بها بأن عليكم الذهاب إلى مقاطعتكم عشرة أيامٍ تقريباً للبتَّ بقضيةٍ عائلية، تمنيت لو كان بوسعكم البتَّ بها دون سفرٍ، على كل حال هذه مجرد أمنية. خاب أملي بسبب هذا التأخير وكذلك نارسيس بيد أن صبرنا لخمسة أشهر هوَّن علينا صبراً لأيام.

وصلتنا رسالةٌ أخرى من سان جيل تحمل في طياتها خبر الضاحية التي تنتظرنا قاطبةً بفارغ الصبر؛ إذ زفَّ المختار الخبر السار لعائلة نارسيس، بعد أن أثلجتُ صدره بشرحٍ وافٍ عن حكاية نارسيس. بناءً على هذه الرسالة قررت قلب برنامجنا واصطحاب نارسيس لحضن أهله أولاً.

قبل كل شيء سأروي رحلتنا إلى لندن. غابَ نارسيس طيلة النهار تقريباً في بحرٍ من الحزن والدموع في الوقت الذي كانت فيه سكة الحديد تجوب الريف الانكليزي، جثم الهدوء المطلق ثقيلاً بيني وبينه. كان الطقس ماطراً في دوفر والبحر هائجاً، رغم ذلك رغب نارسيس بالتجول خارجاً في الكوثل الخلفي للسفينة وكان عليَّ أن أرافقه، خشيت للحظة أنه ما اختار هذا المكان إلا ليرمي نفسه في ألسنة الموج فيلقى الأبدية

المنسية. بل خشيت أيضاً أن يكون وجوده بقربي أسوأ من حياته التي كابدها في استراليا. وإذا ما عزم حقاً على الانتحار فبأي اسمٍ سأمنعه؟ ومن أنا بالنسبة إليه حتى أدعي القيام بذلك؟ ليس سقراط حراً أكثر من نارسيس ويمكنه تجرع سم الشوكران لو أراد رجوت فقط أن يوافق على الاستمتاع بنكهة انضمامه إلينا من جديد. وصلنا إلى «كالي» مبللين تماماً وساكنين نوعاً ما بعد أن أنهى تأملاته المعتمة بين تدافع زوابع الأمطار والموجات الضخمة. غالباً ما لاحظت أن احتكاكه بالطبيعة ترياقٌ يشفيه من كل آلام الروح. بين مرجٍ ونهرٍ وبستانٍ ومصب نهر بل إنه يسكن بهدهدة البحر ويغفو ألمه في نسماته.

كان هذا الهدوء العائد ضرورياً لنا في «كالي» إذ صادفنا محققٌ بالشرطة كثير الشك ومحدود التفكير، أراد التحقق من وضعه بعد أن رمى باحتقارٍ تقرير قاضي الجالية في سيدني دون أن يلقي عليه نظرة، قائلاً: «لن يعرف قاضياً انكليزياً تسوية وضع فرنسي بشكلٍ قانوني». كما أوضح أن البحار «بيللوتي» الذي مضى وقتٌ طويلٌ على آخر إبحارٍ له لن يتمكن من تقديم سجله كبحار وهذا ما يشكل مخالفة من الدرجة الثالثة كما شكك بأن يكون هذا المجهول ذو الملابس المبللة هو «المدعو بيللوتي» أم شخصٌ آخر انتحل شخصيته؟ أولاً شرحت له بهدوء ثم أضفت بعضاً من الغضب على كلامي وأنا أوضح له بأنه ناجٍ من سفينة غارقةٍ على شاطئ عدواني حيث استقبله المتوحشون لثمانية عشر شهراً طغت همومه على هم وضعه الإداري أما بالنسبة لسجله الثمين فلا بد أنه ومنذ زمن بعيد قد أصبح طعاماً للأسماك. ولكن ماذا بعد؟ لم يكف هذا الأحمق بل أضاف سائلاً عن وثيقةٍ من القنصل تقرَّ بضياع الباخرة؟ ثم من أكون لأجيب عوضاً عن البحار «بيللوتي» أو من ينتحل شخصيته؟ كما طلب ألا أتدخل في قضيةٍ لا تعنيني لا من قريب ولا من بعيد وأن يتبعه المشتبه به إلى المركز في غضون ما يلزم من وقتٍ للاستفهام عن وضعه.

يا له من شيطانٍ فأمن الإمبراطورية لا يسمح بدخول كائن من كان متذرعاً بأسطورةٍ مضحكة...

لاحق البحار «بيللوتي» هذا الحوار بعينين جاحظتين ملتزماً الصمت، آمل أنه ما فهم شيئاً بيد أني غير مقتنع. تعالت النبرة فيما بيننا وهو يتذرع ببعض مواد القانون وأنا أجيب مستنداً على علاقاتي الرفيعة ومبادئ حقوق الإنسان. أحاط بنا مسافرون ساخرون وعلقوا على المشهد. كنت مصراً ألا استسلم فإما أن أخرج برفقة نارسيس من الباب الكبير أو أن توضع الأغلال بأيدينا كلينا. وضع محقق شرطة «كالي» حداً لهذه الضجة في مكتبه عندما أصاخ السمع لقصتي وقرأ رسائل مختار «سان جيل» فأعطى نارسيس بطاقة مرور ذات صلاحية.

نزلنا في باريس في الفندق الكبير وقضينا ثلاثة أيامٍ سوَّيت خلالها بعض القضايا الشخصية الملحة بعد غياب دام لأكثر من ثلاث سنوات عن مسقط رأسي بعدها رتبت أمور السفر إلى سان جيل.

استقلينا القطار إلى «أورليان» الذي لم يكن قبل مغادرتي لفرنسا ثم وعلى عجلٍ إلى «بوايتي» وأخيراً وبسيارةٍ رديئة وصلنا إلى «الروش» و«سان جيل» حسب الموعد المتفق عليه.

لا تستحق الأعياد المقامة في سان جيل كثيراً من الوصف إذ تنقصها الأبهة والمشاعر النبيلة، بيد أني فهمت أهلنا الطيبين في منطقة ڤاندي من خلال قوس النصر المطلي باللون الأبيض وعبر كلمات خطاب المختار والألعاب النارية التي أضاءت سماء المنطقة بين انفعال الجمهور وتصفيقهم ودموعهم والأغاني التي يصدحون بها، وإذا ما راودنا الخيال الغريب قد يشكلون موضوع دراسة حقيقي عن نارسيس ومغامرته.

استمرت مراسم اللقاء لفترتي بعد الظهر والمساء وقد تنحيت جانباً لحضورها. مختار سان جيل رجلٌ فائق الذكاء كما أنه فذٌ وفعَّال، أزاح عن ضميره عِبء إقامتي بأن استأجر لي غرفةً عند الخوري بما أن منزل

«بيللوتي» مكتظّ حقاً فهو يضم الأهل والابن الأكبر و زوجة الابن وثلاثة أطفال. ما اقتصدت أبداً في انتقاء زيٍ لائقٍ لنارسيس، زي سيد من المدينة ينتعل حذاءً جلدياً مميزاً، في حين كان الجميع ينتعلون قبقاباً حتى والده حذّاء المَنطقة، لئلا يظن أحدٌ ما أني أهملتُ من عهدت به. سادت الدهشة على وجوه مستقبليه كما لو أنهم بانتظار اليافع ذي الثمانية عشر عاماً الذي غادرهم منذ زمن، انجرفت والدته إليه بطوفان دموعٍ وضمته إلى قلبها لقد تعرفت على صغير العائلة.

لمحت للتو دون أن أتفاجئ أن نارسيس لا يشاطرهم لا البهجة ولا الانفعال بل انسجم معهم من باب اللباقة وليلعب الدور الذي يترقبه الجميع، كان ليلاطف أية سيدة أخرى يقدمونها له على أنها والدته. غيابه عن ذكرياته جمعيها في طفولته ونسيانه لأسماء إخوته ولتوزيع غرف منزله ولكل الطرف العائلية دفعه لرمي أجوبةٍ مقتضبة وللارتماء بتصنعٍ في الأحضان التي تغرفه مما خلق طيف انزعاجٍ في اللقاء.

لاحظ المختار ذلك فانتقى اللحظة المناسبة ليقدم لي العائلة ويذكرهم بالدور الذي قمتُ به، مما جعلني في مرمى فضول أهالي منطقة الڤاندي فاضطررت لأجيب على مئة سؤال دفعةً واحدةً. أخبرتهم أني لا أعرف أي شيءٍ لا عن ظروفه على متن سان بول ولا عن حياته التي أمضاها بين المتوحشين. ماذا كانوا ليفهموا لو أني رويت لهم لأثري حديثي مشاهداً من سانتو أو من فيدجي؟ بل ما المنفعة التي قد يجنوها؟

أفضى زمن المعاناة والمنفى إلى النهاية، وهاهو نارسيس بين أحضان والديه مجدداً انسحبتُ أنا والمختار والخوري لنفسح المجال لعائلة بيللوتي بعضهم مع بعض.

الأحد كان اليوم التالي. فاكتظت الكنيسة بالوافدين للقداس الكبير الذي تم على شرف نارسيس، وكالمعتاد أُضيف للقداس «تي دوم» وقدم الخوري باحتفاءٍ للمخلصين صفحةً من لائحة التعميد والتي أُستقبل فيها

منذ ستة وثلاثين نارسيس. افتقدت الحياة عمه العرّاب والذي منحه الرغبة بالسفر راوياً له غزواته تحت حكم نابليون. أما الأشبينة فما زالت على قيد الحياة جالسةً بين عائلة «بيللوتي» في الصف الأول وهي امرأةٌ مسنة متزينةٌ بشريط.

خطب الخوري راوياً حكاية «عودة الابن الضال»، ما أتمكن أنا نفسي من الاستناد عليه، إذ نفى وجود أي شبهٍ بين هذه الحكاية وحكاية نارسيس، فالابن الضال طالب بنزقٍ بحصته من الميراث ثم بذّرها وأصبح صفر اليدين عندها ارتمى عند أقدام والده الذي صفح عنه وأقام وليمةً، فرحمة الله تتسع لأخطائنا. أما نارسيس فهو من اقتحم بشجاعة وعمل بحاراً في وجه العواصف بعيداً عن أهله، فخصه الله بتجارب مريعة خلال ثمانية عشر عاماً من المنفى بين المتوحشين المرعبين، ما يئس قط من رحمة الله وسلّم قدره للرب وتحمل المصائب بكل معنى الكلمة، والله لم ينسَ ابنه مرمياً على الطرف الآخر من الأرض فبسط فوقه يد الرحمة وأعاده بقرب أقربائه، ليجد نفسه اليوم في كنيسة عمادته حتى ولو أنه نسي الصلوات البادئة بكلمات أبونا والمبشرين «الباترنوستر والكريدو»، لكن من عسى يلومه على هذا؟ لا أدري من أين استخلص الخوري تأملاته اللاهوتية، ثم انفرد بنارسيس لحديثين طويلين. لم أجرؤ إخباره بأن نارسيس لا يدرك مفهوم الخوري وإنما يتقن أن يقدم لكل شخصٍ الصورة التي يترقبها دون دوافع ماكرة، بل دون قصدٍ، بل ربما لن يقول للخوري ما يأمل سماعه رجلٌ قديس.

القدّاس انتهى وأُتبع بوليمةٍ في الهواء الطلق شارك فيها نصف السكان تقريباً وما زال نارسيس يعطي انطباعاً بأنه غائبٌ حاضر.

انضم إليه ثلاثةٌ من أصدقاء الطفولة وهم يهنئونه على السلامة ويبدون إعجابهم بالوشوم، كما ذكروه بأنهم شكلوا رباعياً من الصبية التافهين قساة القلب لنهب التفاح واصطياد طيور السمنة. لكن من هم

بالنسبة إليه اليوم؟ من هو جوليان وماتيو وبيير الذين شكلوا عائلةً وورثوا مهن آباءهم. دهشوا كثيراً وهو يرفض لمس كأس النبيذ الذين ما انفكوا يقدموه إليه.

رافق الجميع نارسيس إلى منزله بعد أن انتهت الوليمة بين ترانيم الكمان والمزمار.

جمعتني أوقاتٌ مهمة في فترة بعد الظهر بلقاءات دبلوماسية مع الأب «بيللوتي» و الخوري والمختار، اجتمعنا بشكل منظم اثنان اثنان أو ثلاثة ثلاثة بصدفةٍ معلومة تماماً ناقشنا خلالها مصير نارسيس، ثم جمعتنا محاضرة بعد العشاء على مائدة الخوري حيث أسهب الحديث. شجعتني في البدء فكرة أن اجتمع معهم وأنا لا صلة تربطني به. حتى المهمة التي أوكلها إليّ حاكم «جال الجديدة» في الجنوب أو بالأحرى واجبي سيحط الرحال هنا بعد سفرٍ أخيرٍ إلى باريس لأقدمه لكم.

لا بد أن توضع رؤية الأمور هذه للنقاش بعد أن أوصلوا لي أفكارهم بانتقاءٍ دقيق للمفردات وتأجيلٍ لعبارات وعبر أقوالٍ وبالرجوع للماضي. تأصلّت في عادة خلاصي «إيزير» فما استطعت التأقلم مع هذا البطء بل كان عبثاً تسريعه. بالحقيقة، أية حياة هذه التي تنتظر نارسيس في سان جيل؟ ما عاد له مكانٌ بما تحمله الكلمة من معنى في منزل العائلة، طبعاً سيجد له طبقاً من الحساء ليتناوله وزاويةٍ ليرقد فيها في مستودع الحصيد ولكن كيف سيعيش ومن أين له المردود؟ فورشة الأحذية بالكاد تكفي الأب والابن البكر، كما أنهما يزرعان بعض قطعٍ من الأراضي ويربيان بقرةً وبعض الأغنام، ونارسيس ما عاد يعرف سحب المثقب ولا حلب البقرة، و لا جز الصوف ولا حفر الأرض بالمعول ولا حتى حراثة الأرض ولا قطاف الكرم. ومن ذا الذي لديه متسعٌ من الوقت ليعلمه كل ذلك من جديد؟ حتى ولو تم ذلك فالحقول صغيرةٌ جداً بالكاد تزودهم بالطعام، لن يكون فيها سوى خادم المزرعة وبالطبع لن تقبل به أية فتاة فيها لمسةٌ من الحسن

وبالتالي ستأفل أهمية كل شيء عاجلاً، ولا يجدر بنا استجداء عطف الآخرين.

قلت بنبرةٍ فيها الكثير من الهزل بعد أن أخذ الحديث معالمه بحزمٍ:

«إذاً ماذا بعد؟ هل عليه العودة إلى البحر؟»

صرخ الجميع وأظن أنهم صادقون. فهم يتوقعون أن يحيا نارسيس حياةً بائسة هنا لن يموت جوعاً لكنه بعد أن عاد لسذاجة وجهل طفلٍ فماذا عساهم فاعلين به طفل بعمر 36 عام أو 40عام أو 50عام؟ لم يعد مستقبل نارسيس في سان جيل أفضل حالاً من مستقبله في استراليا أو في عُرض البحر.

كان الكومبارس الثلاثة ماهرون جداً بتقديم الموضوع بأفضل أشكاله بل اكتشفت أن هذا الاجتماع تم تدبيره مسبقاً وبدقةٍ متناهية، ومن باب اللباقة تظاهرت بأنني ما فهمت بسرعة حتى أننا تألمنا معاً بالقدر التعيس لهذا البائس بينما يخرج الخوري مشروباً روحياً من خزانته ليقدمه لنا.

رميت تلميحاً حذراً ما تم استبعاده ما إن أفرغت كأسي، فكان من غير المناسب أن نصل لنتيجة في هذه الأمسية فأدركوا أنني فهمت وتمنوا لو أغادر مع نارسيس من جديد، مع العلم بأنه سيرحب بنا دائماً في سان جيل وأكد الأب «بيللوتي» أن نارسيس سينال حصته كاملةً من الميراث.

على كل حالٍ، لا شيء يدفعنا لاتخاذ قرارٍ في هذه اللحظة علينا أن نراقب تطوره فلم تؤرخ عودته إلى عالم ذوي البشرة البيضاء سوى خمسة أشهر وعودته إلى فرنسا وإلى سان جيل منذ ليلة أمس فقط. أخبرتهم بلقائنا الهام معكم فافتخروا به وهذا ما دفعنا للعودة إلى باريس. لا شيء يدفع للعجلة.

بغض النظر عن ردة فعلي الأولى فليس بوسعي أن أعتبرهم على خطأ فقد تابعوا حياتهم في غيابه وبكوا خبر وفاته وأمضوا من دونه ربيعاً وخريفاً. بالنسبة للأب بيللوتي فإن نارسيس الصغير ذا الثلاث سنوات

والذي أمضى طيلة النهار في أحضان عمه الغائب يضاهي بمعزته أكثر من نارسيس الكبير العائد مما وراء ستيكسي. افترقنا كأصدقاء طيبين وخرجت لأتسكع في البلدة النائمة في أحضان ليلٍ لطيف. لاح الهلال خلف الكنيسة فمشيت في نوره حتى النهر ثم عدت نحو منزل الكاهن فعثرت على نارسيس جاثياً في حفرةٍ يتقيأ ويبكي، باح ما بين حازوقتين أنه ذهب مع أصدقاء طفولته الثلاثة إلى الملهى وبعد إلحاحهم الطويل منذ الساعة الحادية عشرة صباحاً، قَبِل كأساً من النبيذ ثم كأساً ثانياً وثالثاً ما عاد يذكر وبما أنه قليل الثرثرة ولو كان ثملاً سأم الثلاثة هانئو البال منه، ذهبوا ليرشفوا النبيذ في مكانٍ آخر وتركوه وحيداً مريضاً، مددت له يد العون حتى ينهض ويتدبر أمره وأواسيه، لا لم تكن المواساة ما هو بحاجةٍ إليه، فهو على ما أظن لا يكابد مشاعر الخجل والندم وكأنها مشاعر مجهولة بالنسبة إليه، إلا أنه ودَّ أن يفهم ما الذي جرى فشرحت له أن النبيذ يشربه الناس وهم يقدرونه كثيراً بيد أنه لم يناسبه فأصيب بالدوار وكان له فعل السم في جسده، ما تخيل أصدقاؤه القدامى ذلك، و ما كانوا يريدون أذيته. رأسه يؤلمه الآن لكن غداً سيزول الألم وعليه أن يتابع في زهده فهو يجد نفسه مرتاحاً هكذا، على ما يبدو هدأت كلماتي من روعه فاصطحبته إلى منزل أهله الذين كانوا بانتظاره وانسللت دون أن يراني أحد.

رفض نارسيس سابقاً في سيدني في سجن الحاكم كأس النبيذ الذي قدمه له جندي على سبيل التسلية، ترى هل يذكر ذلك؟

جافاني النوم ليلة أمس في غرفة النوم وأنا أتذكر نارسيس يتقيأ في حفرةٍ على بعد خطوتين من هنا، كما عادت ذكراه إليَّ يبكي والدته بالتبني في بهو فندقٍ في لندن ويدفع هجمات بيل في منزلنا الريفي ويهرب نحو الأعلى في حديقة الحاكم في سيدني ليشاهد البحر من أعلى الجدار، فخطرت ببالي فكرةٌ غريبةٌ: لو أنني أخطأت منذ البداية، فسواء أعجب

الحاكم أم لم يعجبه كان القرار الصحيح استئجار قارب وإعادة نارسيس إلى الشاطئ حيث ولدت هذه القصة؟

فرضيةٌ عبثية بالطبع فمن الذي يطاوعه قلبه لإعادة هاربٍ من السجن إلى سجنه، سجنٌ ضالٌ وقاسٍ لدرجة لا يتصورها عقلُ سجين؟ فبعد أن أمضى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع في عالم ذوي البشرة البيضاء ستكون إعادته هي إلقاءه مرة أخرى في عالمٍ ليس بعالمه، ترى هل سيقوى على نسيان زورق جان بيل وميناء سيدني وما قرأت من مؤلفات راسين بالإضافة لطعام الأوروبيين وملابسهم ثم يعود من جديد وحيداً متوحشاً بشكلٍ كلي مطلق؟ عذابٌ كهذا غير إنساني وهمجي، لا يمكن عبور الطريق الذي سلكه نارسيس إلا باتجاهٍ واحد نحو الأعلى ولا بد أن نذكر دائماً أنه ليس بالطريق السهل وأنه غير مجهز بأي بنراسٍ. هل سيكون أوليساً جديداً وعليه إخضاع ألف مكيدة قبل أن يعثر على إيتاك؟ ولكن ماذا بعد؟ لم يعد نارسيس طفلاً وما وعدته بدربٍ مزروع بالورود.

وماذا يساوي ألم رأسه هذا المساء في مواجهة كل ما تبقى؟

سأقدم لكم نارسيس الثلاثاء القادم وستعطي حكمكم على ما أحرز من تقدم.

صدقوا، سيدي الرئيس....

٨

رافقه والده إلى نانت لإثبات إبحاره الأول واستمرت الرحلة ليومين فتجمدت يداه على حقيبته وتعلقت أنظاره بنافذة السيارة الرديئة التي تقلهم فتختفي المناظر وراءها ببطء، أما والده فقليلاً ما يكلمه إلا ليكرر على مسامعه نصائحاً بالطاعة والحماس في العمل أو ليستفهم عن أسعار ونوع الجلود التي يريد شراءها للورشة.

حضّرت له والدته حلوى يمكن أن تحفظ بشكلٍ جيد لكي يقضم منها قطعةً في المساء عندما يتعاظم شوقه للوطن ثم حضنته طويلاً على غير عادتها. تطرق ذاكرته قصص السفر التي رواها له عمه وهو رامي الرمان في الجيش الكبير وقد جاب نصف أوروبا سيراً على الأقدام قبل أن يصاب بجراحٍ في «أيلو» ويعود إلى القرية، تثبت ذكرياته صحة خياره؛ كثيراً ما تشاجر مع أخيه الأكبر، ما كانت تستهويه لا مهنة الحذّاء ولا خادم المزرعة، لا مستقبلَ له على اليابسة.

استقبلتهما ابنة عمهم في نانت فقدم لها والده الحلوى. سيهزأ الجميع به لو أخرج النوتي الصغير حلوى أمه ليواسي أحزانه. لن يلاقي الحنان على متن السفينة كما اعتاد منذ أن أبحر.

أدهشته البيوت الجميلة وكنائس نانت حتى فغر فاهه بالإضافة للحشود ولأزياء النسوة وأكثر ما أثار دهشته هو منظر الميناء حيث البواخر على مد النظر والصواري منتصبةٌ كالأشجار، وكذلك الطنابر

والحبال والبراميل الكبيرة والرافعات والحمّالين وحزم البضائع وأكوام الألواح الخشبية وبحارةٌ يتحدثون كل اللغات، كان بينهم أول أسودٍ يراه في حياته.

ابتاع له والده من محل الرثاث سروالاً وسترةً بحرية ثم جاء وقدمه لربان سفينة «لافيديل» الذي عهد به إلى مسؤول التحريك، فلم يكن لديه متسعٌ من الوقت في أمسية الرحيل يخصصه لنوتيٍ حديث ووالده الأخرقين، اكتفى بأن دله على سريره الهزاز حيث يرتب أغراضه ثم ذهب يراقب تحميل حمولة السفينة.

كانت فكرة النوم عند ابنة عمه تراوده حين أمره والده بالبقاء على متن السفينة ليمضي ليلته الأولى فيراقب ويتعلم ويجد لنفسه مكاناً بالسرعة القصوى ثم ضم ابنه بين ذراعيه ووضع على رأسه قبعةً دسها في جيبه وغادر دون عودة.

لو أنه صفع المعاون أو تظاهر بالجنون ولعابه يسيل ناطقاً بعباراتٍ مترامية أو لو يرمي نفسه في نهر «اللوار» أو لو كُسرت ساقه لثلاث قطعٍ بعد أن يقع من الجسر المعلّق، أو لو يغطي جسده فجأة بقعاً حمراء ويشرع بالسعال وبصق بلغمٍ أسود أو لو أنه دخل غرفة الربان وأفرغ كل قارورات الكحول. لو أنه وبكل بساطة لحق بأبيه مأخوذاً بهواجسٍ سوداء مجهشاً بالبكاء لهجر هذه الباخرة وكل ما يخصّها، لكن كلا هاهو يتجول فيها بكل اتجاهٍ كأرضٍ جديدةٍ للهو. صادفه قائد المناورات يتسكع يداه في جيبه فعهد إليه بقائمةٍ من مهام تافهة مختلفة - نقل أمرٍ ما أو حمل صندوق وترتيب محتويات خزانة وحمل دلاء وفرشاة ثم تنظيف الجسر - ما عاد بعد اليوم نارسيس بيللوتي بل نوتياً. طبعاً لم يتخطى التخبط بالعبارات التقنية العديدة للبحرية والشراعية فكان تحت سياط التوبيخ. ألم يقابلوا قط نوتياً بهذا الغباء! أدرك أن هذا الاستقبال الذي يقابلون به كل النوتين. باغته الزمن وها هو يتناول حساء العشاء ويرقد في سريره

الهزاز في باخرةٍ على الرصيف، وغط بنومٍ عميقٍ لا تشوبه الأحلام ليسجل ليلته الأولى كنوتي.

في اليوم التالي، أستحوذ عليه الولع بالإبحار فجاب كل مكانٍ، غادر والده ولم يعد. شاهد آخر البحارة الذين أبحروا بوجوهٍ شاحبة بائسة وينطقون كلماتهم بصعوبة. حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر استغل الربان الجزر ونسمةٍ خفيفةٍ فأرخى الحبال. أخبره نوتيٌ آخر أقدم منه بما عليه أن يفعل.

تتالت الأيام والإبحار تلو الإبحار.

كان عليه أن يتخلى عن الإبحار في الكاب، بقليلٍ من الحظ والمهارة فبعد بضع سنواتٍ من العمل الدؤوب وبما جمع بصعوبة من مدخراتٍ كان بوسعه أن يفتح حانةً وكان كل البحارة الفرنسيين في الرسو ليرتادوها بسرعة، «عند نارسيس»، شرفةٌ تغفو تحت الأشجار المرصعة بالسراج، صاحبه ذو مزاجٍ مرحٍ وذو خبرةٍ كبيرة حيث نياطل الخمر الشهية تتراقص بأنغامٍ جوقةٍ صغيرة. في الفناء، أكواخٌ خشبيةٌ يضمُ كلٌ منها فراشٌ من القش وسريرٌ وحوضٌ وشمعدانٌ حيث يقدم السيد «بيللوتي» نشاطاتٍ مع أفضل فتيات الكاب، فتياتٌ يحببن الحياة ويهبن المتعة من منتصف النهار حتى منتصف الليل، في أذنه اليسرى قرطٌ من الذهب الخالص، يزين فانوسٌ أحمر واجهة الحانة، فيذيع صيته سريعاً في كل المحيطات وحتى... حتى لو باءت مشاريعه بالفشل ولو بقي لأشهرٍ وسنواتٍ على قيد الحياة يتسكع في الميناء يترقب قطعاً نقدية زهيدة ويقدم خدماتٍ للمهام الأكثر بؤساً وينتهز الفرص فيغفو في كوخٍ من القش ويغتبط بكسرةٍ من خبز يتصدق بها أحد المارَّة، كان عليه أن يتخلى عن الإبحار ويبقى في الكاب!...

اتجهت سان بول نحو الجنوب - الشرقي بعد الكاب وواجهت عواصفاً ثلجيةً وأمواجاً هائلة فتملكه الخوف لأول مرةٍ في حياته كبحارٍ.

كان عليه أن ينزل إلى عمق السفينة ليلاً مع مثقبٍ ويحفر حفراً في الهيكل فتتسرب المياه الجليدية، ثم يرخي دفة المركب بضربة فأسٍ حينها لن يكون للربان خيارٌ سوى العودة إلى الكاب بقاربٍ بالكاد يُبحر، أو أن تحملهم الرياح وتجرفهم التيارات الأقوى نحو الجنوب إلى جزرٍ دون أشجار حيث يتحدثون همساً وحيث تبني الطيور العملاقة أعشاشها، يصلون إلى جروفٍ من البازلت حيث تتصاعد الشلالات نحو سماءٍ من بارود ثم يجنحون بصعوبةٍ شديدةٍ إلى خليجٍ ليس مذكوراً بالخريطة فيبنون ملاذاً مؤقتاً من حطام «سان جيل» يقتاتون من آخر المؤونة وصيد الفقمات وهم لا يعرفون دوره بخرق السفينة، سيُمضي الصبية الثلاثون مع الأدوات وكل ما قد يحصلون عليه من الركام شهوراً قاسية يتلاصق الواحد بالآخر ليشعربالدفء، يقتصدون بطعامهم الهزيل. في الربيع، تستكشف إحدى البواخر الحوتية أو الفقمية الأميركية أراضي صيدٍ جديدةٍ في بحر الجنوب فيعثرون عليهم صدفةً ويقدمون لهم يد العون فيكدون بالعمل كالمحكومين بالأشغال الشاقة لرحلةٍ قد تطول ستة أشهرٍ ليدفعون أجرة رحلتهم إلى «رهود إيسلند» أو إلى «كونيكستو» فيرسوا جمعياً سالمين وبصحةٍ جيدة. كان محقاً بخرق «سان بول». تنبأ والده له سلفاً أنه لن يلاقي طيباً على متن السفينة.

هذا ما فكر به عند أفول النهار وهو يلاعب واياك برمي الحجارة.

الرسالة الثامنة

باريس 03 أيلول 1861

سيدي الرئيس.

تتلاطمني مشاعرٌ متباينة وأن أخط سطور هذه الرسالة. رغم ذلك تتملكني فرحةٌ عارمةٌ بملاقاتكم في مكتبكم والاستماع لحرارة لقائكم والإطراءات المكررة التي تسدونها إليَّ....

يالسعادتي بأن أقدم لكم أخيراً «نارسيس بيللوتي» وأصغي لكلامكم معه وللأسئلة التي قد تطرحونها عليه بما حباكم الله من نظراتٍ نافذةٍ وخبرةٍ ناجعة.

قد نبدو بالنسبة لكم متصنعين بل سأعترف بأننا خجولين فهذا طبع نارسيس أما أنا فلأنني أعرف حق المعرفة مقام من سأتشرف بمقابلته، سأترقب حكمكم كتلميذٍ أمام معلمه، قد أتخلى عن هذا التحفظ المفرط بطول الحديث الذي دار بيننا.

عادت المعضلة الأساسية لتقف في وجهي وهي ذات المعضلة التي واجهتكم، فنارسيس ما زال متكتماً عن وصف القبيلة التي ترعرع في أحضانها لثمانية عشر عاماً. لم أفهم بعد لماذا يرفض نارسيس الإجابة على الأسئلة المباشرة. من غير الممكن أنه قد نسي كل شيء عن ذلك العالم الذي غادره منذ ستة أشهر وحسب، إذاً فإما أنه لا يرغب بالحديث أو أنه لا يستطيع، لا يجد الكلمات المناسبة؟ بيد أن سرد قصص الصيد والزواج

أو الواجبات والأعياد واليوميات لا يتطلب منه كلمات صعبة. أعتقد بالأحرى أنه أسيرٌ لمشاعر معقدة تتحرر من أعماقه فتقف حائلاً بينه وبين الكلام لست أفهم لماذا؟ سجلتُ بالحقيقة أنه في بعض الأحيان وتحت انفعالٍ قويٍ تفلتُ منه بعض المعلومات القيمة رغماً عنه ربما. سجلتُ كل هذه الاعترافات التي حاولت تحميلها معانٍ هل يأخذ يوماً ما هذا العمل الشاق شكلاً أكاديمياً؟ ما زال من المبكر جداً قول ذلك.

دونتُ منذ اليوم الأول سجلاتٍ هنأتني عليها ووصفت العمل بأنه «حريٍ بالثناء» وهو بالنسبة لي الضمانة على ألا أخترع شيئاً. بالحقيقة محاولة كتابة حياة هذا البائس ستكون قوية جداً أو يُستوحى منها كتيباً للأوبرا الكوميدية.

لهذا الموعد المهم غايةٌ هو الاجتماع العام لجمعية الجغرافيا بعد ثلاثة أيام، لم أهيأ لهذا كما يجب مما جعلني أؤنب نفسي. خُصصت المقاعد الأخيرة للأعضاء المشاركين لحضور عدة محاضراتٍ كبرى وما يتبعها من نقاشاتٍ عامةٍ وليتمكنوا من طرح الأسئلة مرةً أو مرتين، أخال أني أعرف هذا الاحتفال وكبار كهنته وطقوسه كما أعرف أنه من خلال قيادتكم الحكيمة ستكون المناقشات على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية.

سيدهش حضور نارسيس دون شك الحاضرين أو لعله يحبطهم، بل أعتقد أن نارسيس نفسه سيتأثر بفخامة المدرج. أخشى فقط أن يطوّق نفسه بجدار الصمت فأنا أدرك تماماً طبيعته الصامتة. حضّرنا معاً أسئلةً نطرحها ونأمل كلانا أن يتكلم ولو باختصار بما يعطي وجوداً لقصته. ظننت أن شيئاً من السذاجة يكفيني لاعتلاء المنبر وسرد هذه المغامرة بعد بعض التصفيق ثم أرد على بعض المعجبين المحتلين.

لن تصدقوا أبداً سيدي الرئيس كم خفقتم من أوهامي خلال حوارنا عن الشكل الذي ستأخذه الجلسة، حددنا معاً الزي الذي سيرتديه نارسيس وكيف سنفسح له المجال ليتكلم، وكيف سنتدخل للمساعدة. كما حددنا

الخرائط المناسبة التي سنعلقها على الجدران بالإضافة لمدة حديثي الأولى، وأشرت لي أن أصالة هذه المغامرة ستجذب قطعاً حشداً أنيقاً كبير العدد بالإضافة لعدد من الصحفيين. سنسعد جمعياً بالمشاركة كما سنغتبط بكتابة صفحةٍ ذات أهميةٍ تاريخية لجمعيتنا.

جابت شائعة حضور «المتوحش الأبيض» أصقاع باريس حتى ركنت في الصحف. هل ينجحوا بالوصول إليَّ أم لن يسعوا لذلك؟ سيبذلوا جهداً أقل لترجمة حماقات «الديلي ميرور» التي صدرت الشهر المنصرم. تردد صدى هذه المغامرة في الصالونات كافةً حتى وصلني صدى هذه الترهات التي تجعل أي مستكشف كائناً من كان كارهاً للمجتمع.

اجتاح الشارع حشدٌ هائل من الناس ما إن وصلنا إلى المقر بعد ظهر الأمس وكابد حراس المدينة الكثير لصدهم، لم يكن بحوزة أكبر عددٍ منهم بطاقةٌ لحضور الجلسة الأولى وليس لديهم منفعةٌ أصلاً من الجغرافيا. سمح لنا أمين السر الخاص بكم بالدخول من الباب الخلفي وقد باح لنا أنه ما شهدت قط جلسةٌ في الجمعية صدىً كهذا، فبدأت أسرٌّ في نفسي أن علاقتي بدأت تتحصر بهذه القصة أما نارسيس فقد بدا مستمتعاً لست أدري لماذا؟ وهذا شعور قلما تحلى به تم إخبارنا بحضور أشخاصٍ ذوي شهرةٍ مثل ولي العهد شارل إزوناش، والسيد الملحن روسيني، وفخامة السيد الكسندر دوماس الابن، و رجل الأدب «سانت بوف» والعديد من النسوة اللائي ما حفظت أسماءهن بيد أني شاهدت القبعات الكبيرة. فوجئت بكلمتكم الافتتاحية وبنبرتها الهزلية إذا اعتدنا منكم على وقارٍ مميزٍ. قررتم الابتسام في مواجهة هذا الجمهور كبير العديد، على غير المعتاد، مع هذا الحضور الكبير لشخصيات مرموقة من رجالٍ ونسوة فكان خياركم موفق وفق أفضل أصول الأدب إذ اجتذبتم الأنظار واسترعيتم الانتباه ثم قدمت لهم السيد «بيللوتي» الذي جلس على كنبةٍ أسفل المنصة فاستدار نحو الصالة لا يوحي زيُّه ولا هيئته بما هو غريب، توقع البعض لا

محالة أن يشاهدوا تسريحةً من ريشٍ هندي أو قناعاً أو يرتدي جلد حيوانٍ مطلقاً صرخاتٍ مبهمة ويقفز في كل مكانٍ كالقرد. الدرس الأول سيرتكز على لياقته المتواضعة وستخصص فترة بعد الظهر للعلم لا لمشاهدة العروض.

وثبتُ إلى المنبر كمبشرٍ للصوم الكبير إذ يعتلي منبره ليبعث الإيمان في قلوب المخلصين. فاكتشفت من هذه المنصة فخامة الصالة والجمهور الواقف في الممرات فأدركت الحشد الهائل. خلت حتى اللحظة أمام مشهدٍ صباحي على الطريقة الإيطالية بيد أني قبل أن أشرع بالكلام تخيلت أني أقف أمام الهيئة التشريعية مما مدني بجزءٍ يسيرٍ من الشجاعة ثم فكرت باختصارٍ بأخي لويس الذي طمح ليكون يوماً ما عضواً في مجلس بلدية «غرتوبل». لقد هيأتم الحضور بعنايتكم وحملتُهم أنا إلى صمتٍ تامٍ بما وهبتني الطبيعة من صوتٍ جهوري. علّي ردُ المعروف الذي كرمتني به جمعية الجغرافية ثم استهليت كلامي الذي ما اعتمد على الملاحظات واستغرق وقتاً قصيراً حسب نصائحكم التي أسديتم بها. لخصتُ بدايةً ما نعرفه حول استكشاف استراليا وجغرافيتها وبشكلٍ خاص الجانب الشمالي الشرقي والسكان الغربيين الذين يقطنوها ثم تطرقتُ لما قمتُ به للعناية بالمتوحش الأبيض ومساعدته ليعود تدريجياً إلى الحياة المدنية، لعلي أسهبتُ قليلاً بتوضيحي لأسراره النادرة التي تشفُ بعض الأحداث الفريدة حول سلوك المتوحشين ثم اختتمت بروية عن كيفية إثبات هويته وإعادته إلى حضن والديه في سان جيل. نُسج ختام كلماتي مع تصفيقٍ حارٍ تتخلله مناديل النسوة فخالجني شعور النجاح عبر مشاركتي لركنٍ أساسي بهذه القصة. بالكاد رأيتُ نارسيس بيللوتي الذي يجلس أسفل المنصة على بعد مترين ولا يقوم بأي حركة، لعله يبتسم. استعدتم الحديث لتعلنوا أن هذه المغامرة تهيئني لترقيةٍ من عضوٍ مشاركٍ إلى عضوٍ ذي مشاركة تامة. ليتبع ذلك تصفيقٌ مضاعف، فاعتلت وجنتي

حمرةٌ ما كانت حرارة الغرفة سببها الوحيد بل أضف لذلك أنكم ما أخبرتموني بهذا القرار.

ساد الهدوء مجدداً بطرقةٍ حازمةٍ أعلنتم بها بدء المناظرة. هدَفَ أول سؤالين لتحديد بعض النقاط حول إقامتنا في سدني ودور الحاكم هناك، فأجبت بضيقٍ تسببت به الإضاءة القوية للمنبر والتي حالت دون تميزي للمتحدثين المتتاليين.

طرح السؤال الثالث السيد «ر. ب. لوري» الذي ما تعرفتُ عليه بشكلٍ شخصيٍ وإنما قرأت مقالاته حول شمال الكيبك وسكانه الهنود. كان نقده مخادعاً كما تذكرون إذ هنأني بأن كنت «السامري الطيب» ثم ليأسف أنه ما سمع هذا الخطاب من فم الشخص نفسه الموجود بيننا، فأعدت على مسامعهم ما تحققتم بأنفسكم منه وهو أن نارسيس لا رغبة لديه ولا خبرة ليقدم هكذا محاضرة وهنا رمى بضربته القاضية وهي: «كيف تمكنت الجمعية من التحقق أنها ليست بين يدي مخادع؟» سيدي الشيكومت لا أعنيكم أنتم فنيتكم الحسنة ليست موضوع نقاش بل أعني هذا البحار أليس ضائعاً مع طاقم السفينة الذي زعم اكتشافه؟ أليس فارّاً شعبياً من الجيش فوقع على هذه الحيلة الحاذقة ليدخل الأراضي الفرنسية مجدداً بريئاً وبلا نفقة؟

ارتعد الجمهور مذهولين باحتمال الجدال والفضيحة، لا بد أنكم لاحظتم ذلك.

ما كانت صياغة السؤال فظةً رغم فظاظته بتوجيهه لي ولكم.

انشطرت إجابتي لقسمين: أولاً من هذا البحار الفار من التجنيد الذي سيتمكن من اختلاق قصةٍ بهذا التعقيد مع كل هؤلاء الشركاء ومن أجل هدفٍ صغيرٍ كهذا لا بد أن يخطئ في شيء ما؟ ثم ألن يكشفه أحد من ربانٍ أو بحارةٍ جان بيل أو حاكم يونغ أو الطبيب أو الجنود؟ وأنا نفسي الذي راقبته باستمرار منذ الثاني من آذار. كما تثبت الصعوبات التي واجهها

ليتعلم لغتنا من جديد صدقه كما تحققتُ من استغرابه الكلي لمفاهيم بديهية بالنسبة لنا مثل المال والأملاك لم ألمس ما يدعو لهذا الشك بالإضافة للوشوم المؤثرة التي تغطي جسده بالكامل والتي تبرهن صدق روايته بشكلٍ وافٍ.

دوت بين الجمهور عباراتٌ صارخة تطالب «نريد أن نرى!» «صدرٌ عارٍ!» ربما ما كان عليَّ قول ذلك. أما أنتم فقد أدركتم خطورة سير الجلسة العامة إلى جلسة سيرك فذكرتم المخلين بالنظام بدواعي الالتزام بالهدوء تحت التهديد بالطرد.

أما ر. ب. لوري فبدا راضياً بإجابتي.

لم أتفاجأ بسؤال الكولونيل سيباستيان عن آكلي لحوم البشر فاعترفت بصراحة مطلقة أنني ما حصلت على معلوماتٍ دقيقة حول هذا الموضوع بيد أني لاحظتُ أن نارسيس بيللوتي لا يحمل ما يدلُ على كونه محارباً أو مشاجراً وأفسر أذنه اليسرى وفخذه الأيمن الجريحين بما لا علاقة له بمعركة، يؤكد طبعه الهادئ والمتحفظ أنه ما شارك قط بحروبٍ قبلية وطقوس عربدةٍ بربرية تلي الانتصار استشهدت بما قدم من برهانٍ للباقة إنجيلية حقيقية عندما رفع أحد سجناء المؤبد يده عليه فما كان منه سوى تحاشي الضربات دون أن يسعى لردها حتى، وهي عباراتٌ كنت قد دونتها لكم في إحدى رسائلي السابقة ترافق هذا الجواب الأخير باحترام متهكم خصصت به «ر. ب. لوري».

فابتسم الجمهور وما أدركت حينها أنني ومن دون فائدة خلقتُ لنفسي عدواً لدوداً.

وصفت لي مسبقاً السيد دوسوز عندما رافقنا أنه نصيرٌ كريمٌ للآداب وهو يجمعه مدققاً على أدق التفاصيل وما تخطت أبداً بعثاته الأكثر غرابة «كلير مون ميراند».

خاض هذا الأخير جدالاً أساسياً عرفت أنه ملائمٌ رغم أني توصلت

لخلاصات متعارضة تماماً معه، أكد بلطافة تامة أنه لا يشك بصحة هذه المغامرة ثم أشار إلى صغر عمر نارسيس بيللوتي وضعف مستواه الفكري وطرح سؤالاً: هل كان بطلاً أو رجلاً ناضجاً أو ضابطاً أو أي شخص أخر من العالم لينسى كل شيء ويتراجع إلى صفوف المتوحشين الأخيرة؟ أما كان يجد في كنوز ذكائه وثقافته ما يعلمه لهم أو حتى في سلوان الدين؟ هو بدوره يميل لـ «ر. ب. لوري» بأن هذا البحار يحمل ندبات المستوى الأخلاقي المنحل وضعف المقاومة؟ حقاً بقي على قيد الحياة لكنه بقي يتغنى بعبورٍ ذي تأثيرٍ كبيرٍ لسفينة «بونتيك» أو «أوديسا» لقد أمضى وقته في المنفى برفقة أوفيد و هومير....

لقد طرحتُ على نفسي هذا السؤال كما تعلمون ولكن ماذا علينا أن نفعل للبت بهذا حسب منهجٍ علميٍ حقيقي هل يجدر بنا أن نهجر مهندساً على أحد الشواطئ المهجورة؟ ومدرساً في جامعة السوربون على شاطئٍ آخر؟ ورباناً لسفينة حربية على شاطئٍ مختلفٍ ثم نعود بعد ثمانية عشر عاماً للتحقق ممن نجح بتعليم المتوحشين حكاية «بيريت وقدر الحليب» بالإضافة لجدول الضرب؟ فقدت هذه الطرفة التي تشكلت على المنبر نكهتها وتحولت لعجرفةٍ كنت بعيداً تماماً عن الزهو بها. أعدتم إنعاش المناقشة بمهارة فتمكنت من تحديد إجابتي والتي ارتكزت على فقدان نارسيس لدى المتوحشين لما تعلمه في عمر الخامسة عشر عاماً أي مهنة البحار وما اقتصر على هذا فحسب، بل أضاع ما تعلمه في سن العاشرة أو الخامسة من قدرةٍ على الحوار والتفكير بالمستقبل والمفردات الأولية وسُلم الانفعالات، بل وأكثر إذ فقد حتى ما تعلمه في المهد غاب وجه أمه وأسماء إخوته وأخواته والعناصر الأولية للغة. فإذا ما قارنا التربية بمنزلٍ ذي عدة طوابق فإن المعارف التي نوّه إليها السيد دوسوز هي في الطابق الثالث في حين تحطم بناء نارسيس حتى الأساسات لدى المتوحشين. ما غير هذا الشرح قناعة الحضور كثيراً لكن الأسوأ فيما جاء لاحقاً.

لم أتعرف على المخاطب القادم الذي كان قد قرأ كتابي الصغير وهنأني عليه، حيث وصفت «أرخبائل ميلانيزي» في كتابي «مشاهدٌ من المحيط الهادئ»، ولم أذكر من استراليا سوى ميناء سيدني، وافقته بهزةٍ رأسٍ إذ لم يكن لدي أدنى خبرة بمتوحشي استراليا؟ فأكدت له، فأنا ما ادعيت معرفتي بشيءٍ مطلقاً فكانت ضربته التي وجهها صائبةً.

من بين الحاضرين مجهولٌ حضر عرضاً قدمته أمام الجمعية الملكية للجغرافيا في الأول من آب فارتفع صوته بلهجةٍ انكليزية قويةٍ من مقاعد الأعضاء الحاضرين ليدافع عني مشاهداً أن عرضي كان أقل كمالاً بغياب البحار بيد أنه لا يخلو من الدقة العلمية التامة والمنفعة الكبرى فانحنيت لأشكره على هذا الدعم غير المرتقب.

تدخل ر. ب لوري بملاحظةٍ تقوم على أن عُرف الجمعية لا يسمح لعضوٍ مشاركٍ أن يقدم ابتكاراً جديداً من اكتشافاته لجمعيةٍ غريبةٍ حتى ولو كانت جمعية «ذات اعتبارٍ» مثل جمعية لندن. ألغت هذه الملاحظة اللاذعة خلال النقاش ما أناط بي هذا السيد الجالس في آخر القاعة من ثقةٍ كما أفقدتني بعضاً من الحاضرين وما رغبتُ بإقحام نفسي بجدلٍ كلامي.

مهام رئاستكم لا تمنعكم من اتخاذ ذاك الاتجاه وخاصةً أنكم على علم بالشروط التي قبلت من خلالها الدعوة.

خاض السيد «كوليت هسيباس» بالنقاش، وهو على ما يبدو قد ملأ معدته بوجبةٍ دسمة، استهل حديثه بأن ذكرني بسؤالٍ طرحه علي منذ أربعِ سنواتٍ خلت حول إمكانية الصيد في إيسلند فتذكرت ذلك تماماً، ثم سألكم الأذن بطرح سؤالٍ مباشرٍ على هذا «الصبي الشجاع»، كنا قد تفرسنا سابقاً بهذه الفرضية واتفقنا أنه لا يمكننا الرفض خشية أن يرتاب الحاضرون مما يخفيه ولكن يمكنني إعادة صياغة الحديث. بيد أنكم نسيتم هذا التحفظ وسمحتم لصاحب سفينة وقورٍ بمخاطبة بطل المغامرة. ما باح

نارسيس بأسراره لأحدٍ لا لي أنا ولا لكم أنتم ولا لأهله في سان جيل. من يخمن ربما يبوح بأسراره لهذا الرجل الذي يراه لأول مرةٍ وأمام حشدٍ صاخب من الفضوليين؟

- هل أخبرتنا أيها الشجاع هل يعاشر المتوحشون عدة نسوة؟

- نعم، كما هو الحال هنا ....

جوبهت هذه الإجابة بجلبةٍ امتزجت فيها النقمةُ مع اللهو. وعندما تحدثت لاحقاً معه بالأمر فهمت سوء التفاهم الحاصل إذ شرح لي نارسيس فكرته وهو يعد على أصابع يد النسوة اللواتي عاشرهن: السيدة الانكليزية في ستراتمور ونادلة الغرفة والألمانية في سافوي وعشيقةٌ باريسية جديدة منذ ثلاثة أيام وهي مغامرة ما اكتشفتها بعد. إنه لم يقحم نفسه في جدالٍ عن تعدد الزوجات، ظن الحضور أن نارسيس تلقى السؤال من جانب طرفةٍ لا أخلاقية في حين أنه لا يدرك لا الطرائف ولا السلوك الأخلاقي.

بعثت لكم ببطاقة اقترح عليكم استراحةً أو حتى إيقاف جلسة ولكن عبثاً حيث طلب ر. ب. لوري الحديث:

- «يا بني. أخبرنا ماذا كنت تأكل عندما كنت هناك؟

- سمكٌ ولحمٌ ومحارٌ...

- جيد جداً، شيق جداً. أخبرنا عن الديانة التي كان المتوحشون يمارسونها؟»

قلقتُ من دخول أبونا المحترم بعلم اللاهوت فما تجرأت أن أسرد موعظة الخوري في سان جيل، يتطلب الأمر شرحاً وافياً فغمغمتُ أن السؤال المطروح مبهمٌ. وفي الواقع فإن نارسيس لم يجب.

- «سأقول بشكلٍ أبسط. هل لديهم عبادة أجداد؟ أرواح؟ آلهة صيدٍ أو آلهة مطر؟ آلهةٌ للصحة الجيدة؟ للشمس؟.

كلمة عبادة بالنسبة لنارسيس مبهمةٌ مثل كلمة الدين فما تفاجأت

برؤيته يتمتم ببطء: «الشمس....» فهو يردد كالصدى آخر كلمة يتفوه بها مخاطبة على سبيل الأدب فلا يدع الجملة دون إجابة ولكنه هنا كرر كلمة «شمس» لعدة مرات بلهجةٍ مقتنعةٍ لم أعرفه وكأنه غائبٌ عن كل الجلسة ثم نهض.

دُهش المخاطب أيضاً بردة فعل نارسيس وبما أنه جالسٌ في الصف الأول، توجس خيفةً من أن يرفع نارسيس يده عليه رغم كل ما كررت أنه مسالمٌ جداً. ثم استدار نارسيس وحدَّق في عيني وقال بصوتٍ قوي:

«نارسيس بيللوتي»... «الشمس»

ماذا يريد أن يقول؟ وماذا يود القول لي حصراً؟

استفهمتم مني عن تصرفه فما كان مني سوى أن أقرَّ جهارةً أني مافهمت شيئاً فأثارت صراحتي بعض الاستهزاء.

نهض ر. ب. لوري بدوره واقترب من نارسيس:

- «جيد جداً، شيقٌ جداً رغم أنني لم أتوصل لنتيجة. دعنا نحاول بشيء آخر، قل لنا كيف يصنع المتوحشون سكنهم. هل يشيدون أكواخاً دائرية؟ مربعة؟ مصنوعة من الخشب أو اللبن أم من سعف النحل والحجارة؟ هل يضم المسكن الواحد عائلة أم أنهم يفصلون الرجال عن النسوة؟ هل يرقدون في كهوف؟ في خيم؟ أم في كوخٍ ثلجي؟»

شلَّ هذا الوابل من الأسئلة نارسيس فبالغ ر. ب. لوري بسلوكه ما إن لاحظ ذلك أما نارسيس فقد التزم الصمت تماماً وأنا ترددتُ بالتدخل خشية أن أزد في حيرته، تابع ر. ب. لوري:

«والأطفال؟ من يهتم بتربيتهم؟ الأب؟ الأم؟ النسوة العجائز؟ وإلى أي عمر؟ هل هناك مراسم لإدخاله بينهم؟ على ماذا ترتكز؟»

لم يؤتِ نارسيس بأي ردة فعلٍ. باعد ذراعيه كثيراً بحركةٍ جعلت رداءه يلف، فاستدار المتحدث نحو الجمهور وهذا ليس من عُرف الجلسات بل ويُعد خطأً:

«من جهتي، سمعت ما فيه الكفاية أو بالأحرى لم أسمع شيئاً، يبدو أن هذا الصبي أبله، لا يمكنه أن يضفي على معارفنا حول استراليا شيئاً يُذكر. سألتحق بوزراتي في الكيبك حينها سأتحدث كل مساءٍ مع هنديين مسنين بلسانٍ حالهم عندها سأدون أسرارهم وأتوصل لوصف طبائعهم الغريبة جداً. إن السيد «ڤيكومت» يبتكر وحمل لعلم الجغرافيا فكرةً مميزةً «المستقصي الصامت» كان خطابه الافتتاحي شيقاً ولكن عندما توجهت إلى النبع تيقنت أنه قد نضب ولست أدري إن سال يوماً. أو لعل هذا البائس لا يفضي بأسراره إلا للفيكومت أو لعل هذا الأخير يؤول بموهبةٍ وخيال إيماءات هذا البحار وصمته ليصل إلى ما اصطحبنا إليه ها هنا؟ أليس مخادعاً أخبرونا، ألم يجتز براهين مرعبة لا يود الحديث عنها، سأدعو في صلواتي للرب بيد أني أرفض أن يكون من جمعنا كلنا هنا ذا فائدةٍ للجغرافيا.»

دوى تصفيقٌ في ضوضاء كبيرةٍ في مقاعد الجلوس حيث علّق كل فردٍ على خطاب التقريع. سلمتني الحديث بيد أن هذه الجلبة لم تتح المجال ليصغي إليَّ أحد بل وأكثر إذ أقحم ر. ب. لوري نفسه في حوارٍ طويلٍ بصوتٍ مرتفعٍ مع من يجلسون بجاوره، أما نارسيس فراقب هذا الغموض بنصف ابتسامة يرسمها عندما لا يثق بما يفهم. لا بد أن اعترف لكم باليائس العميق الذي لامسني.

بعد عدة نداءات لاحترام النظام عاد الهدوء وطلبتم مجدداً مني الإجابة وهكذا كنتُ في موضع الدفاع بل كنت متهماً أُبلغ رسمياً بتبرئة نفسه أمام حشدٍ رُسمت ظنونه مسبقاً، فكررت على مسامعهم مرةً أخرى ظروف عودة نارسيس بيللوتي إلى المدينة وصعوبة التعبير التي يواجهها لا بد من التأقلم مع هذا الأمر وإتقان السمع المرهف لكشف النقاب عما يبدر منه من معلومات ذعونا نقل رغماً عنه، في خضم إجابتي نهض ر. ب. لوري وخرج، ثم سار عدة أعضاء آخرين على ممشاه وكذلك بعضاً من الجمهور

الحاضر فطغى صخب الخطوات والكراسي على حديثي الذي أوجزته بفظاظةٍ بعد أن فقد فائدته بوضوحٍ.

ورفعتم الجلسة.

ما اعتدت الخزي يوماً، كلا هذه العبارة لا تحيط بالشعور الذي انتابني بعدم وجود من يدعمني. أردت فقط أن أنوه، بعد الروية، أن سلوك ر. ب. لوري ومهما كانت دوافعه ما كان علمياً وهذا يكفي لتجريده من الأهلية.

هل كانت عبارات نارسيس النادرة صعبة التفسير؟ أليس ثرثاراً مثل هنود الكيبك المسنين؟ هل يجب أن نتوقف هنا؟

يقدم المواطن الشهير «شامبوليون» أفضل مثالٍ إذ تعلم قراءة وكتابة الهيروغليفية بإملاءٍ من مصريٍ مسنٍ، هل تعرفون اسمه؟ هنا تكمن صعوبة اللغز المبهم لكل من سبق ببناء فخرٍ ما. ونارسيس بالنسبة لي هو حجر «روزيت» وإذا كان ر. ب. لوري لا يبذل جهداً لفك اللغز فهذا لا يبرهن بدقةٍ عن شيء، أنا أحلّ الرمز بصبرٍ وبطءٍ وصعوبة إنني على يقينٍ من ذلك.

بدا لي ضرورياً أن أسرد عليكم بالتفصيل كيف كابدت يوم أمس وستدركون إني أرسلتُ نسخةً من هذه الرسالة إلى رئيس مجلس الافتتاحية في مجلتنا ليساعد في تحرير ملخص سينشر في العدد القادم...

صدقوا، دائماً رغم كل شيء، سيدي الرئيس....

٩

تقطّع النسوة السمكة بصدفةٍ من نوعٍ من أنواع بلح البحر الدائري المزرق المحدّب. يستخدمن القسم الحاد الأقرب من المفصل لقص شعر الأطفال ذوي رأسٍ مدهونٍ بخليطٍ من التراب الدهني والرمل.

يستخدمن صدفةً أخرى بيضاء وممدودة كالأصبع وتنتهي بطرفٍ مائلٍ و حادٍ لقطع الأغصان إذ يمسكن بها بحزمٍ براحة يدهن ويضربن من الأعلى إلى الأسفل بضرباتٍ قاسيةٍ صغيرةٍ انتهت بالوصول إلى طرف الغصن الأكثر صلابة، بين الفينة و الأخرى يرمين الأداة المكسورة ويأخذن غيرها. أما لعلاج جرحٍ أو شقٍ صغير فيمررن بلطفٍ صدفةً صغيرةً بحجم زر سترة على البشرة فتخلّف حزاً رفيعاً يسمح فيما بعد بتنظيف الكلم والعناية به.

إنه يراقب النسوة محاولاً أن يفهم، كان يود بالبداية تشذيب ذقنه وحسب فقد بدأت تنمو وتتسبب له بالحكة إذ اعتاد حلق ذقنه مرة بالأسبوع على متن السفينة وما اعتاد البتة أن تغطي وجنتيه هكذا أما الآن فبعد أن راقب النسوة بانتباه وأدرك أي نوعٍ من الصدف سيستخدم وكيف، قام بعدة محاولاتٍ على ذراعه فتسبب بكشطها ثم جهز عجينة بقوامٍ سميكٍ ومرر شفرته البديلة عليها دون أن يلحق الكثير من الأذى. لم يكن أحدٌ يعيره انتباهاً ولا لمحاولاته. رطّب وجهه بترابٍ نديٍ ما إن أتقن استخدام الصدفة حتى كشط وجنتيه وذقنه بعنايةٍ فائقة ومطولةً مخلّفاً

بعض الدماء بين يديه، لو كان بحوزته سكينٌ صغيرٌ سيء النصل لجرح نفسه أكثر. على كل حال ستنظف الماء جراحه وتشفيها. بدا نجاحه الأول مبشراً.

أخيراً استعاد قدرته على القص. بالطبع لا تحل هذه الصدفة محل سكينه المرميّ في مكان ما في الغابة إنه يفتقد إليه أكثر من ملابسه، أهداه والده هذا السكين بعد إبحاره الثاني كنوتيٍ على متن السفينة ليهنئه ببلوغه سن الرشد. و منذ ذلك الوقت ما فارقه ذلك النصل الذي يغفو في غمدٍ من الجلد ويعلقه في حزامه لا على اليابسة ولا في البحر، لا في عمله ولا حتى باستراحته.

سيصنع بنفسه ورشةً بحريةً بعد أن استرجع قدرته على القطع فسيجمع الأغصان و يشكلها حسبما يريد و يشدّها بروابط وأوتاد لصنع قاربٍ شجري ويستخدم أي شحمٍ ليزفته أما المجذاف فهو خشبةٌ صلبةٌ والمرساةُ حجر كبير مربوط بحبلٍ، قد يجابه إبحاراً خطيراً محاذياً للشاطئ ومازال هناك أسئلةٌ كثيرة بانتظار الحل، إن التقدم يلوّح له رغم ما ينتظره من خيبات أمل محتملة.

لا فائدة من التعنت بزهوٍ بعيداً عن المتوحشين لا بد من مراقبتهم في كل ظروفهم واكتشاف أسرارهم لتضاف إلى مهارته ورغبته العارمة بالخروج من هنا وسيسمحون له بتدبر مشاكله الواحدة تلو الأخرى فهي تشكل عائقاً أمام هروبه، لا ضير في أن يكون مستعجلاً أو متلهفاً فالوقت يمضي بالإيقاع ذاته.

دفعه الملل لتشذيب ذقنه وليفهم كيف تتصرف النسوة لقص شعر الأطفال، لا بد أن تمتد إرادته الحارقة من الآن فصاعداً ليراقب بدقةٍ أفعالهم وحركاتهم فيتعلم كل ما يحتاج من مهن، إذ أدرك أن الطريقة أفضلُ من الهدف.

أرغم نفسه على استخدام هذه الصدفة الممتدة على شكلِ فأس أو

منجَر أو بلطة حادة لكي يقطع غصناً ويقشر لحاءه فيصنع منه لوحاً خشبياً سيئاً، كان يحتاج لثلاث صدفات ويدٍ تمسك به عندما تنزلق الأداة ولكنه نجح تقريباً بعد ساعةٍ من الجهد. لو رآه نجارُ سفينة سان بول «السيد ديبوا» الصامت لهَز برأسه احتقاراً ويرمي هذا الوتد المشوّه في القمامة ولكن ليس بوسعه وبهذه الأدوات الهزيلة أن يقدم أفضل من ذلك.

انتابه للتو شعورٌ بأن ضرباته تصيب بدقةٍ وفعالية فليس لديه شيء آخر يقوم به، هل تَعده الألواح الثلاثة سريعة الصنع بإبحارٍ قادم أو تبشر به؟

إنه يتأملها بفخرٍ. قرر أن يستخدمها ليصنع لنفسه كوخاً متحاشياً بذلك إثارة قلق المتوحشين الذين لا يأخذون حذرهم تماماً. فقوّض كوخه القديم أرضاً وشرع ببناءٍ جديد. لقد منحته هذه الألواح نظرةً مليئةً بالأمل. معتمداً على الثقوب الكلسية في الصخرة وشعُب الأشجار حتى توصل لمشروع بناءٍ ذي مسافةٍ تمكنه تقريباً من الوقوف. سخرَ مواد كوخه القديم وبعض أغصانٍ أخرى وسعف نخل ليجهز الشكل على الأقل إذا لم يتوصل لتجهيز سقفٍ وجدران وبهذا توصل لكوخٍ تخترقه الشمس والهواء بيد أنه راضٍ عنه.

أثلج صدره هذا التقدم وأعطى قيمة ليومه، ساعد واياك الذي قرر أن يبني لنفسه أيضاً كوخاً صغيراً بحذاء كوخ نارسيس. ثم ذهبا ليلعبا بالأمواج. كان الطفل يكرر نبرةٍ أميل إلى الغناء: «واياك. أمغلو» ويأتي بحركاتٍ كبيرةٍ ثم يقول واضعاً يده على صدره «واياك. أمغلو». أدرك نارسيس أن «أمغلو» هو الاسم الذي عمّدته به القبيلة، فقطّب وجهه بهزليةٍ وقال «أمغلو. نارسيس بيللوتي، المدعو أمغلو بين المتوحشين.»

كرر واياك «أمغلو» ثم مد يده مشيراً إلى الشمس بقوس دائرةٍ يبدأ في البحر يمتد إلى شاقولية رأسه وينزل عند قمة الأشجار، لقد أشار لحركة الكوكب.

آه. إذاً «أمغلو» هو اسم الشمس؟ هل لأنه أكبر منهم؟ أم بشرته البيضاء تبدو لهم ذات ألقٍ بالمقارنة مع بشرتهم؟ أم لأن قاربه جاء من جهة الشرق فجراً بخط الأفق؟ فقال نارسيس:

«أمغلو! هل تدعوني «شمساً»....»

وهكذا تعرف على كلمةٍ من لغتهم بيد أنه بحاجة إلى المزيد، الكثير من الكلمات الأخرى، فكيف يقولون: أين أجد الماء؟ هيا. أحضر لي ما أتناوله؟ هل هناك رجال ذوو بشرةٍ بيضاء آخرين في المنطقة؟ تعالوا معي إلي سدني....

لكن... لا ... يلزمه أشهرٌ من التعليم ليتوصل إلى الحديث معهم، وهو لا يرغب بالتحدث معهم، لن يبقَ لأشهر، ستعود «سان بول» لا محالة أو أنه سيهرب إلى الجنوب. عاد إلى كوخه فحجل الطفل خلفه أغاظه هذا الوفاء عديم الجدوى فحطم كوخ واياك بعدةٍ ركلاتٍ بقدمه: هيا نم بعيداً. أحسن له هذا الشر المجاني، «حسناً، ماذا؟» نظر إليه الطفل دون أن يفهم.

هتف نارسيس: «هل تجدني شريراً؟!»

«إلا أنكم، جمعياً، شريرون أكثر مني! جمعيكم أشرار، إنكم قذرون ونتنون انظروا إلى أنفسكم، كم أنتم قِصار القامة! إنكم أقزامٌ، أقزامٌ مشوهون، إنكم قبيحون مرعبون ومخيفون. حتى أنت، أنت قبيحٌ كالقرد. إنكم سودٌ وليس سوادكم جميلاً! قابلتُ بإفريقيا أناساً ذوي قامة طويلةٍ أشداء ببشراتٍ سوداءٍ لامعة تقريباً أما أنتم فبشرتكم مغبرّة سوادها كامد، يمكنني القول بشرة بقرة بل بشرة جَعدة لبقرةٍ مريضة. أنتم لا تتكلمون بل تنخرون، لا تبتسمون ولا تضحكون. لا تغنون بل تعوون مطقطقين بأسنانكم، لا تسيرون بل تحجلون، أنتم عفاريتٌ بصقهم كابوس، مهما حلّقنا بخيالاتنا لن نتصور مخلوقاتٍ مرعبة إلى هذا الحد.

أنتم جمعياً أبناء جن، إنكم تعذبونني وتأكلون أشياء وسخة ومقرفة، تحيون عراة ولا يساوركم الضيق أبداً، سرقتم ملابسي وانتزعتم نصف

أذني لسرقة قرط. أنتم حيواناتٌ جشعة وشريرة، أكثر شناعةً من الكبائر السبع. حتى لدى الكلاب رقة وعواطف أكثر منكم، حتى الخنزير! لستم بشراً إنكم أقل من ذلك، لا كلمة تصفكم.

تجرعتُ بسببكم كؤوس العذاب كل يوم وكل لحظة، ولكن ماذا تظنون أنكم فاعلون؟ ستعود سان بول وعلى متنها الصبية الثلاثون ليس ذلك فحسب بل قوارب تجارة أخرى أو قوارب صيد يريدون أن ينزلوا فيكم عقاباً على ما اقترفتم بحقي ثم هناك بواخر حربية فرنسية وانكليزية واسبانية وأميركية. سيطوّق الأسطول شواطئكم، سيحط الرحال فرقةٌ كاملة ببشرةٍ بيضاء مثلي وستفهمون ما معنى هذا. آه. ستكونون أقل مكراً. ستنخرون وتعون وتطقطقون بألسنتكم ونحن بدورنا لن نفهمكم بل سنضحك من هيئتكم المرعبة. لا تعرفون ما هي البندقية ولا الطلق الناري، ستعرفون صدقني! سيطاردكم كل هؤلاء البحارة والجنود الغاضبون في الغابة وسيمسكون بكم ويطوقونكم ويأسرونكم ثم يدفعوكم للسير إلى الأمام بضربات الهراوات لكم جمعياً رجالاً ونساءً ومسنين وأطفالاً.

لن أحتاج إليكم لأحصل على الماء ففي البواخر كل ما يلزم لإرواء الظمأ بل وأكثر، الاغتسال على اليابسة كل يومٍ لو شاؤوا. ولكن ولا نقطة ماء لكم! وعندما تجتمعون جمعياً مكبلين بالأصفاد سيباشرون بقطع آذانكم اليسرى بالمشذب، بالحربة، بالسكين، بالخنجر، سيصنعون كومةً كبيرة من هذه الآذان السوداء ويضرمون النار ثم يقتلوكم جمعياً وببطء، الواحد تلو الآخر ولا تأخذهم بكم رأفة فأنتم تستحقون جمعياً ذلك مئة مرة! سيبقرون بطونكم بالنصول ويبعثرون أحشاءكم على الرمال حتى يتقطر دمكم لآخر نقطة فلا يبقَ على وجه الأرض أحدٌ مثلكم، ستتلوون ألماً وتحتضرون تحت الشمس الحارقة، بل ستزحفون و تتأون وتطلبون العفو فيردون عليكم بركلةٍ حذاء! ولكي يتحققوا من انجاز مهمتهم على أتم وجهٍ

ستفجر السفن الحربية الغابة وسترى. كم يمكنهم الرمي بعيداً، حتى تفرغ مخازن الذخيرة كلياً ولن يدعوا شجرةً واحدةً منتصبةً، ليضرموا النار فيما بعد ويتسببوا بحريق ما شهده أحدٌ قط فيلتهم كل شيء ويبتلع الأفق، نارٌ هائلةٌ فرحٌ باختفائكم!

أما أنا، فسأرتدي على كوثل السفينة بنطالاً من الكتان وقميصاً من القطن ووشاحاً حريرياً وقبعةً من اللبد، آه. إنك لا تعرف معنى الكتان والقطن والحرير واللبد، أيها المتوحش الصغير يا ابن العفريت الأسود النتن، سأصفق بكلتا يدي وأنا أرتدي ملابسي الجديدة الجميلة وأرشف النبيذ الأبيض الشهي القادم من «الكاب» مراقباً الجنود وهم يقتلونكم ويضرمون النار وأطلق صرخاتٍ «هوري... أولا ...» بكل ما أوتيت من قوةٍ وأشجعهم بقولي: «تشجعوا يا صاحِ! المزيد! يجب ألا يفلت منكم أحدٌ! لا تأخذكم بهم هوادة!»

وبعد مضي ثلاثة أيام ستخمد النيران ويلف الدخان أراضيكم اللعينة وتغدو رماداً يبتلع أي أثرٍ لأرضٍ سُكنت، وسنمضي مطمئنين دون عودة.

سأعود إلى فرنسا ولن أبحر أبداً، سأعود إلى منزلي وألاقي أهلي. سأبحث عن عملٍ، سترى أن بوسعي العمل بكد! سأستقر وسألتقي بفتاةٍ جميلةٍ أصطحبها لحفلٍ راقص وأعقد قراني معها في الكنيسة، آه. أيها الشيطان الصغير، أنت لا تعي معنى الكنيسة! سنرزق بطفلٍ بسرعة، صبياً صغيراً وردي اللون ممتلئ القوام وسأضمه بين ذراعي عندما تنتهي والدته من إرضاعه، سنرزق بطفلٍ ثانٍ وثالثاً على الأقل. سألعب معهم عندما أعود مساءً سيقفزون على سريرنا وسأروي لهم عن رحلاتي حول العالم ولن أروي لهم أبداً أبداً أبداً ما جرى هنا، أبداً.

هل تعرف بماذا أرغب في اليوم الذي سأعود فيه إلى منزلي؟ أرغب أن تصنع لي والدتي «حساء الخضار»، بالطبع أيها القبيح القذر الصغير أنت لا تعرف ما هذا! سأحضر من القبو حبات بطاطا طازجةً حلوة كما

سأحضر من الحديقة ملفوفةً شهيةً حلوةً ومقرمشة، ومستديرة قليلاً وكبيرة بعض الشيء بالإضافة للفتٍ أبيضٍ وبنفسجي وبعضٍ من ضلوع الكرافس والكراث. سآتي من إناء التمليح ببعض النقانق الممتلئة الدسمة وقطعة جيدة من شحم الخنزير ورجله وصدر مدخن. سأضع الكل على المائدة وأساعد والدتي بتحضير الخضار، لتطهوها على نارٍ هادئة ولعدة ساعات. ستفوح رائحة شهية في المنزل وسيعرف الجيران ما نطهو على مهلٍ فيمرون لإلقاء التحية. وفي المساء، سأتناوله على المائدة في الحديقة إذا كان الطقس جميلاً أو قرب الكانون في المطبخ. كما سيكون هناك عدة أصنافٍ من الجبن وعناقيد عنب وجوز وقدحُ نبيذ، وعندما يتراجع الجوع فينا سنخرج من الموقد «تارت الخوخ.....»

لم يتفوه طيلة حياته بخطابٍ بهذا الطول، إذ تكلم ليسمع نبرة صوته، ثملٌ بكلماته مدهوشاً بما سمع نفسه يقول. أصغى واياك أيضاً إليه دون أن يؤتِ بأية حركة وحدجه بانتباه وقد نال منه الفزع. التقط أنفاسه. إنه يتحدث عن تارت الخوخ إلى هذا الزنجي الصغير آكل الحرباء.

الرسالة التاسعة

فالومبران، 25 أيلول 1861

سيدي الرئيس،

من خطر له أن تعبد لنا هذه المغامرة طريق البَلاط؟

طلب مني الكومت «مارسيني» وهو الحاجب الأول للإمبراطور أن أقابله. بالحقيقة، أفضت الشائعات التي تعمُّ المدينة وتملأ الصحف بخبر وصول المتوحش الأبيض إلى فخامة الإمبراطورة فرغبت بمقابلته. ما قال لي إن كان على دراية بالجلسة المضطربة في جمعيتنا. انحنيت وقلت: «أنا ونارسيس بأمر فخامة الإمبراطورة.»

فسألني: «أليس خطيراً ولو قليلاً؟!»

هذا هو السؤال المعتاد، فأكدت له أن نارسيس من أكثر أتباع فخامتها وداعةً ووفاءً.

«ألم تكن الكلمة الأولى التي نطقها في سيدني والتي كشفت جنسيته هي اسم مؤسس السلالة الحاكمة؟» «ألم تجتمع عائلته برمتها لإجلال عمه المحارب في الجيش الكبير والذي أُصيب في «إيلو»»؟

شيءٌ ما في أحداق «الحاجب الأول» أوحى لي بأنه لا يصدقني تماماً أو بالأحرى يصدقني دون دليل بيد أن هذه الثقة غير كفيلةٍ تماماً لضمان سلامة «فخامتها». كما أخبرني أخي برسالةٍ منه أن محافظ «إيزير» قد كُلف بجمع معلوماتٍ عن عائلتنا وعني أنا شخصياً بعد

بضعة أيامٍ من ذاك اللقاء ودون تكتمٍ مفرطٍ. لعل نتيجة التحري لن تكون سلبيةً جداً..

سألني: «برأيك! أين وكيف ستجري الجلسة؟»

- «لا أجد نفسي في مكانٍ النُصح لفخامتها أو لمن يجالسونها ولكن لا بد أن أؤكد بأن «السيد بيللوتي» شخصٌ خجولٌ ومرهف الإحساس».

لم يُنعت نارسيس قط بالسيد، فخالجني إحساسٌ غريبٌ بسماعي أنطق بلساني هذه التسمية الرسمية كما لو أنه شخصٌ جديدٌ قد ولد من جديد، ما عاد لا المتوحش الأبيض، ولا نارسيس.

أضفت: «قد تريعه أبُهة البلاط الإمبراطوري فيصمت تماماً، لذا آمل أن يُقدم لفخامتها بحميمية ومراسم متواضعة وقليلٍ من الحاضرين وهكذا سيرتاح أكثر للإجابة على ما تطرحه من أسئلة.»

- حديقةً «كوميبن» أو بالأحرى صالونات «تويلوري» الكبيرة. أخبرني هل يتمكن من سرد قصته؟

- سيسرُ السيد بيللوتي دائماً بإرضاء فضول فخامتها، إنه يعبر ببساطةٍ جداً ويمحص كثيراً في كلماته. إنه لا يدرك أو لم يدرك بعد، دون شك، الطابع الغريب لمغامرته، إنه لا يتقن سردها بيد أنه يجيب على ما يطرح عليه من أسئلة

- هل ستكون عباراته مناسبة أمام فخامة الإمبراطورة وسيدات البلاط؟

- ليس بحاراً سوقياً أو لم يعد كذلك من تشرف بدعوتكم له، لقد عاد كطفلٍ ببساطةِ روحٍ مدهشة وغيابٍ مطلق للمكر والتهكم.

ليس نارسيس براوٍ فخلال ستة أشهر أمضيناها معاً ما علمتُ شيئاً عن إقامته في استراليا، بل يمكنني القول أن صمته يوشك أن يبعث على الضجر؟

بجوارنا يجلس أمين السر إلى طاولةٍ ويدوّن حوارنا، ثم وبعد أن طرح «الحاجب الكبير» أسئلةً أخرى قرر أن «سنستقبل السيد بيللوتي».

وصلنا إلى كومبين بالقطار بعد أسبوعٍ تقريباً ثم أقلتنا عربة خيول إلى القصر لم نتوقف عند البوابة الرئيسية بل دخلنا إلى ممرات الحديقة حيث وصلنا إلى سُرادق خشبي أنيق. قدم لنا الخادم مرطباً، بينما كنَّا نرتشف عصير البرتقالي أوائل خريفٍ رطبٍ كررت على مسامع نارسيس نصائح الوقار التي أعدتها طيلة الطريق.

أقلقني اختيار زيه فالموضة والأناقة سيان بالنسبة إليه. لا يحب الأزياء الخانقة عند الرقبة والرداء ذا الأكمام أو الحزام، لا بد أنه سيعاني لو ارتدى مثلي سترةً وصدارة وربطة عنق حريرية. أصغيت لبعض النصائح عما قد يرتديه في «كامبين» ثم ابتعتُ له بنطالاً من الكتان الأبيض وقميص خام واسع وعقدَ حول عنقه وشاحاً وارتدى سترةً رمادية وقبعةً سوداءً بحواف عريضة. بدا وكأنه رجلٌ هاوٍ للسفن أو بائع خيول عائد من المعرض أو شخصيةً مرموقة من جبال البلقان.

لاقانا ضابطٌ في الخيالة عملاقٌ وعريض المنكبين وقادنا عبر الممرات. سار نارسيس بخطىً ثابتة راسماً ابتسامة تلك التي يعبر عنها في أحضان الطبيعة، حرص دون جهدٍ ملحوظ حتى ودون أن ينظر إلى الأرض لئلا يدهس أوائل أوراق الخريف المتساقطة التي لم نعرها انتباهاً لا أنا ولا الضابط. بانعطافة غيضةٍ شاهدنا ضابطين آخرين لهما الشكل ذاته يقفان خلف المقعد إذ لم يرغب «الحاجب الكبير» بالمجازفة. أما فخامة الإمبراطورة فكانت تجلس مبتسمة بفستانٍ حريري أخضر وشالٍ خفيفٍ أبيض، ضمت قبعة ببياض العاج شعرها، فانحنيت تبجيلاً لها على بعد ثلاث خطواتٍ. قام نارسيس بالانحناءة نفسها بيد أنه وجه احترامه لسيدةٍ كانت بجوار فخامتها بثوبٍ أزرقٍ مطرزٍ بخيوطٍ ذهبية وقبعةٍ صيفيةٍ عريضة الحواف مزينة بريشة طائر «التدرج» فتلقي عليها جبة الوقار.

قالت فخامتها لتزعجها: «بولين لست إمبراطورة بجواري».

فانفجرت الأميرة «ميترنيس»، التي عرفتها من اسمها الأول، ضاحكةً من اللُبس الحاصل تاركةً نارسيس غارقاً باضطرابه.

حييتُ بدوري الأميرة ورجلاً مسناً بدنياً يرتمي في مقعده المريح أعرف أنه «السيد ميريمةً» أما الإمبراطور الصغير فيلهو بطوقٍ تحت رقابة «مدام براوت» مربيته الخاصة، برفقة سيدتين تطرزان شيئاً ما.

قالت فخامة الإمبراطورة: «أشكرك أيها الڤيكومت» على اصطحاب السيد «بيللوتي» إلينا، وعلى إعادته من استراليا إلى فرنسا وأخيراً على اصطحابه اليوم إلى كومبين.»

سألت الأميرة: أيٌ من هذه الرحلات كان لها كبيرُ الأثر عليك؟

استحوذت عليَّ المفاجأة فرميت بإجابةٍ تافهة وحمقاء: «واجبي كان اصطحابه إلى فرنسا واستقبالنا في كومبين كان شرفاً فوق سعادة.»

لعل تفاهة الكلمات المتملقة أزعجت فخامتها فوجهت حديثها لنارسيس:

- «إذاً سيد بيللوتي، هل أنت سعيدٌ بالعودة إلى فرنسا؟

- «أجل جلالتك».

حفظ دروس آداب السلوك أكثر من دروس الحديث.

أضافت: - حدثنا كيف كنت تمضي أيامك خلال السنوات الماضية هناك.

- يذهب الرجال صباحاً للصيد أو لاصطياد السمك، عندما يكون الطقس حاراً جداً يخلد الجميع للنوم. وفي المساء، تحضر النسوة الطعام. و عند هبوط الليل يبدؤون بالغناء والرقص ثم يخلد الجميع للنوم.

كررت مع نارسيس هذه الإجابة مرة بعد مرة وكانت من اختراعي أكثر من نارسيس فقد مثل الآن بشكلٍ جيد ولاقت إجابته استحساناً.

ألقت فخامة الإمبراطورة ملاحظة وهي حالمة: «إنها حياةٌ تلائمني تماماً.»

سألت الأميرة: ماذا كنتم تأكلون؟

فكر نارسيس للحظة، ترى هل سيجيب أفضل مما أجاب ر. ب. لوري؟

- سمكٌ وصدفٌ وحلزوناتٌ و... و... «خانته الكلمة». فقال: «حيوان يطير قفزاً... أخضر اللون..»

قالت الأميرة: عصافير؟

- كلا. أجاب نارسيس.

هتف الإمبراطور الصغير الذي اقترب ليستمع: «ماما، سأحضر كتابي المصوّر!»

ركض لإحضار الكتاب المصوّر في غضون ذلك امتدحت الأميرة نباهته وسرعة بديهته.

قلّب نارسيس الصفحات حتى وصل إلى الحيوان فاستعاد اسمه باللغة الفرنسية وما لحظ أحد أنه لا يتقن القراءة إذ سهلت عليه الصورة استرجاع الكلمة.

فقال: - جراد.

جوبهت الإجابة بهتافِ دهشةٍ وقرف، ثم رمى السيد ميريمي طرفة جذّابة فاتنتي الآن.

- هل كان الطقس بارداً؟

- كلا جلالتك. بعض الشيء ما بين البدرين وخلال الأمطار الغزيرة.

- ماذا كنتم ترتدون؟

- لم يكن هناك ملابس.

تحققت جلالتها من أن أذني الأمير الإمبراطور ما استمعا لشيء وعبرت بابتسامةٍ لطيفةٍ أنها لا تود أن يشهد على مخالفةٍ للآداب تكشف عنها صراحة نارسيس.

- كم امرأة يعاشر الرجل؟

- واحدة. جلالتك.

- واحدة وهل يعاشر غيرها؟

- عندما تهرم الأولى قليلاً يعاشر غيرها شريطة أن يستمر بتقديم الطعام للأولى.

دُهشت لرؤية نارسيس يروي للإمبراطورة حياته بين المتوحشين، طواعيةً في حين بقيت الأسئلة التي طرحها تدور في فراغ الصمت. حصلت جلالة الإمبراطورة على تفاصيل أوفى مما حصل عليه السيد «كوليت هيبسباس» الأسبوع الفائت بأسلوبها الطيب والبسيط و الطبيعي.

تنهدت جلالتها وقالت: «هذا تقليد استرالي يشبه العادات هنا في البلاط.» ثم بدت لها عقوبتي قد طالت بما فيه الكفاية فوجهت الحديث إليَّ:

«أيها الڤيكومت هلّا رويت لنا كيف أنقذت حياة هذا البائس.»

فسردت لها هذه المغامرة من البداية منوّهاً لما لعبته الصدفة من دور ولما قام به حاكم «جال الجديدة» في الجنوب.

فقالت الإمبراطورة: - «لا بد أن نقدم له شكرنا، سأكتب رسالة لڤكتوريا بهذا الشأن»

حنت إحدى السيدات المرافقات رأسها ودونت بضعة أسطر على دفتر ملاحظات، يبدو أنها مسؤولة المراسلات.

أضافت الأميرة: «هل وثقت منذ البداية بصحة الحكاية؟ أما خشيت أن تقع في شرك مزاحٍ سيئٍ؟»

علّق السيد «ميريمي» قائلاً: «ففي باريس، لا يقدم المرء على أمرٍ خشية الخداع.»

فأجبت: - «حين رأيت هذا الصبي البائس في حديقة الحاكم وللمرة

الأولى ما كان يرتدي سوى «وزرة»، ثم إن الوشوم التي تغطي جسده تحكي عنه.

فردت الأميرة: «أليست الوشوم عادة من عادات البحارة؟.

- «أجل مولاتي، ولكن ليست هذه الوشوم فما حُفر على جسده لا يشبه شيئاً نعرفه. لا بد أن رؤيتها تعنيكم.»

وافقت الإمبراطورة على الاقتراح بميلٍ في مروحتها، فطلبتُ من نارسيس أن يخلع سترته ويطوي كم القميص الأيمن حتى الكتف.

تبدأ إحداها من عضلة ذراعه تلف مرتين حول ساعده وتنتهي على ظهر كفه متجاوزةً وشماً طويلاً من مربعات منسقة حفرت قبلها وكأن رسمها تم بقشرة سلحفاة، أما ما بقي من مسافة فغطيت بخطوطٍ مكسورة ودوائر وزوابع تتلاحق دون نظامٍ واضح.

تُبرز الرسوم بالصباغ الأسود جليّاً لوناً أحمراً على الوجه الداخلي لساعده فتكشف عن عشرات الساعات أمضوها لإنجاز هذا العمل.

أمام هذا المشهد الجديد كليّاً، ففرت الإمبراطورة فاها وكذلك فعل جلساءها وحتى ضباط الخيالة، أما نارسيس الذي لم يساوره الغرور البتة، لف ذراه ببطء، أغلق وفتح قبضة يده ليبدي الزينة الغريبة لبشرته

قال الإمبراطور الصغير: «أريد الرسم على ذراعي أيضاً يا ماما»

فشرحت له الأميرة بولين أنه سيتم وخزه بإبرٍ طويلة وثخينة، فترنح قرار الأمير الصغير.

أومأت لنارسيس أن ينزل قميصه ويرتدي سترته فلا يطلبون رؤية الذراع الأخرى ثم ساقيه حيث فخذه الجريح ومن ثم ظهره، رغم ذلك فهذه الرسوم ليست سوى زبداً مما كابده نارسيس، آمل أن تكشف أسئلة أخرى عن جوانب أخرى.

طرحت الإمبراطورة سؤالاً آخراً:

- «ماذا عن عائلتك خلال إقامتك هناك؟»

استدار نارسيس نحوي فأجبت عوضاً عنه: - «والداه وأخوه وأخته ظنوا أنه قد توفي إذ تلقوا إخطاراً رسمياً بوفاته من صاحب السفينة»

- لثمانية عشر عاماً. فكرت جلالتها قليلاً قبل أن تخاطب أحد مرافقيها:

«أيها القائد احرص أن يدرس وزير البحرية لماذا هُجر هذا البائس وكيف سُلم والديه خبراً كاذباً عن وفاته».

ثم عادت بالحديث إلى نارسيس: - «هل التقيت بوالديك من جديد؟»

- «أجل جلالة الإمبراطورة، اصطحبني الڤيكومت إلى «سان جيل سورفي».

- كم كان هذا اللقاء مؤثراً...

انحنيت إذ ما وددت أن تصيب رحلتنا إلى فاندي جلالتها بالضجر.

- كيف كنت في استراليا، كيف كنت تعيش؟»

- في بادئ الأمر، كنت كالطفل لا أتقن فعل شيء. لا أتكلم، لا أصطاد ولا آكل، فاعتنت بي سيدةٌ عجوز وبقيت بجوارها حتى كبرتُ.

فسألت الأميرة: «ولكن كم كان عمرك عندما وصلت إلى هناك؟»

صمت أمام سؤالها الدقيق فتلافيت الأمر قائلاً: - «ثمانية عشر عاماً وستة أشهر، أظن أن المتوحشين اعتبروه طفلاً في بادئ الأمر لأنه ما كان يتقن شيئاً من عاداتهم.»

قالت جلالتها مذهولة: - «كم هذا مثيرٌ للاهتمام! وماذا عن المرأة العجوز، يا صديقي؟»

- لقد توفيت.

- آوه، لقد أدميت فؤادي، لا بد أن الوحدة جثمت في حياتك مجدداً... وماذا بعد ذلك؟

دار سؤالها حول العلاقات التي عقدها فيما بعد، بيد أنه فسر السؤال بشكلٍ مغاير تماماً:

- «بعدها تركناها تحت شجرتها وهجرنا المكان في المساء نفسه ورحلنا إلى مكانٍ آخر في الغابة.

- كيف ذلك؟

- عندما تأتي المنية على أحدٍ نتركه حيث كان إذ لا يجوز لمس الميت ولا سهامه ولا سلاله ولا حتى طعامه. يجب الرحيل دون العودة إلى المكان ذاته خشية حدوث ما هو أسوأ.

كم تخفي هذه الجمل معلومات قيمة! تحصل جلالتها لأنه يسعى لإرضائها على تفاصيل أوفى من أسئلتي الدؤوبة والتي حصدت الرياح.

لابد أن أعترف أني أدركت هذا بقليلٍ من الغيظ وفهمت أثناء كتابتي لهذا المقال أنني كنت مخطئاً بإصراري على أسئلتي وأسلوبي ومبادئي بالتحقيق فنارسيس يتحدث أين ومتى شاء.

لتجاوز هذه المرحلة الحزينة سألت جلالتها: «وأنا يا صديقي هل تعرف من أكون؟»

- أنت زوجة القائد الكبير.

- ليست رؤية سيئة جداً. ثم استدارت جلالتها نحو صديقتها متنهدةً وباحت لها بصوتٍ حالم مداعبةً بشكل عفوي وسادةً مزركشة: «ما رمقتني مذ أصبحت إمبراطورة عينان بهذه الجرأة والقوة، لا قدرة لي على احتمال نظرته».

سادت لحظة ضيق، انتظرنا أنا ونارسيس أن ندعى للحوار مجدداً، فماذا بوسعنا أن نقول بعد ما باحت به الإمبراطورة. ضربت الأميرة بولين بيديها كطفلةٍ لإجلاء هذا السحر وهتفت: «هيا نعزف الموسيقى فهي لغة عالمية. سيداتي أعزفن لنا مقطوعةً ما».

رفعت سيدتان مرافقتان البروكار المرمي على قطعة أثاث فيلوح

البيان منتصباً على منصة صغيرة. أحضرت الأصغر سناً مقعداً وجلست عليه ثم عزفت بكثير من الإحساس بل بفيضٍ من الإحساس مقطوعتين لشوباك.

استمع نارسيس مسبقاً لموسيقانا، ففي قهوة في كالي أصغى لعزف ثلاثة موسيقيين وفي كنيسة سان جيل أصغى للأرغن وفي أحد أكشاك باريس حضر جوقةً عسكرية. أعلم أنه لا يفهم شيئاً من هذا العزف بل ولا يبدي له اهتماماً ولا متعة بيد أنه يصغي بأدبٍ، متوقعاً أن حديث جلالتها معه ما انتهى بعد.

- أخبرني يا صديقي هل كنت تغني في استراليا؟

- نعم. جلالة الإمبراطورة.

- غني لنا إذاً لحناً من هناك علّه يغير الموسيقا المطابقة لذوق العصر.

أقلقني هذا الطلب غير المتوقع، طلبتُ منه تكراراً هذا فلاقى الفشل كما يحصل معي دائماً. ما حضّرنا معاً شيئاً كهذا وأجهل رده تماماً.

أخفض رأسه ولملم ذكرياته وانكب على تنفيذ المطلوب.

كيف بوسعي وصف الأصوات التي خرجت من فيه؟ مواء أو تكرارٌ متقطعٌ لمقاطع صوتية وطقطقةٌ باللسان والأسنان، نخيرٌ يتخلله ترخيم، تصفير..

إنه لا يشبه شيئاً مما يعلموه في «معاهد الموسيقا» أو مما سمعته في حياتي حتى في المحيط الهادئ. لا سلم موسيقي يضبطها ولا انتقالٌ من علامة خفضٍ إلى رفع، في هذه الأنشودة يثبت إيقاعٌ غريبٌ ومحدد أنه غناء، حتى صوته تحول لصوتٍ حنجري مخنوق. اقتحم بستانُ كومبين شيءٌ من فظاظة استراليا وعزلة هجرانه وأوار الشمس على أرضٍ متشققة حتى ارتبتُ من رؤية بعض الغبار الأحمر الدقيق على كتفي الإمبراطورة...

توقف نارسيس فجأة دون نغمة ختامية أو «رالنتادو»، فارتعشت جلالتها وقالت محاولةً استعادة لهجةٍ خفيفة دون أن تتوصل لابتسامتها: «حسناً بولين، هاك ما هو أكثر دهشة دون أدنى شك مما تتباهين به من مقطوعات السيد وامبني الحديثة...»

أنعشت الأميرة بولين الحوار الذي كان يفتر واستدارت نحو نارسيس لتقول:

- «ماذا ستفعل غداً، يا صديقي؟».

أغرقه السؤال التافه بحيرةٍ عميقة، لاحظت أنه ضائع من حركة أصابعه ثم استجمع أنفاسه واستدار نحو الأميرة كمن يرمي نفسه في الماء:

- «غداً ستشرق الشمس».

يصعبُ عليَّ أن أقدم لجلالتها وللأميرة دروس القواعد ومحاولاتي بترسيخ معنى المستقبل في ذهنه، فأصابهن الذهول «بحكمة الشرق» التي يحملها الجواب.

فقالت جلالة الإمبراطورة: «هاك جواباً سألقي به من الآن فصاعداً لكل الفضوليين الذين يطرحون عليَّ بإلحاح ودون توقف سؤالاً عن مشاريعي أو مشاريع الإمبراطور...»

لم أجرؤ على بعثرة سوء التفاهم الحاصل بهذه الإجابة بل بدا لي بينما أدون لكم هذه الأسطر أن الجلسة برمتها اكتنفها سوء التفاهم.

أضافت الأميرة: - «ما عاد لديك مهنةٌ و لا مأوى؟» . فأخفض عينيه.

- «إذاً لولا اهتمام الفيكومت بك لقضيت جوعاً.»

صمت نارسيس عاجزاً عن الجواب فالمنطق الافتراضي بالنسبة له أكثر غرابةً من المستقبل فقُبل صمته على أنه رقةٌ بالعاطفة.

أصدرت جلالتها أمراً: أيها القائد، أريد أن نجد لهذا البائس عملاً في الإدارة.

سترى مع الفيكومت ما قد يناسبه، أريد أن تتوقف اليوم سنوات ضياعه ومصائبه».

نهضت معلنة نهاية الجلسة ووجهت كلماتها الأخيرة إليَّ:

- أيها الفيكومت لا يسعني سوى تحيةُ تصرفك، لقد استقبلت هذا البائس وما من شيءٍ كان ليرغمك على هذا. إنك حقاً وفي، اعتنيت به كما لو أنه أخاك الحقيقي واصطحبته إلى بلده غير آبهٍ بصخب المدينة وشائعات السمعة بل ما انتظرت مكافأة على هذا التصرف النبيل. لست أدري إذا كان الفرنسيون سيدركون سلوكك هذا وعلى ما أظن قليلون من سيعنيهم الأمر. إمبراطورتك تحيِّ فيك كِبر روحك ولو كنتُ وحدي في هذا العالم أيضاً.»

تملكتني الدهشة وأعمل كلام حاكمتي فيَّ أثراً كبيراً فانحنيت بعمقٍ وآثرت الصمت على أي جوابٍ متواضعٍ.

«خذ هذا الخاتم كذكرى مني سيذكرك لون حجره بالمحيط.»

تناولت من يدها حلقةً ذهبية مرصعّة بياقوتة لازوردية وألماس نزعته من أصبعها الوسطى، لقد كانت لحظة احتفالية بشكلٍ غريبٍ. بدت كلٌ من جلالة الإمبراطورة وسمو الأميرة رزينتين متأثرتين، في حين لاحق نارسيس بعينيه سرب طيور يتجه نحو الجنوب ورعشة هواء بعثرت أغصان شجرة دردار.

أقبل إلينا ضابط الخيالة أي أن الوقت قد حان للانسحاب فاستدارت جلالتها وقالت الأميرة بولين أنها ستخاطر بالعزف على البيان.

غردت موسيقا البولكا بين أغصان الشجر بينما اتجهنا نحو السرادق وقبل أن نمر إلى الجانب الآخر من السياج، استدار نارسيس ليلقي نظرة أخيرة على جلالتها التي كانت تقف ورأسها مستديرٌ قليلاً نحو الخلف تراقبه وهو يبتعد قبل أن نصعد إلى عربة الخيل أخذني ضابط الخيال ليحدثني جانباً:

- سيدي الفيكومت كيف بوسعنا تلبية أمنية جلالة الإمبراطورة؟ ما العمل الذي يطيقه هذا الصبي؟

- أجهل هذا تماماً.

- ألا يناسبه «مجلس الدولة» بعد كل شيء.

- لن يكون سعيداً.

فحدجني بازدراء إذ سمع وقاحةً بالرد على فرحته بيد أني كنت صادقاً بألا أفكر إلا بنارسيس كما لا بد أن أدقق على أنه لا يجيد القراءة فأكملت إجابتي:

«لم يبقَ سوى بعض الأوراق العامة والكتابة، لن يدعه الناس مرتاحاً في حواراته البسيطة أو إصغائه للآخرين. إن الأعمال اليدوية والحياة في الهواء الطلق تناسبه، إنني لا أتخيله في باريس أو في أية مدنيةٍ كبيرة.»

- هل يطيع الأوامر؟

- ربما ولكن ليس كالجندي. إنه وديعٌ مترعٌ بإرادةٍ طيبة ويفعل ما يطلب منه.

- ما رأيك بعملٍ يتعلق بالمياه والغابات؟

- عاش دائماً في البحر أو على شواطئه آمل أن تجد له مكاناً يعيده إلى عباب البحر.

هزَّ رأسه بحركةٍ فظة وقال بنبرةٍ جافة تخالفان كلماته وحركاته:

- بما أن جلالة الإمبراطورة قد سلمتكَ خاتمها فرغباتك أوامر.

بينما كنا نتناقش بمستقبل نارسيس كان هو يتأمل الأحصنة الكميت في الموكب الإمبراطوري فتساءلت في سري ما الطريقة الغريبة التي اتبعتها جلالة الإمبراطورة حتى حصلت على معلوماتٍ قيمةٍ ما أسدى بها لأحدٍ ودون أن تفكر بالأمر أو أن تتبين منه حتى.

آه لو كانَ بوسع من شكك بجلسة جمعيتنا حضور هذا الحوار، لشعروا بحماقتهم....

سألني نارسيس أثناء ذهابنا إلى المحطة: «هل سرى الإمبراطورة مجدداً؟»

- لا أدري، لا أظن.»

إنها المرة الأولى التي يستخدم فيها المستقبل ويطرح سؤالاً ويبدي اهتماماً بما سيحدث له. رغب برؤية الخاتم بيد أن النوافذ الضيقة حملت نوراً خريفياً لم يلمع له لا الذهب ولا الحجارة الكريمة فما اهتم به.

هل أجرؤ أن أخبركم بالتعليق الذي أتى به في هذا اليوم المشهود؟ سأبوح به لكم بعهد السر والعلم:

«الإمبراطورة امرأة أكثر جمالاً من الأميرة بولين.»

صدقوا، سيدي الرئيس.

10

أمضى نارسيس طيلة أيامه هذه عارياً على الشطآن يحتمي بالظل هرباً من أوار الشمس. رغم ذلك فقد استيقظ صباح اليوم ليرى مزقاً من جلده المسمَّر المنتفخ تترامى على الأرض، من سائر جسده وخاصة ما اكتسى دائماً باللباس الكتفين والظهر والمؤخرة والفخذين. حساسية جلده الوردي الجديد لا تساعده على احتمال لا الشمس ولا الرمل ولا الهواء ولا ملح البحر.

عادة ما يبيع الصينيون في موانئ العالم حوجلةً من بلسمٍ للحروق الشمسية ولكن ماذا يفعل الآن ليخمد سعير جسده؟ تحيط به الأعشاب الغريبة يصعب عليه المجازفة بدهن عصارتها على حروقه أو وضع أوراقها المدعوكة فأمسك بجلد سمكةٍ دسمٍ قليلاً ودعكه على حروقه بيد أن ذلك لم يعد عليه بفائدةٍ تذكَر.

لم تقترح عليه المرأة العجوز علاجاً بل لملمت مزقاً من الجلد مضغتها وازدردت ثم بصقتها وهو يحدجها باشمئزاز. تراها تظن أنه كالثعبان في مرحلة الانسلاخ؟

تتوالى الفصول فتنسلخ الثعابين والأرانب البرية تتلون والعصافير تجدد ريشها وهو هل يجب أن يتحول؟ ما الانسلاخ الذي يرتقبه؟ ماذا سيودع وماذا سيستقبل؟ ما اختارت الشرنقة أن تتحول لفراشة، ترى هل الخيارات مفتوحة أمامه؟

خرج أحد المتوحشين من الغابة مع أواخر الصباح فتوقفت النسوة عن اللعب مع أطفالهن ما إن لحظنه، خرجن من الماء ونهضن من النوم وهرعن إليه جمعيهن ليلمسنه ويجلسن بجواره ويتحدثن إليه ويغنين له أنشودات شعبية مختصرة. أما المتوحش فتثاقل في سيره ليستلقي في ظلال شجرةٍ نائية.

أحضرت النسوة له الماء والسمك، للمن بضعة غصينات وأصداف ثم أضرمن النار بجواره وأحطنه جمعيهن برفقة أطفالهن وشرعن بالحديث دون هوادة.

اقترب نارسيس ليلقي نظرة فأدهشه عجوزٌ طاعنٌ بالسن بشعرٍ جعدٍ ثلجي اللون، بينما ما اشتدَّ بعد الشيب في مفرق الأكبر سناً في القبيلة من لقبّه «القائد». غضون وجه هذا العجوز أخاديد ضاربة بالعمق مترامية الأبعاد تلقي عينيه في حجاجهما. قوّضت الأيام عضلات ذراعيه وساقيه فتدلت كالثياب الفضفاضة عالقةً بعظامه. غابت الوشوم والرسومات في ثنيات بشرةٍ رماديةٍ سبقته إلى الموت. أصبع يده اليمنى مبتور مثل نجار سفينة سان بول، وفي فمه بضعة أسنان أبقى عليها الزمان. أما الرجال فمضوا في عريهم يربطون أوراكهم بحزامٍ مجدولٍ من الأغصان تتدلى زهرةٌ من الأمام من هو هذا الجد؟

تتسارع النسوة لإطاعته ليس ذلك فحسب بل يفتخرن بأن يكن السبَّاقات لتلبية رغباته وليبقين برفقته، فلاحت أمامه صورة الرهبانين في الكنيسة الذي تتسبب لهم زيارة رسول المطران بالإغماء. استرعاه عدم اهتمام الأطفال به حتى من هم أكبر سناً من «واياك» فقلَّدهم هو أيضاً.

لاقته المرأة العجوز بعد الظهر وأشارت إليه بأن يتبعها، فاصطحبته إلى الجد الذي رقد غافياً تقريباً، وقف نارسيس فخوراً بقامته وعضلاته أمام هذا المخلوق الهزيل. تفوهت المرأة العجوز بخطابٍ ذي إيقاعٍ مقتضب

لعلها لفظت خلاله كلمة «أمغلو». ربما تفرض الآداب المحلية هنا أن يتم تقديمه رسمياً لكبيرهم؟ فقال نارسيس بصوتٍ مرتفعٍ يشوبه احترامٌ هازئ: «مرحباً، أيها الأمير القذر! أنا «نارسيس بيللوتي» بحارٌ من السفينة الشراعية «سان - بول» وبما أنكم لا تحسنون الكلام فإن أصحابك يدعونني «أمغلو»». لاح طيفٌ في أحداق الجد جعله يمضي في طريقه مضطرباً.

هرعت النسوة طيلة النهار بجوار «العجوز». أما نارسيس فما أعاره أي انتباهٍ يكنه له المتوحشون كبيرهم أو صغيرهم، فهو لم يأت لرؤية أمغلو أو الاهتمام بمستقبله، هل هو بالنسبة لهؤلاء النسوة مشعوذٌ أو ساحرٌ قدم ليواسيهن بوفاة المرأة التي كانت تضع طفلاً، فهاهم ينشدون أناشيد الموتى معاً والتي شكلت بالنسبة لنارسيس تسلية!

أخذ يفكر وهو يمص بقايا من سمكةٍ كبيرةٍ مزرقة، فصدمه أمرٌ بدا له بديهياً، وهو أن هذا الجد قدم ليشارك في العزاء أو ليتحقق من مجيء أمغلو أو لعله قدم للأمرين معاً، إذاً من أخبره بهذه الحوادث ذات الأثر المهم؟ متى وكيف؟

من غير الممكن أن يحيا هذا العجوز الهزيل مترنح الخطى وحيداً في مكانٍ ما في الغابة، لا بد أن هناك متوحشين آخرين يصطادون ويقدمون له الطعام والماء. لا بد أنهم يخيمون قريباً فلا يتمكن هذا الشيخ الهرم ذو الخطى الصغيرة المترنحة أن يسير ليومين أو ثلاثة.

تذكر مجيء «شومينو» عندما كانوا على حفة البركة، ظن حينها أنه كان في رحلة صيدٍ لأيام، لكن يبدو الآن أنه كان يقوم بزيارةٍ لأبناء عمه ليلقي التحية على قائدهم ويحمل إليهم رسالة، أو ليجد لنفسه زوجةً ومن يعلم لعله ذهب ليباركه الجد.

استراليا تضم الكثير من المتوحشين تترامى قبائل أخرى في كل اتجاه، بمحاذاة البحر وفي الغابات وفي غابات المنغروف والصحاري الشاسعة

مترامية الأطراف. لا بد أن القبائل المقيمة في الجنوب والأكثر قرباً من سيدني يعرفون رجالاً من عرقه.

ترى هل بوسعه أن ينتقل من مجموعةٍ لأخرى حتى يصل إلى الجالية الانكليزية أو أبعد من ذلك للقاعدة الانكليزية؟ هل يستطيع أن يرسل رسالةً تمرُ عبر القبائل إلى بني عرقه يحفرها على قشرةٍ ما تدل على وجوده هنا؟ ليس الوقت مناسباً ليرتمي بين براثن أملٍ أحمقٍ جديد يقوم على فكرتين متضاربتين مستحيلتين، لن تحدث معجزة عليه ألا يخدع نفسه ويعلم فقط أن ثمة قبائل أخرى تموج وتربط فيما بينهم أواصر قربى.

التنقل من قبيلةٍ لأخرى؟ كيف سيتأكد أن مضيفيه الجدد سيصطحبونه في الاتجاه السليم بافتراض أن المتوحشين جمعيهم كريمو الضيافة؟ وما هو الاتجاه السليم؟ لا بد أنه نحو الجنوب بيد أن المتوحشين يمضون بخطٍ مستقيمٍ؟

يبدو نقل رسالةٍ أكثر تأكيداً؟ حفر بالأصداف قطعةً خشبيةً وبعد عدة محاولات توصل لخطِ أسطرٍ ولكتابة اسمه حسناً ولكن ماذا يريد أن يقولَ ولمن؟ ليس بوسعه الدلالة على مكانه، فالمتوحشون يغيرون باستمرار تخييمهم. وإن توصل لحفر اسمه وخريطة تقريبية تحفز البحث عنه فكيف سيشرح للمتوحشين أهمية هذه الرسالة وضرورة نقلها من يدٍ سوداء لأخرى حتى تتلقفها يدٌ بيضاء؟

لن تقدم له القشرة التي حفرها بصبرٍ طويل مداعباً أحلامه جذوةً لإضرام الأمل؟

الرسالة العاشرة

سان مارتن دوري، 28 تشرين الأول 1861

سيدي الرئيس.

شكراً لكم على الرسالة التي حملت جواباً في العاشر من أيلول حيث فسرتم ما خالجكم من قلقٍ مختلفٍ متناقض دفعكم لسلوككم في الجلسة العامة وقد تمعنت بها. أشكركم أن سخرتم جزءً من وقتكم لإزالة ما قد يقف حائلاً بيننا. اجتاحتني بعض المشاعر المتأججة بعد ظهر اليوم تقوم على همي بحماية نارسيس بيللوتي وعلى شبابي، كما أضمرتم، فتشوش الإحساس الذي انتابني منذ نهاية الجلسة في حين أننا سنعود إلى سان جيل بعد بضعة أيامٍ، كان ينقص الرسالة التي أرسلتها إليكم بعضاً من رحابة الصدر ليخفف من وطأة غضبي، ثم تبع كل ذلك لقاءنا مع جلالة الإمبراطورة كما كنت قد أخبرتكم، كان ذلك حدثاً على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية فلا بد إذاً من مغادرة باريس لنحظى بقليلٍ من السكون.

أخذت وقتي بالتفكير في قصرنا في «ڤالومبران» حيث يسود الهدوء، قبل أن أوافيكم بالأخبار. أختي شارلوت التي ما رأيتها منذ أربع سنواتٍ تقريباً بانتظارنا وقد أنبأتها برؤوس أقلامٍ حول هذه المغامرة وهي راغبة برؤية بطلها الحقيقي.

أقام بيننا في غرفةٍ مخصصةٍ للأصدقاء وشاطرنا طعامنا. تسترعي الأشجار الخريفيةً والمروج إعجابه وكذلك السياج والتنزه

والينبوع والجداول. تشرئب قممُ المرتفعات حول القصر لتنافس قمم جبال الألب فيرمي الثلج عليها وقاره الناصع ليلوح في الأفق مقبّلاً السماء، لا يدرك نارسيس ما هو هذا البياض الأخاذ. فوجئت بأن حدود مملكة «بيمون - ساروين» قد عادت القهقرى إلى أكثر القمم الشاهقة بعد أن كانت تلتصق بقصري، وبسطت الإمبراطورية سيطرتها على أحواض «إيزو» و «آرف».

كنت أهوى السير عندما كنت في العشرينات من العمر أما الآن وبعد هذا الغياب الطويل لا أظن أن تداعبني فكرة مرافقة نارسيس لاكتشاف المنطقة، فاعتمدت على حسه العالي بالتوجه، ما لمسته في غابة سيدني وشوارع باريس، و أطلقت له عنان المغامرة وحده.

صباح اليوم التالي خرج يخب بالمسير ثم حمله إلينا المساء بسترةٍ ممزقة وبنطالٍ ملطخٍ بالطين ومن دون قبعة. بادئ الأمر، خشيت أنه صادف مكروهاً، لكن الأمر مختلفٌ، فعلى بعد فرسخين من هنا، كان الفلاحون يفرغون حملاً من الحطب لأيام الخريف فمد لهم يد العون بعفويةٍ وهدوء، فوجئوا للوهلة الأولى بهذا الشاب عريض المنكبين قوي البنية ذي الزي الأنيق، يحمل الأخشاب غير آبهٍ بما سيحل بزيه الجديد، فانتهزوا الفرصة بشيءٍ من التهكم، دون شك، لإفراغ حمولتين من الخشب وتقاسموا معاً الخبز وجبن السافوا والسجق قبل أن ينهوا ترتيب الخشب ليحتموا من برد الشتاء. ثم عاد إلى القصر.

قادته نزهاته، في الأيام التالية، لمرافقة راعٍ لقطيعٍ من الأغنام، أعانه على إخراج الزبل من الحظيرة ونقل التراب من المشغل وحفر خندقٍ، إنه وبشكل لا يصدق يبحث عن الكد والعمل، يتنزه غير آبه بشيء. كما لو أنه على متن سفينة سان بول، لا يستطيع منع نفسه عن تقديم يد العون لمن حوله.

قدمت له ملابساً تتناسب مع هذه التسلية الغريبة بيد أن ألسنة

الناس صارت تتهامس حول هذا الغريب الذي لم يعد يضفي عليهم بعضاً من اللهو بل يرمي بظلالٍ من الاستياء وباتوا يأخذون الحيطة عفوياً من كرمٍ متدفقٍ كهذا، كما أنهم ما عرفوا كيف يتعاملون معه فهل هو ضيفٌ أم عاملٌ مياومٌ؟ هذا الذي لا يترك الحوذي يعمل وحده على إخراج العلف من مستودع الحصيد ولا الطاهية لتحمل وحدها سلة التفاح. ما تفوهت أختي ببنت شفة بيد أني أدركت تحفظها بضرورة تناول العشاء مع مياومٍ صامتٍ.

لم تضف هذه الأسابيع من جديدٍ على ما أعرفه عن نارسيس سوى أنه غلامٌ لطيف ولكن هل يكفي هذا لأخصه بثقةٍ لا حدود لها خلال ضيافتي؟

حكم خوري القرية ووالد فتاةٍ، أظن أن لنارسيس علاقةٌ بها، بأنه غير مرغوبٍ به. بإيجازٍ، إذا ما اتسعت سان جيل لنارسيس فلا أظن أن ڤالومبران ستفعل. تلقيت أثناء تفكيري بعلاقتي به رسالةً من وزارة البحرية، يبدو أن سؤال جلالة الإمبراطورة ما لفّه النسيان، إذ كَلف الوزير الأميرال «جوران دو لا غرافيد» بترأس حملةٍ للتحقيق بملامبسات الظروف التي رمت البحار «نارسيس بيللوتي» في أحضان المتوحشين في استراليا لسنين طوال، في حين أن ربان السفينة أعلن وفاته خطأ فمنع بذلك أية عملية بحث. كما باح لي في أحد الممرات بأن لهذا تبعاتٍ تأديبية وجزائية.

ما واجهت المكاتب صعوبة بالعثور على صاحب السفينة والربان وصحيفة السفينة، أما المساعد والذي صادق على المحضر الرسمي للوفاة في 5 تشرين الثاني 1843 فقد غيبه الموت إثر طعنة خنجر أثناء مشاجرةٍ في ڤالبارايسو عام 1855.

ترافع أولاً تحت أباريز قصر البحرية الربان «بورتوريت» الذي أقعدته إصابةً في الساق عن الإبحار. قال أمام لجنة التحقيق أنه لم يعد يذكر

تفاصيل هذه القضية الضاربة بالقدم والتي تخللها إبحارٌ صعبٌ من الكاب إلى الصين برفقة مرضى، و رسوٍ غير متوقع.... ضغط الضابط المكلف والذي تفحص صحيفة القارب عليه بأسئلة شتى حول خياراته المنهجية: لماذا اختار طريقاً جنوبياً بشكل حادٍ انطلاقاً من الكاب؟ ثم بعد ذلك أصرَّ على دربٍ باتجاه الشرق في حين أنه وحسب الصحيفة كان هناك عدد من المرضى على متن السفينة حيث كان بوسعه الوصول إلى «الريبتون» أو «موريس» أو «سيلان»؟ لمَ هذا الإبحار البطيء الحذر نحو الغرب ثم نحو شمال استراليا تتخللها محاولاتٌ خجولةٌ عبثيةٌ بهدف الحصول على الماء؟ لماذا هذا التأخير باتخاذ قرارٍ صائبٍ بالتوقف عن البحث لموارد للسفينة والإبحار إلى أقرب ميناء؟

ينكمش الربان مع كل سؤال في كرسيه مغمغماً ورويداً ورويداً يستعيد الذكريات. الشرح الذي أتى به كان مبتوراً وأحياناً متناقضاً مخلفاً شعوراً من عدم الكفاءة، ما تخيلت أن هذا العجوز قد أخذ على عاتقه مسؤولية سفينةٍ شراعيةٍ مع طاقمٍ من ثلاثين رجلاً ولفترةٍ طويلة.

أثقل الضابط الشاب كاهله بأسئلةٍ حول الخرائط التي رسمت وجهته خلال عام 1843، والربان لا يتوصل للإجابة الدقيقة فالخرائط حينئذٍ كانت قديمةً ومتواضعةً؛ صاحب السفينة شحيحٌ ويقتصد في كل الأمور حتى في تجهيزات قيادة المركبة فالخرائط كانت من قبل الثورة؟ قبل حملة نيكولاس بودان؟ لم يعد يعرف شيئاً. على كل حالٍ ما كان واثقاً منه فقط أنه ما كان بحوزته خرائط انكليزية. ثم وجه إليه الأميرال الضربة القاضية: «كم ميتاً كان لديك بعد الكاب»؟

امتقع وجهه معترفاً أنه لم يعد يذكر العدد.

قال الأميرال: «حسناً أظن أن الوقت قد حان لاستراحةٍ تعيد فيها قراءة صحيفة السفينة علّها تساعدك فيما تبقى.»

جاء الأميرال إلينا في حين اصطحب سيدٌ آخر الربان إلى المكتب

المجاور. «طاب يومك أيها الڤيكومت، طاب يومك أيها البحار. إنني متحفزٌ للمواجهة القادمة، لا أظن أن الريان على علمٍ بسبب وجوده هنا، من جهةٍ أخرى، فهجرُ أحد أفراد الطاقم على إحدى الجزر وتحرير وثيقةُ وفاةٍ خاطئة هي جرائم يعاقب عليها القانون، لست أدري إلى أين نحن ماضون بيد أن الوزير يعلق أهميةً كبيرة على فك رموز هذا اللغز. يا بني، كل شيء متوقفٌ على شهادتك.

طرحت لجنة التحقيق عليَّ سؤالاً حول الظروف التي تم خلالها اكتشاف «البحار بيللوتي»، فكررت لهم روايتي عما جرى في شهري شباط ومارس في استراليا، ثم طرح عليَّ أحد الضباط سؤالاً ما ورد على خاطري: عثرت الباخرة الانكليزية «جان بيل» على البحار بيللوتي في خليجٍ أشارت إليه الخرائط أي أنه لم يعد من بين الأراضي المجهولة. تم إحصاء الرسو على هذا الخليج حيث ورد في التعليمات البحرية: «يفضل تحاشيه ولو جراء رياحٍ شرقية ومدٍ قوي فلا وجود لغيره في القطاع». أي باختصار يعد هذا الخليج مأهولاً فكيف نفسر أنه وخلال ثمانية عشر عاماً لم تلمحه أية باخرة؟ لنطرح الأمور بشكلٍ مغاير أتظن أن البحار بيللوتي آثر الظهور ذلك اليوم؟

ارتجلت بإجابتي بعد أن استدرت إلى نارسيس ووجدته بين يدي الصمت كما توقعت، قلت: حسب فهمي فإن المتوحشين الذين عاش نارسيس في كنفهم كانوا في ترحال دائم تبعاً للفصول متنقلين بين شاطئ البحر والداخل، لا يجب أن نتوقع تخييمهم المستمر على الشاطئ. لا يمكنني الجزم بأنه كان يبحث أو يتحاشى العلاقة مع ذوي البشرة البيضاء فلم يكن سيد نفسه و لا خيار له سوى إتباعهم. ثم إن نارسيس تابع الصيد مع بعض المتوحشين حين رسا الزورق الانكليزي، فما هربوا ولا حاولوا الاختباء بل وما تميز عن الباقين بشيء، وما إن اقترب الانكليز من المجموعة حتى استرعى انتباههم أن بينهم شخصٌ من العرق الأبيض رغم

اسمرار بشرته بسياط الشمس. لم يكن يتحدث سوى لهجة المتوحشين، أشاروا إليه بالصعود إلى الزورق وما أرغموه على ذلك إلا أنه تخبط كثيراً عندما أنزلت جان بيل أشرعتها.

سأل الأميرال: «لمَ لا يروي لنا هو حكايته؟»

تأمل نارسيس الضابط ذا الزي الموحد بهدوءٍ وكأن الحديث لا يمت له بصلة. فباعدتُ ذراعي لأشهد على تصرفه قائلاً: «لست أدري إنه يرفض دائماً أو بالأحرى غائبٌ دائماً عن الإجابة عن الأسئلة التي أطرحها حول ما جرى هناك وحول ظروف وصوله إلى ذاك الشاطئ، إنه يلوذ بالصمت دائماً بمواجهة هذا الموضوع وغيره من المواضيع وما استطعت فعل شيء حيال ذلك، فقط جلالة الإمبراطورة تمكنت من كشف بعض أسراره.

ألقت هذه الخاتمة بظلالها ورافةً فابتلع أي سؤالٍ آخرٍ حول صمته. ثم تابع الأميرال سائلاً: «هل فوجئ الانكليز بوجود المتوحش الأبيض؟»

- فوجئوا تماماً فما من شائعة في السفن ولا حديثٍ في الحانات يذكر وجود هذا المتوحش الأبيض أو يشير له.

فقال الأميرال معترضاً: - ولكن في عُرض المحيط الهادئ يوجد الكثير من البحارة الذي وقعوا في شباك أولئك المتوحشين ليكرروا عبارةً من عباراتهم كذكرى من رحلاتهم الشبابية.

- تُعرف هذه الحالات تبعاً لغرقٍ أو هروب، أجرت جمعيةُ الجغرافيا بناءً على طلبي إحصاءً لجميع الحالات المعروفة ولم تشبه أياً منها حالة نارسيس إذ لم يبقَ أي منهم ثمانية عشر عاماً وحيداً بشكلٍ مطلق، ولم يتبنَ أحدٌ عادات المتوحشين ولغتهم بشكلٍ كلي. في الحقيقة يتفرد نارسيس بأنه الوحيد من ذوي البشرة البيضاء الذين تقمصوا حياة المتوحشين بشكلٍ مطلق رامياً أصوله طيَّ النسيان.

ما طرحتُ أمام اللجنة تفكيراً أكثر علمية فلا جدوى منه هنا، يقوم

على فكرة أننا عرفنا بالمقابل الكثير من المتوحشين الذين ارتموا في أوروبا وتأقلموا تماماً مع أسلوب حياتنا مثل «أوتورو» الذي تبع «بوغينفيل» من تاهيتي إلى بلاط لويس الخامس عشر، حقاً كان مميزاً بيد أنه ليس الوحيد. توافدوا من سهول أميركا وأعماق إفريقيا وجزر المحيط الهادئ وعاشوا في كنف باريس ولندن بانسجامٍ ملحوظ سواء أتوا مرغمين أم راغبين. واللافت للنظر أيضاً أنهم تعلموا عن أماكن ولادتهم أكثر فأكثر من خلال المبشرين الذين تولوا أمر تثقيفهم.

إذا عاش المتوحشون بين ذوي البشرة البيضاء وتبنوا عاداتهم بينما حافظ ذوو البشرة البيضاء على نعم الحياة المدنية لسنواتٍ بينهم ما عدا نارسيس وهذا ما يضفي على حالته نوعاً من الجاذبية. ترى هل بوسعنا إبداء تفوق العرق الأبيض على العرق المتوحش بشكلٍ أفضل؟ هذا ما يقترحه العقل السليم باحترام فكرة الجذب والتي تسلك دائماً نفس الاتجاه. باستثناء نارسيس.

عدنا إلى المكتب قرب الباب واستدعى الأميرال من جديد الكابتن «بورتورو» رمقنا بنظرةٍ لا اهتمام فيها فقد كنا المدنيين الوحيدين في المكان ولم يبدُ بالمقابل أن نارسيس قد تعرف عليه.

تابع الأميرال طرح الأسئلة: «إذاً أيها الربان هل استعدت ذكرى يوم الخامس من تشرين الثاني من عام 1843؟»

- نعم. أيها الأميرال أذكر أننا ولجنا ذاك الخليج الذي بدا لنا أنيساً وأرسلت عدداً من رجالي إلى اليابسة للعثور على مؤونة. وبعد ساعةٍ من الزمن، عاد الزورق ليعلن لي أن نارسيس بيللوتي قد اختفى. فدعمتهم بالسلاح وأمرتهم بتفتيش الشاطئ والغابة المجاورة مطلقين عياراتٍ نارية في الجو. عساه يسمع فيعود. انطلق البحارة من آخر نقطةٍ لمحوه فيها وجابوا المكان على بعد فرسخين أو ثلاثة وما اقتفوا أثراً له. لقد اختفى بيللوتي كالسحر. تواصلت مع الزورق عبر الإشارات ليردني

دائماً جوابٌ بفشلِ البحث. ما كنت مطمئناً لوضع السفينة في رسوٍ غير مدروسٍ وفي متناولِ مد قوي ودنو العاصفة ليزيد أنين المرضى الأمر سوءاً، ألح المساعد حينها عليّ بهجر بيللوتي بيد أني لم أشاركه القرار، ثم لاح الغسق في الأفق فارضاً علينا الواقع فأوقفت عمليات البحث. بشق الأنفس تمكن الزورق حينها من الإبحار بين ألسنة البحر المتطاولة وغادرنا الخليج والحزن جاثمٌ على صدورنا. تركنا على اليابسة كميةً من الطعام والثياب بالإضافة لبندقية وددتُ أن أخفف عنه وطأة ليلته القاسية على اليابسة إن كان بعد على قيد الحياة، إذ كنت أنوي العودة في صباح اليوم التالي لتقفي أثره فلا يجوز أن يختفي أحدٌ ما دون أن يخلف أثراً سواء أكان حياً أم ميتاً. هبت العاصفة و تربعت في المكان ليومين متتاليين كنا خلالهما قد ابتعدنا تماماً عن الشاطئ حيث هُجر نارسيس بيللوتي. كان لا بد من اتخاذ قرارٍ إما أن أجري عكس الرياح وأعود إلى الشاطئ أو أن أمضي لإنقاذ المرضى. بعد مشاورةٍ طويلةٍ مع المساعد آثرتُ المضي بطريق سدني وقلبي يتمزق أسىً. ماذا كان بوسعنا أن نفعل؟ فلن يعود بأية منفعة البحث والبحث المتواصل في خليجٍ مجهولٍ فبيللوتي ما أجاب قط على إشاراتنا. بعد تمحيصٍ طويلٍ اعتبرت أنا والمساعد أن نارسيس قد غيبه الموت لا محالة وجثمانه يرقد في زاويةٍ نائيةٍ يتعذر الوصول إليها أو في مستنقعٍ أو مغارة. ما الذي باغته فتسبب في وفاته؟ ربما عضة ثعبان أو ضربة شمس أو انحدارٌ قاتلٌ، لا بد أننا نحتاج لأيامٍ وأيام مع حظٍ وافرٍ للعثور على رفاته، في البدء خلت أنه على قيد الحياة وبعد مضي ساعاتٍ أيقنتُ أنه بين يدي الموت، زال التردد أمام رجالٍ يحتاجون إلى الماء والعناية فآثرت التخلي عن فكرةِ بحثٍ عابثٍ قد يودي بحياة المرضى، فضلاً عن كل ذلك وافاني المساعد لينبهني من عصيانٍ بين أفراد الطاقم.»

حدجه الضباط بنظرةِ شكٍ وقال أحدهم:

- «لم يتم ذكر كل هذه التفاصيل في صحيفة السفينة».

- استعدت الذكريات لدى قراءة الصحيفة التي تم إملاؤها بما يتطابق مع القواعد ودوّنها المساعد حسب تعليماتي، تم ذكر موت بيللوتي في الخامس من تشرين الثاني 1843.

- بيد أنك لا تدري شيئاً عن وفاته! وحسب ما قلت فإنك ما توصلت إلى هذه النتيجة إلا في اليوم التالي. صحيفتك كاذبة!

- عذراً أيها الأميرال! لعلها تقريبية وليست بكاذبة ثم أنه كانت لدي كل الأسباب التي تدفعني للاعتقاد بوفاة بيللوتي كما لو أنه قد وقع في عباب البحر. لم يرَ أحدٌ لحظاته الأخيرة وما استلمنا رفاته بيد أن مصيره بدا واضحاً.

ألقت عليه المقارنة الحاذقة بعضاً من الثقة، ما أراد الأميرال أن يفوت ذلك فقدم له نارسيس: - هل تعرفت على هذا الرجل.

- كلا، أيها الأميرال.

- هاهو «نارسيس بيللوتي».

- تمعن الربان فيه طويلاً ثم هزَّ رأسه قائلاً:

- «كان ذلك منذ ثمانية عشر عاماً حين أبحر معي غلامٌ من بوردو ومن بين واحدٍ وثلاثين رجلاً في الطاقم يصعب عليَّ التعرف عليه. لا أعرف».

طرح الأميرال السؤال عينه على نارسيس والذي ما تعرف هو الآخر على الربان «بورتيري» وما فاجأني ذلك بل وتوقعته. تابع الضابط حديثه: - «أيها البحار هل استمعت لما قال الربان، هل جرت الأمور حقاً على هذا المنوال؟».

- نعم سيدي.

- هل تذكر اللحظة التي ابتعدت فيها عن أصحابك.

- كلا.

- هل سمعت النداءات والصافرات والعيارات النارية؟

- نعم، كلا. لست أدري!

- هل عثرت على ما تركوا لك من طعام على الشاطئ؟

-.....

- أنت لا تذكر شيئاً من ذلك اليوم أي في الخامس من تشرين الثاني من عام 1843

- كلا... لاشيء.. إنه في الزمن الماضي.

أصبحت رواية الربان هي الحقيقة بغياب كافة الشهود، عرفت أخيراً كيف تسلسلت الظروف ليصل نارسيس إلى استراليا رغم ما يكتنف القصة من غموض. لماذا غادر الزورق دونه؟ كيف تاه هناك؟ هل فقد وعيه؟ هل أسره المتوحشون وكمموا فاهُ؟ لن نعرف ذلك أبداً.

دمدم الأميرال قائلاً: «أيها الشجاع، إن لم تذكر شيئاً ستؤكد لنا إذاً أن ما رواه الربان صحيحاً.»

أشارت هذه الملاحظة إلى شكوكٍ تساوره لا يرغب بالإفصاح عنها أمامنا. خاب أمله بشكلٍ جليٍ فلن تفسر لجنة التحقيق مأساة كانت طي النسيان ولن ينزلوا العقاب بمن تسبب بهجرانٍ طويلٍ لمن تم تحريره الآن. ستبتلع الخزانة تقريرهم مع اسمه وحماسه دون أن يُذكر في رسالةٍ يرسلها الوزير إلى جلالة الإمبراطورة ليطمئنها، لقد فقدت القضية أهميتها.

تنحنح ربانُ أحد البوارج كان جالساً على يمين الأميرال والغفوة تهدهد طيلة الجلسة، تحدث بصوتٍ خافت: «هناك نقطةٌ تعذر على فهمها أيها الرّبان! رافق عبوركم للمحيط الهندي ظروفاً صعبةً وعلى متن السفينة يخيم الموت وأنين المرضى وتفتقرون للماء، فحاذيت الجانب الغربي لاستراليا وصولاً إلى الجانب الشمالي وكنت على مقربةٍ من جاوا التي كانت بالحقيقة وجهتك منطلقاً من «الكاب»، حسب ما ورد في صحيفة السفينة،

لِمَ لم تتجه نحو الشمال أبداً؟ لماذا حاذيت استراليا معطياً ظهرك للهند الايرلندية؟ وكانت المسافات تتباعد مع كل شروق؟.

بسط هذا السؤال الجغرافي حيرة واضحة فغمغم الربان العجوز بعد تردد واضحٍ وتنقلٍ بين الأجوبة ملقياً اللوم على تجهيزات السفينة الشحيحة ورغبته بدربٍ ذي ريحٍ خلفية.

- لن تقول لنا أنه ما كان بإمكانك أن تبحر موجهاً الريح باتجاه السفينة! لم أطالبك بمواجهة الريح....

فقال رئيس الجلسة: لقد ابتعدنا عن قضيتنا....

- اعذرني أيها الأميرال، أود طرح سؤالٍ أخيرٍ. مرضى يعانون و شحٌ بالماء واختفاء بيللوتي، بعد ذلك مضيت نحو سيدني حيث بات الميناء أكثر دنواً ثم وبعد رسوٍ قصيرٍ اتجهت مباشرة نحو الصين وما مررت قط بجاوا لماذا؟

تخبط الربان بين أمواج الغموض، وأنا ما فهمت أهمية السؤال لأنني ما قرأتُ صحيفة السفينة.

- واجهتُ مع السلطات في جاوا مصاعباً في آخر رسوٍ لي هناك واتهمت بالاحتيال.

- تهريب بضائع؟

- مر زمنٌ طويل...

- تهريب بضائع؟

- لم أرغب بدفع كل الرسوم الجمركية وبعض الفواتير لذا استبعدت جاوا. فالهولنديون يتمتعون بذاكرةٍ قويةٍ وهم لا يمزحون بمثل هذا النوع من القضايا.

- وما ترددتُ البتة ما بين حياة البحارة ودفع الغرامة.

فأطرق الربان بورتيري.

- لو أنك رسوت في جاوا لما لاقى بيللوتي هذا المصير على شاطئٍ استرالي مجهول....

خيّم الضجر على الأميرال مراقباً أحد الضباط وهو يوبخ الربان على شكل صحيفة القارب ثم لوّح بعقوبةٍ تأديبية ورفع الجلسة.

نزولاً عند أوامر الإمبراطورة، تبادلت الرسائل مع أحد مساعديها لإيجاد عملٍ لنارسيس. بعد يومين، استقبلني لنناقش الأمر فتمسكت بفكرة عمله قرب البحر وعلى مقربةٍ من «سان جيل سورفي». رفضتُ عمله كمرممٍ للطرق في «نيفر» أو خفير صيدٍ في لاند. تساءلت في سري من أنا و بأي صفةٍ أقرر مستقبله؟.

خفت أن استنفذ صبر ضابط الخيالة فما استطعت رفض المقترح الثالث الذي كان الأخير ربما، دون العودة لصاحب العلاقة فقد ألقى على كاهلي هذا العبء كما فعل دائماً، أفضى النقاش إلى قرارٍ وهو أن يسمى نارسيس بيللوتي حارساً في محلٍ من الدرجة الثالثة للمنارات والشاخصات في منارة «الحوت» أو «بالين في منطقة شارنت الداخلية». كما يتوجب عليه أن يكون على رأس عمله مع بداية الشهر القادم، إذاً أمامنا متسعٌ من الوقت بعد شكر المساعد للرحيل قاصدين سان جيل وإعداد العدة لحياته الجديدة.

لا بد أنكم ستطرحون علي سؤالاً: هل من المنطق إرسال نارسيس إلى جزيرةٍ فقيرةٍ وبعيدة مثل «ري»، أليس هذا شكلاً من أشكال السجن لعله أكبر بقليل من سجن الحاكم في «كالي الجديدة» على بعد ثلاثة فراسخ نحو الجنوب على مقربةٍ من «سان مارتن دوري»؟ ألن يصاب بالضجر من رؤية البحر والعمل الرتيب، وما أمامه من تسليةٍ سوى التنزه على الشاطئ الرملي وجمع الأصداف؟

لن أجيب على كل هذه الأسئلة إلا بقول أن لا بد من نهاية تخلص إليها مغامرة هذا الغلام وما وجدت له فرصةً أفضل من هذه.

ذهبنا إلى «سان جيل سورفي» ومكثنا فيها لفترة وجيزة جداً، التقينا فيها مع أقاربه الذين أظهروا رضاهم عن عمله لا بل هنأته عائلته بتسمية في هذا العمل بشهادةٍ من فخامة الإمبراطورة، ولا أخفي أنني لمست بعضاً من الغيرة تساور أولئك الذين ما ضمنوا بعدُ مستقبلهم مثل صاحب الدخل أو الموظف فهم يجدونه في عمر يناهز الستة وثلاثين عاماً بوضعٍ يحسد عليه، فالسكن مؤمن وله دخلٌ مع كل شهرٍ. قال لي المختار والخوري: ما يفضي إلى نهايةٍ حسنة فهو حسنٌ بالمجمل. ثم أضاف والده: «إن ري ليست بعيدة من هنا يمكننا التردد إليها من وقتٍ لأخر». وجمعينا ندرك ضمناً أنه لن يفعل ذلك أبداً.

التقيت بمهندس القسم في «لاروشيل»، قدمت له مرؤوسه الجديد وشرحت له لماذا تمت تسميته «كحارس مخزن» من الدرجة الثالثة، ولِمَ وقعها الوزير لا رئيس المكتب. كما أخبرته بإيجار عن قصة حياته وطباعه الغريبة. تجاوب المهندس ببساطة وأخبرني أنه يعي تماماً الاهتمام الذي تحيط به باريس هذا الغلام.

وصلنا إلى ري عبر قاربٍ نهري ثم وصلنا منارة «الحوت» بعربةٍ صغيرة حيث يوحي الطقس بالهدوء ويلوح بالرعب بهبوب عواصف الأطلسي. سهلت تعليمات المهندس إلى رئيس المحطة إقامة نارسيس حيث خصصت له غرفةً في بناء الحرّاس، فوضع أغراضه التي ابتعتها له وعلّق قوقعة «ستراتمور» على الجدار.

المهام الموكلة إليه بسيطة: عليه أن ينظف ويزين ويرتب لوازم الميناء ثم يكنس وينظم ويعتني بالمبنى، كما يقع على عاتقه الاعتناء بالحديقة وبستان الفاكهة والإسطبل، وإذا فرغ يساعد في المطبخ.

أدرك رئيس المحطة وأصدقاؤه وهم بحارة قدماء ما مر بنارسيس من مصائب، فعهدوا به كواحدٍ منهم. وهو بدوره انكب للتو على العمل كحارس مخزن من الدرجة الثالثة تحت مراقبة أحد القدامى، ها هو يعود

بالنفع على الآخرين فامتلأ قلبه بالسعادة. وافق رئيس المحطة وهو رجلٌ مقدام بأن يرسل إليَّ تقريراً شهرياً عن وضع بيللوتي ورفض ما عرضت عليه من مالٍ كما عرض أن يقوم بجباية راتب نارسيس ويبقيه تحت تصرفه ضمن حدود المنطق.

تمنيت لنارسيس حظاً سعيداً وودعته واعداً إياه أن أمر لرؤيته مرةً أو مرتين في غضون عامٍ، لم يبدِ أي انفعالٍ يعطي الفراق حقه، لعله لم يدركه تماماً، على كل حالٍ لقد قمت بكل ما علي القيام به.

أثناء عودتي إلى النزل في «سان مارتن دوري» أيقنت أنني ما فهمت نارسيس قط ولا أفهمه الآن أكثر من اليوم الأول لهذه المغامرة الغريبة..

صدقوا، سيدي الرئيس...

11

عاد الرجال. فأمضت القبيلة ثلاثة أيام لا يشغلهم فيها سوى المأكل والمشرب والنوم، تلونت المائدة المفتوحة حول الموقد بالطريدة التي حملها الصيادون والأسماك والأصداف، تناول الجميع وجباتهم حسبما يشاؤون وكذلك نارسيس الذي لم يلقَ حرجاً بالتردد مراراً وتناول الطعام عن الحجارة الساخنة.

امتلأ بطنه فاستسلم لهدهدة حنينٍ رقيقةٍ ومريرةٍ: ما زال على قيد الحياة لقد نفذ الوعد الذي قطعه على نفسه ولم يعد وارداً الحكم عليه بالموت جوعاً. إلا أن أيادي القدر الغادر ألقته على إحدى الشواطئ المجهولة ليأكل ويشرب ويرقد وحيداً!

لاحظ في مساء اليوم الثالث غياب الرجل الطاعن بالسن ومعه الشاب الذي لقبه «شومينو»، لا بد أنه يرافق الجد إلى الأقارب الآخرين. بالطبع لم يساوره الحزن لغياب هذا الشاب الذي لا يفوت فرصةً لأن يرمقه شزراً ويرميه بحقدٍ صامتٍ مبهمٍ، فليذهبا إلى الجحيم دون عودة!

أصُيبت القبيلة مع بزوغ الفجر التالي بمسِ الجنون الذي أصابهم يوم مغادرتهم المخيم على ضفاف البركة فلملموا أغراضهم الشحيحة وخب الرجال بالمسير نحو الغابة وكذلك فعلت النسوة ومعهن الأطفال أما نارسيس فكلفته المرأة العجوز بحمل قربتي الماء واللحاق بهم.

كابد الأطفال بمتابعة السير في هذه المرحلة الطويلة، أدرك نارسيس أنهم يتجهون غرباً وظهرهم للبحر، فهو يعرف كيف يخمن الاقتراب من خط الاستواء ويتعرف على بزوغ الصباح لدى سيره على ظله، والمساء عندما يغفو والشمس بعينيه. ما المسافة التي مروا بها ثلاثة فراسخ أم أربعة على كل حالٍ لم يعد مرئياً لأية نجدةٍ محتملة. في حال عودة سان بول أو أية سفينة أخرى ودخولها خليج الهجران سيعثرون على نقشه ويتجهون نحو الشمال حيث لا دلالةٍ أخرى تضعهم على الطريق الصحيح أو تساعدهم على معرفة الوجهة التي سلكها نارسيس بيللوتي. سيعودون يجرون ذيول الخيبة مدركين أنه بقي على قيد الحياة حتى الواحد والعشرين من تشرين الثاني أي التاريخ الذي نقش فيه على الشاطئ، غير واثقين مما هو آتٍ. ترى ماذا سيقرر الربان؟ لا بد أنه سيعاند رغبة صاحب السفينة ويراهن على بضعة أيامٍ من البحث في كل الأصقاع. يبقى الاحتمال ضئيلاً ليسلك فريق البحث الدرب الصحيح ويلجون في بلدٍ مجهولٍ حتى يعثروا على القبيلة، وهذا يعني مجازفةً هائلةً لهدفٍ ضبابي وبالتالي سيعطي الربان شارة المغادرة بعد فشلهم بالعثور عليه في الشطآن، إذاً من الأفضل ألا يأتي أحدٌ للبحث عنه الآن، بعد أن تمنى بكل جوارحه وصول سفينة الإنقاذ تمنى تأخرها بعض الوقت... على كل حالٍ لن يطرح مجدداً فكرة الابتعاد عن المتوحشين فأيقن أنه بذلك لن يبقَ على قيد الحياة.

لم يتغير المنظر قيد أنملة، ذات الغابة الرتيبة ونفس النجد دون نتوء ودون أفق، والتربة الذرورية الرملية التي ترفض الأشجار، والحر الذي يزداد التهاباً بغيابٍ مطلقٍ للريح مما يزيد من هجوم الذباب الصغير والبعوض الذين استعذبوا طعم بشرته البيضاء. تبدو صفعاته وحركات يديه دون جدوى أمام لسعاتها ليس أمامه سوى أن يغطي جسده بقشرةٍ من التعرق والرمال بعد أن تجاهلته العجوز التي تثير الحشرات، لذا تناول عدة قبضاتٍ

من الرمل وغطى جسده إلا أنه لم يكن متعرقاً كفاية حتى يغطي جسده كلياً محتمياً من اللسعات.

ما توقفت القبيلة عن المسير حتى هبط الليل، وفي مكان التخييم كان «شومينو» بانتظارهم وقد أضرم النار، لم تذهب العجوز لملء القرب الفارغة، طريدة الصيادين كانت هزيلة لذلك وكما جرى في الأيام الأولى، فقَدَ حقه بالاقتراب من الموقد وتناول الطعام بمفرده، ربما لأنهم ابتعدوا عن شاطئ البحر؟ على كل حال، يجب أن ينتظر المرأة العجوز لتحمل له جزءاً يسيراً من الطعام. قاطع «شومينو» طريقها وهي تحمل له قطعة أخرى فتناولها بلقمةٍ واحدةٍ وهو يرمقه بازدراءٍ. لن يخطئ نارسيس بهذه النظرة التي يعرفها حق المعرفة نظرةُ راغبٍ بالشجار بذقنٍ متقدمة لا يلقي هذا المتوحش في قلبه الخوف، لا بل هو يستحق ضرباتٍ متتالية تثبت أنه الأقوى فلا يخاطر أحد مجدداً بإهانة بحارٍ من سان - بول.

استمتع نارسيس لفكرة إنزال عقوبةٍ صارمةٍ بهذا المتكبر ذي القامة الصغيرة، وتطبيق ما تعلمه على رصيف الميناء من ركلاتٍ ومراوغات ولكن هل من الصواب استعراض قوته أما قبيلةٍ يخمن ردة فعلها؟ فماذا لو امتعضوا من فكرة تلقينه درساً «لشومينو» وارتمى عليه رجال القبيلة لن يتغلب عليهم، عندما هاجموه في المرة الماضية عجز عن مواجهتهم وانتزعوا نصف أذنه وهو الآن لا يرغب بتكرار التجربة لذا تابع طريقه متمالكاً نفسه، ولم تحمل له العجوز مجدداً ما يأكله. يجب أن يُسَّخر ذكاؤه وقوته لإنقاذه من مصيبته، كل متوحشٍ يرسم في مخيلته خارطةً للمكان أو بوصلة تحدد له الاتجاهات وإلا فكيف غادر «شومينو» مساء أمس مع الجد ووافاهم في المكان المتفق عليه للتخييم، لا بد أن بإمكانهم ضرب مواعيد والوصول إلى المكان عينه من دروب شتى. لا بد أن يحصل على هذه المعرفة ليتنقل هارباً في المستقبل، كلما جال معهم في البلاد كلما توصل لفعل ذلك بمفرده.

كما يتوجب عليه أن يفهم لماذا يتعامل «شومينو» معه على هذا المنوال في حين يبدي له المتوحشون كافة عدم اكتراث مطلق. لعل طباعه الغريبة كانتظاره المرأة العجوز أن تزوده بالطعام بدلاً من أن يفعل هو، هي من تستفزه، لا بد أن يوضحوا له قواعد حياتهم ويعطوه الوقت اللازم لتطبيقها دون أن يضمروا له الضغينة.

بدا حقد «شومينو» المستمر والممنهج واضحاً أكثر فأكثر بل أكثر من الأيام الأولى، وهذا تصرفٌ غير لائق بمواجهة أفراد القبيلة الذين قرروا استقباله وإطعامه واحتماله. تبادرَ لذهنه قريته حيث توجه صفعة لمن يقلل من احترام ضيفٍ نزل بضيافة المختار أو الخوري أو أي وجيهٍ آخر.

إذاً ما السبب يا ترى، هل يخشى أن ينافسه على مكانته بما أنهما بنفس العمر إذا صحت توقعاته بتخمين أعمار المتوحشين؟ أم يخشى من قربه للفتيات؟ هذا غير ممكن فما أبدى نارسيس أبداً اهتماماً لهن دون مراوغة. إذاً بسبب المرأة العجوز؟ لا بد أنه يغار من اهتمام المرأة العجوز به، فهي تمده بالعلاج وتقدم له الطعام. حقاً هو لا يعلم ما السبب لكنها تعلم ما عليها فعله. ترى هل انتاب «شومينو» شعوراً دفيناً بالتهديد؟

من هو بالنسبة إليها؟ ابنها أم حفيدها أم ابن أخيها أم ابنها بالمعمودية؟ ومن هو والده؟ لا بد أن يدرك العلاقات التي تربط فيما بينهم خيراً من التعامل معهم كعصابةٍ واحدة، وبانتظار ذلك اعتبر أن المرأة العجوز أميرةٌ مسنةٌ من الطبقة المخملية و«شومينو» الأمير الفائز بالدم. فيشكل مجيء ذي البشرة البيضاء تهديداً لمكانته؟ كيف؟ ليس أمامه الآن من طريقة لمعرفة الجواب ربما يجده لاحقاً.

اعتاد في منزل عائلته أو حتى في ورشة والده على جفاء أخيه الأكبر «لوسيان» وضرباته القاسية والعنيفة والكريهة والتي سعى دائماً لردها له. اعتبر نارسيس أن «شومينو» هو النسخة السوداء لأخيه «لوسيان» بيد أنه ما توصل لمنعه كما كان يفعل مع النسخة الأصلية.

«شومينو» ليس صديقاً؟ يا للسعادة! فهو ليس بحاجةٍ لأصدقاء بل لا يريد أصدقاء من المتوحشين.

ها هو الجوع يهدد من جديد فاستلقى على الرمال مرغماً نفسه ألا يفكر بتلك الوجبات الوفيرة التي تناولها على الشطآن، لم تكن القطعة التي تناولها «شومينو» لتسد الرمق. في هذه الأدغال المترامية والأشجار المبعثرة على النجد، أحضر الرجال مساءً عدداً من الحَرابي ومن الحيوانات الصغيرة ذات الزغب، لا بد أن يفعل مثلهم حتى لا يقضي جوعاً أثناء هروبه. من يعلمه الصيد سيتخذه صديقاً...

الرسالة الحادية عشرة

فالبومران 15 نيسان 1862

سيدي الرئيس.

نُشر في العدد الأخير من مجلة جمعيتنا خلاصة جلسة الثاني من أيلول على صحفيتين.

امتنعت عن الكتابة لأسبوعٍ ونيف بعد أن أشرتم إلى الحماس الشديد الذي طغى على سلوكي دون تروٍ. أتجول مع كل صباحٍ بأرجاء القصر وأجوب المروج التي ضمَّها الشتاء تحت جنحه الأبيض وأفكر. أرجو أن تلاحظوا إن كنت مطيعاً أم لا.

(المقالات الصادرة مؤخراً في الخريف ضمن الصحافة العامة لم تلقِ سوى ضوءٍ طفيفٍ على أهمية مقالي ثم نُشر كاريكاتور لاذع للدوق مورني وهو يقترح على المتوحش الأبيض التطوع ببعثةٍ إلى المكسيك، أظن أن هذه الصورة ستهيمن على ذاكرة الجمهور حيث يرتدي المتوحش فيها قبعةً مضحكةً من الفرو وتسريحةً من الريش.)

لا أخفي أنني استشطت غضباً. أرجو أن تتفضلوا بقراءة رسالتي المؤرخة بالثالث من أيلول، إن كنتم قد احتفظتم بها. كما أرغب أن تعيدوا شريط الذكريات فإما أن كلاً منا حضر جلسةً مختلفةً إما أن ذاك الصحفي الفاشل يسخر مني. أشار إلى أسمائنا بالحروف الأولى التي بدت واضحة لنا، فيضفي بذلك ندالته ما بدر من دناءة.

في البداية، خطر لي أن أنهي اشتراكي في الجمعية لكن الخاسر الوحيد سيكون أنا لدى حرماني من هذا المصدر المهم للمعلومات.

فكرت أن أرفع دعوى! ولكن لمن ما الخطأ المدني؟ ولدى استشارتي لأحد أصدقائي المحامين ثنى عزيمتي عن ذلك كلياً.

هل أدعو الكاتب لنزالٍ تحدٍ؟ هل أضع حياتي في مرمى طلقاته؟ لن أكون أنا الجريح أو المتوفى بعد هذه الإهانة.

لم أكن أدري أن رئيس هيئة المجلة، حسب قوانين الجمعية، لا يتبع لسلطتكم بالطبع لا أريد إقحامكم بالأمر كشاهدٍ أو أن أحرجكم بشيء بيد أن علاقتنا الضاربة بالقدم تفرض علي إخباركم بما جرى.

سأوجه لرئيس الهيئة ملاحظة ليتم تصحيح الأخطاء الوارد ذكرها في أخبار العدد الصادر في خريف - شتاء 1861. لا بد أن جوابي ذا التسع عشرة صفحة سيدعكم تبتسمون فهو أطول حتى من المقال الذي تم انتقاده، إلا أنني انتقدت كل الحماقات المرتكبة صغيرها وكبيرها، وسأعرف إن كان هذا الرجل شريفاً أم لا إذا ما نشر رسالتي بالكامل أو جزءاً منها أو لا يشير إليها.

لم يخمد سعير غضبي فأولئك الذين لم يتسنَ لهم حضور الجلسة لن يعرفوا عن مأساة نارسيس بيللوتي سوى هذا الكاريكاتور الذي تم عرضه للمتسكعين كظاهرةٍ مزيفة بشكلٍ متقن. لمست في هذا الميل الهازئ إهانةً لصديقي البائس ولي أنا بلٍ لو فحصّنا ملياً لوجدنا فيها إهانةً لكم فلستم رئيساً لسيرك.

لقد تسبب ذلك الملخص الكاذب بجرحي ويصعب علي وصف ألمي إذ رأيتُ جهودي لعام ونيف تذهب أدراج الريح بالإضافة لطاقتي ورحلاتي بل، لا بد من ذكر، قسمٍ من ثروتي التي وهبتها للمغامرة التي عاشها نارسيس بيللوتي، كل ذلك تبدد ليصبح حفنةً من الأخبار البائسة إنني أرى ظلماً لي وخسارةً للجمعية أن يأخذ المحرر الفاشل منظار الكذب والنميمة

لا بل الجهل من رواية سعيتُ بصدقٍ لإظهار حقيقتها من خلال تعليقي أمامكم على الجلسة العامة.

هل سيقتصر تقدير أهمية هذه المغامرة على جلالة الإمبراطورة؟

تتيح المجلة صفحاتها أمام ذوي قامات قزمة ليعبثوا بنصاعتها مهملةً نارسيس بيللوتي الذي أبدى شجاعةً تفوق شجاعة أعضاء الجمعية وهو مجرد حارس مخزنٍ من الدرجة الثالثة. ستعنفونني لا محالة بسبب هذه الملاحظة الفظة ولكن آمل أن تجيبوني بصدقٍ من الذي يستأثر بإعجابٍ أكبر؟ السيد دوسوز الذي دوَّن ملاحظاتٍ سريعةً قبل أن يذهب لحضور فيلمٍ في صالة السينما، أم نارسيس بيللوتي الذي تتلاطمه هبات الريح ويقع بين فكيّ البحر حيث الملاحة من جهة والعواصف العابثة بعرض البحر من جهةٍ أخرى؟ هل يستحوذ على التقدير أكثر ر. ب. لوري المتآمر حتى بما يلتمس أم نارسيس بيللوتي الذي انكبَّ على مهنةٍ جديدةٍ ليتعلمها بحماسٍ شديدٍ بابتسامةٍ لا تخبو، مادأً يد العون لأصدقائه؟ من يستحق منا احتراماً أكبر السيد كوليت هنيسباس الذي لملم ثروته من المهد وعاش بكنف أب ورث منه أعماله المزدهرة أم نارسيس بيللوتي الذي تتلخص ثروته بالقميص الذي يدثره معتمداً على مطبخ الحراس في المنارة ليلاقي ما يسد الرمق كل يوم؟

لدي طبعٌ سيءٌ بأن غضبي يطغى على المنطق ولكن ألم أكن في مرمى الشتائم؟ لو سمحت لنفسي لتابعت على هذا المنوال لصفحاتٍ وصفحات حتى أثير حفيظتكم لكنني أؤثر أن أخبركم عن «ري» التي عدتُ إليها منذ شهرين بدلاً من المضي بهذه اللهجة الفظة.

استقبلني حارس المخزن الجديد كما لو أننا التقينا ليلة أمس بتلك الابتسامة الراضية والمزاج المعتدل الذين لا يفارقونه أبداً فهل هي وليدة حكمة بليغة أم مجرد قناع؟ بدا الوفاق مهيمناً بينه وبين أصدقائه الذين تثلج صدرهم سعادته ويلقون على كاهله بعضاً من المهام الجسام الموكلة إليهم فيؤديها دون عبوس.

أما الموهبة التي تم اكتشافها فهي صيد السمك بخطاف صغير صنعه بنفسه يعلقه بقدمه في ثقوب المياه فلا يخيب بصيده أبداً، حافياً على الساحل الرملي الذي يتردد إليه في فراغه مستفيداً من الجزر بأقصاه. يراه رئيس المحطة في سكون الليل يتجول على الشطآن غير آبهٍ بالطقس السيئ، فأقلقه أمره لذا أسدى له نصحاً بتوخي الحذر حتى اعتاد على عودته في حلكة الليل عظامه مبتلّة وجرابه مليءٌ بالأسماك. كما لمسوا موهبته بجمع تشكيلة واسعةٍ من الأصداف حتى وصل الأمر بأصدقائه إلى السأم الشديد، فهم يتوقون أحياناً لتناول اللحم لذلك كان يحمل في بعض الأحيان سلته إلى القرية ويقدمها لمن يرغب. شدتني هذه الأسرار القادمة من استراليا، أخبروني أيضاً أن له «عيني قطط». لم يتسنَ لي التحقق من ذلك إذ يبدد قنديل الغاز والمشكاة عتمة الليل، إلا أنه - حسبما روي - يتنقل تحت الأسقف المائلة والممرات عديمة الضياء كما لو أنه في وضح النهار فلا يصطدم بالأثاث إلا في حلكة الليل بانعدام شعاعِ نورٍ. لابد أن هذه القدرة على تطويع العتمة تطورت في استراليا حيث التخييم في العراء والسهر والصيد الليلي.

هلا سمحتم لي بذكرِ موقفٍ أخر. رافقت نارسيس عندما توجه إلى الشاطئ لاصطياد السمك و بحوزته خطافه، وهو نوع من الحراب الذي يفعل به العجائب. لم أطرح عليه السؤال «كيف صنعته» لأنني على يقينٍ أنه لم يلقَ جواباً، قلت له فقط: «نارسيس أرغب أن اصطاد السمك أيضاً هلّا صنعت لي واحداً؟»

شرع بصنعه للتو دون أن ينبس ببنت شفة. كسر غصناً من دغلٍ خشبيٍ على الشاطئ وشذب غصيناً، بدا شكل الأداة غامضاً، ثم اختار بعنايةٍ فائقة حصاةً لم تبدُ لي مختلفة عن غيرها، لكنه استخدمها لقطع الغصن وشحذ رؤوس المذراة بحركة كبيرة قاسية على طول الذراع الأيمن، لا كما يمكننا أن نشحذه بسكين بل داعب القطعة الخشبية منتزعاً السماكة الدقيقة كان عمله صبوراً ومتقناً تماماً، وما أخطأت أياً من ضرباته الهدف حتى أصبحت دائرية الشكل كما لو أنه صنعها بالمخرطة وصقلها بورق زجاج، حقاً سينال صنعه

إعجابي حتى قبل أن ينتهي. نظر من حوله مجدداً ثم لملم من أحد التجاويف كدسةً من حزاز الصخر وبقايا أوراق ثم صنع كومة مرتبة بين ثلاث صخورٍ، وحضر قطعتين من الخشب القاسي وحكها ببعضها حتى حصل على دخانٍ دسه تحت حزاز الصخر فتولدت شرارة تلو الأخرى حتى التهبت نيرانه وبدأ ينفخ بخفة ثم أضاف بضعة أغصان حتى حصل على نارٍ لطيفة.

تناول الحربة ومرر رؤوسها بالنار حتى تقسو وما إن توهجت وبدت مستعدةً للاشتعال حتى بللها بمياه البحر وتتالى الحر والبرد عدة مرات. قدمها إليَّ على أنها أمر طبيعي وبديهي ما لمست فيه فخراً أو غروراً أما أنا فبقيت مدهوشاً فاغر الفاه وذهبت لأصطاد معه السمك وما تمكنت من اصطياد سمكةٍ واحدةٍ في حين أنه ملأ سلته.

أذهلتني هذه المهارة التي أبداها، سأحاول إقناعكم بالأمر، سيدي الرئيس، تخيل أن أحد أعضاء جمعيتنا تُرك على شاطئ «ري» في إحدى الأمسيات الشتوية ترى هل بوسعه بأقل من ساعةٍ من الوقت أن يشذب خطاف ويضرم ناراً ويصيد السمك.

ما قام سوى بتكرار ما تعلمه خلال إقامته عند المتوحشين، إذاً لدى المتوحشين معارفاً هامة؟ ما هي؟ ما هي الثروات الأخرى التي يحملها؟

نزلت إلى القاعة العامة في النزل الذي يعد الوحيد في المنطقة، كنت أنتظر مساءً وقت الحساء حين تناهى لمسامعي كلماتٌ غريبة لأربع قرويين يتجرعون كؤوس النبيذ على المائدة المجاورة وهم يتحدثون عن الكل واللاشيء بالوقت عينه فجعلتني إحدى عباراتهم المفككة أصيخ السمع: «كنت عائداً إلى منزلي في يوم أمس فشاهدت في عتمة الليل مجنون المنارة الذي ما زال يصطاد السمك؟»

هكذا يلقبون الموظف الجديد في منارة «بالين» «مجنون المنارة»، لقد ذكرها الرجل ولم يرمِ شراً بها، أنا نفسي سجلت أشياءه الغريبة لئلا استاء منه. وجدتُ هذا النعت جارحاً لكنه أفضل من تلك العبارات المكتوبة.

ترى هل كان هؤلاء الرجال على حق، هل نارسيس مجنون؟

تهـزُ المـصائب بـشدتها الأرواح الأكثـر صـلابة وترميهـا في هدهـدة الجنون، لا بد أن البحار بيللوتي أمضى بين أحضان المتوحشين الذي يأبى التكلم عنهم لحظات شديدة الرعب. تخلَّص من ثمانية عشر عاما قضاها هناك بأن رمى عليها نقاباً لا يمكن بذلك الولوج إليها، ترى هل يَكمن جنونه هنا أم أن هذا شكلاً من أشكاله؟

يا للهول! ترتعد فرائصي جراء هذا التفكير، لا يمكنني وصف ما ينتابني. ترى هل نارسيس حقاً مجنون وأنا بعطفي عليه حرمته من الطبيب والعلاج، مجنون! إذاً لن ننهل منه المعلومات، يا إلهي! لقد أضعت وقتكم ووقتي. شيءٌ ما في داخلي رفض هذا الحكم الجائر، للبت بالأمر كان لابد من الاطلاع وربما زيارة مستشفى المجانين لدى عودتي إلى اليابسة.

تخبئ لنا الأيام في طياتها مشاهد جهنمية تفاجئنا بها، تأبى ريشتي عن تدوين ما اكتشفت، ما هو الجنون أو بالأحرى من هم المجانين وما الطرق التي يُعاملون بها دون أن يبرأ منهم أحد. كما أجريت بعض الحوارات مع أطباء عقليين رفيعي المستوى. طبعاً، لن أجازف بتعريف الجنون بشكلٍ عام لكن ما استخلصت مما رأيت وفهمت من لقائي مع أفضل الأخصائيين أن نارسيس ليس بمجنون، إنه لا يعاني ولا يسبب العناء للآخرين كما أنه لا يرفض العالم الذي يعيش فيه ويدرك تماماً من هو. لعل صمته عما مضى هو حنينٌ ضاربٌ بالعمق لا سبيل للتعبير عنه أو ما خلفته المحن من ندبٍ لا توصف أو دعني أقول فكرة غريبة لعلها الفكرتين مختلطتين معاً. لو سلطت الضوء على نفسي كأحد العلماء المشاهير لوجدت أنني أكن حنيناً صامتاً لسماء المحيط الهادئ، ترى هل أنا مجنون أيضاً؟ كم قدم نارسيس بهذه الملاحظات المتناثرة عبثاً إلى العلم وكم أجحفت المجلة بحقه بنشر صفحتين محدودتين ومعيبتين عنه. لن أنسَ ما حييت الشتيمة التي وجهتها لي المجلة بيد أنني راضٍ تماماً عما أقدمه من ملاحظات وأفكار عن نارسيس، لا بل هي من طبيعةٍ مختلفةٍ كلياً.

صدقوا، سيدي الرئيس....

12

كرّس اليوم التالي بكامله للمسير.

لحقت به إزعاجات الليلة السابقة، فانكب على إحضار الرماد من النهايات الكلسية للعظام والريش التي سحقها بين يديه ودعك جسده بهذه العجينة الضاربة للسواد وغطى نفسه بالرمل. هل يعقل أنه هو البحار المرح على متن سان بول؟ هذا الشبح العاري الملتحي المغطى بالعرق والتراب والملطخ بالدهن والسخام ويحمل قربتين مصنوعتين من مثانة حيوانٍ ما.

فسحت الغابة المجال لشيء ما يشبه الصحراء حيث لا شجرة تنمو ولا دغل فقط طاقةٌ من العشب الجاف. كست تربة حمراء أماكن ممزقة ومنهارة، يعلوها الحصى ذو الصبغة نفسها. تترامى هنا وهناك أكوامٌ من صخورٍ بيضاء يحززها لونٌ رماديٌ. غاب السهل تاركاً الأرض لأنامل الوديان السحيقة ذات المنحدرات القاسية، تتالى الوديان كبحرٍ هائج فلا تكشف قممها سوى جوف وحدب ما يليها. منظرٌ رتيبٌ وشاهقٌ ومرهقٌ لمن تجهز له بقبعةٍ وحذاءٍ خاصين ووجبةٍ شهية تملأ بطنه فكيف بالنسبة لنارسيس الذي تسلخت أقدامه على هذه الأرض الساخنة. كابد الأطفال أيضاً بالمسير بيد أنهم ما كانوا يبكون، لم يبكِ أحدٌ منهم لكنهم يسحبون أرجلهم ويرتمون على أمهاتهم ليحملنهم بين أذرعهن.

يسلكون دائماً جهة الغرب بوجهتهم إذا صح تقديره. ترى هل

سيجوب استراليا برمتها على هذا المنوال؟ وماذا سيفعلون في هذا البلد البائس الفقير بالمأكل والمشرب؟

ما لاح آخر الصباح حتى تحولت القبيلة إلى طابورٍ طويل في آخره الأكثر ضعفاً الذي لم يعد بوسعه اللحاق بالرجال. فاحتموا بفيء صخرةٍ هائلة بحجم مستودع الحصيد ظلها واسعٌ لا يمكن الاستهانة به ولا بما يكسوها من أشكال عشوائية تعطي الظلِ ظلاً أكبر. ثم تقاسمت القبيلة بعض الزواحف بالكاد مطهوة وما تبقى من مياه. روى نارسيس ظمأه ببضع جرعاتٍ لكنه توجس خيفةً فحوالي أربعين شخصاً وبينهم أطفال سيجوبون الصحراء دون قطرة ماء.

ابتلع جوف الصخرة القبيلة كاملةً للاحتماء من أوار الشمس وبعد ذلك عادوا إلى المسير أما الرجال فخبوا بالمسير واختفوا تاركين «للقائد» مهمة إرشاد القبيلة. تقهقر الصعود والنزول المضنين أمام سهلٍ أحمر اللون يسيراً والذي اختفى فجأة ليترك مكانه لأدغالٍ مترامية وأشجارٍ خيموا في فيئها. وبعد برهة، لوحت العجوز بقربتين ممتلئتين بالماء ثم غادرت مجدداً لتأتي بالمزيد، أما نارسيس فقد نال منه الإعياء فما عاد قادراً على التفكير بالغد. قبّل الغسق وجه الأرض، فأقبل «ذو الأنف المكسور» حاملاً بين يديه قطعةً من اللحم مقطوعة أو منزوعة الجلد والوبر ثم أخبرهم شيئاً ما وألقى طريدته أرضاً واستدار نصف دورة. تسابقت النسوة لإيقاد النار التي كادت تخبو أما الفتية فلحقوا بالصياد. أقنع «واياك» نارسيس بأن يتبعهم معتمداً على الإشارات بالحوار.

وصلا بعد سيرٍ دام حوالي ربع ساعةٍ حيث كان «كير مارك» و«سيكاتريس» قد بدأا بتقطيع الطريدة قبل أن يسعفهم العون، فتساءل نارسيس في سره كيف تمكن هؤلاء الثلاثة معزولي السلاح من قتل حيوانٍ أكبر منهم حتى ولو كان بحوزتهم عصا أو حجارة أو سهام؟ وما هو هذا الحيوان الغريب الذي يزن عجلاً جيد الحجم، برأسٍ نحيفٍ

وزغبٍ أصهب أما القائمتان الخلفيتان فمتفاوتتي الحجم وله ذيلٌ طويلٌ وقوي؟! شق الصيادون الجلد على طول المفاصل بالحجارة التي حملوها ثم لووا الأعضاء بكل الاتجاهات حتى انتزعوا قطعاً من اللحم وأعضاءً تقطرُ دماً. حام عددٌ هائلٌ من الذباب فوق هذه الملحمة التي عبقت برائحة الدم والموت. بسرعةٍ تحول الحيوان إلى أجزاء فحمل كل واحدٍ ما وسعت يداه وخلفوا في المكان فقط نهايات الأقدام والعمود الفقري والقفص الصدري. لاقت هذه الوجبة الوفيرة ترحيباً حاراً خاصةً بعد ذلك العبور المضني لرمالٍ مقسّاة، أما «ذو الأنف المكسور» فحمل بين يديه الرأس فخوراً بانتصاره الذي انقلب غروراً عندما رأى خيبة مجموعة الصيد الأخرى.

سال لعاب نارسيس متلذذاً برائحة اللحم وهو يُطهى قبل أن يصل إلى المخيم وتوضع الطريدة على النار. لابد أن ينتظر دوره بعد أن يتناول الرجال حصصهم لكن لن يتشاجر «شومينو» معه بوجود وليمةٍ كهذه.

مكثوا جمعياً طيلة اليوم في المخيم يأكلون وينامون. مع فجر اليوم التالي غادروا المكان متجهين نحو الغرب وجهتهم الدائمة، ساروا لنصف يومٍ تقريباً وفي منتصف اليوم لاح تلٌ رملي كما بدا للوهلة الأولى وكلما تقلصت المسافة تكشفت صخرةٌ عالية كالجبل بيضاء كالحليب.

صدفةٌ ملساءٌ ببياض ضارب للوردي تغفو بشكلها البيضوي على الأطراف وتبتلع الأرض نصفها السفلي، لا تنبت عليها لا شجرةٌ ولا أعشاب بل لا تربةَ مكومة إذ لا حفر تنقط السفوح. هذه الصخرة الهائلة لا مثيل لها في الأفق. يخترق ترابها الأحمر الرملي ثلمٌ متعرجٌ من الأسفل حتى القمة يفسحُ سبيلاً لعبوره.

يبدو للقادم من «الڤاندي» أنه بارتفاعٍ يناهز المئة متر لتوحي أطرافه الوعرة بأنه جرفٌ صخريٌ.

تابعوا المسير لثلاثة أيامٍ متتالية باتجاه الغرب فقطعوا على الأقل

عشرة فراسخٍ. هذا الجبل الشاهق لا يلوح له أثر من سفينةٍ تمخر عباب البحر بل ولم يُرسم على أية خارطة. ترى هل سيشعر بضياعه هنا أكثر مما شعر على تلك الشطآن المهجورة؟

لم يطئوا سفوح الجبل حتى حلَّ المساء، حيث عثروا على سهلٍ مجدبٍ تكسوه جنباتٍ موجعة. تغفو في تجويفٍ خفيف غيضةٌ من الصفصاف المتهدل المهيبٍ أو لعله ابن عمه الاسترالي، تأخذ شكلاً بيضوياً على تخمه مرجٌ من العشب الأخضر الكثيف حيث تعبث نسمات الهواء العليلة مصدرةً خفيفاً رناناً. هنا سيخيمون.

ساد شعورٌ غامضٌ فلم يعودوا يتحدثون كثيراً بل وخفضت أصواتهم حتى الأطفال تأثروا بالمكان وخاصة من يقاربون «واياك» بالعمر.

مع بزوغ الفجر تربع القائد - لماذا يا ترى لقبه بهذا الاسم؟ - وبدأ يتمتم دون توقف، يرتجل أكثر مما يرتجل مرتجلٌ أو خطيبٌ على المنبر، وبقية القبيلة يجلسون بقربه ليصغون إليه تارة ويمضون في حال سبيلهم تارة أخرى دون نظامٍ أو سببٍ واضحين. لم يتوقف المنشد لا لتناول الطعام ولا لرشف الماء، حتى عندما اعتلت الشمس عرش السماء ظل يجدل الجمل بعضها ببعض، استمر لاثنتي عشرة ساعة دون انقطاع أو أدنى تردد، لم يبدِ فرحاً ولا خوفاً ولا غضباً ولا دهشةً. لعل ما يقوله هو «الإلياذة و الأوذيسة» الخاصة بالقبيلة، أو كأية قائمة أخرى لأسماء الأسلاف أو الأحداث أو لعلها أسماء الأماكن والحيوانات. يوماً ما تلجلج نارسيس بهذه النبرة ليكرر قائمة المحافظات والمقاطعات الفرعية وجدول الضرب لكنه لم يتمكن من المتابعة رغم كل ما أنزل به الأستاذ من ضربات...

ارتمت الشمس ململةً أشعتها خلف الأفق عندها لاذ القائد بالصمت وعاد الجميع ليمضون أمسيةً عاديةً.

حلكت عتمة الليل، فاجتمعت النسوة مع أطفالهن يسود صمتٌ تام

كما لو أنهن باستجمام ثم بدأن بحلق الشعر الذي يغطي رؤوسهم كذلك فعلت المرأة العجوز مع نارسيس فمرر أصابعه عندما فرغت من عملها على رأسه الحليقة فلامس الحدبات والحفر التي ترتسم عليها.

جلس بقرب «واياك» وأمسك يده بهدوء دون أن يفكر.

تغفو يد الطفل في يد الشاب بين أنوارٍ ضاربةٍ للحمرةٍ تشعُ من الموقد، أمضيا معاً وقتاً طويلاً صامتين دون حراك يتلذذان بالأمان الذي يتبادلانه معاً.

في هذا النور الخافت، يدٌ سوداء تضم يده.

اليوم التالي كان في أحضان هذا الجبل المميز.

الرسالة الثانية عشرة

فالومبران 05 كانون الأول 1862

سيدي الرئيس.

أستبيح وقتكم الثمين مرةً أخرى لأتحدث عمن عهدته بكنفي.

مع مطلع كل شهر وكما اتفقنا يرسل لي رئيس منارة «بالين» تقريراً مع رؤوس أقلامٍ عن نارسيس بيللوتي. ببضع كلماتٍ وصف لي هذا الرجل الممتاز سلوك نارسيس، بالنسبة لعمله كحارسٍ مخزن فليس هناك ما يستحق الذكر فهو مطيعٌ لا بل أكثر من ذلك هو مخلصٌ بالعمل وشجاع لا يصاب بالكلل والملل، يتحلى بمزاجٍ معتدلٍ وهو رفيقٌ جيدٌ.

إذا استعاد قدرته على القراءة والكتابة لأصبح العامل المثالي.

بدا جلياً للعيان تأقلم نارسيس السريع ودون صعوبةٍ تذكر على هذه الحياة في منطقةِ رأس «ري»، لكن المشكلة التي تظهر أمامه هي عدم قدرته على فهم معنى الملكية فهو يعطي قبعته وسترته لمن يحتاجها، ويأخذ بالمقابل ما يحتاج دون مكرٍ مقصود فاعتاد أصدقاؤه على هذا السلوك الغريب الذي بدا للوهلة الأولى نشلاً. أما ما يتقاضاه مع نهاية كل أسبوع، فيأخذ منه رئيس المحطة ما هو ضروري للباس والتدفئة أما ما تبقى فيتسرب بين أصابع نارسيس لدى بقال القرية ليبتاع بعض الدمى الملونة والسكاكر للأطفال وبعض الدخان لزملائه إذ لمح شراهتهم له.

تـرى هـل يلاقـي مـع فتيـات «ري» نجاحـاً كمـا لاقـى في بـاريس ولندن؟

خلتُ أن زمـن الأسئلة قد ولّى لدى عودتي إلى «ري» في آب 1862 حيث وجدتُ نارسيس سعيداً، كيف يمكنني التأكد من هذا؟ دعني أقول على كل حال هادئ ومرتاح في حياته الجديدة حيث يسود تناغمٌ لطيفٌ بينه وبين الحراس الخمسة الآخرين ترعاهم أنظار رئيس المحطة الأبوية. سررت برؤيته ببشرةٍ وردية ووجنتين ممتلئتين بعد أن خلع حروق الشمس عن بشرته الجافة و عضلاته المفتولة.

فوجئت بالتقرير المرسل في تشرين الأول والذي وصف لي نارسيس «حزيناً بعض الشيء على الأولاد». بعد عدة مراسلات توصلت لمعلومةٍ دقيقةٍ إذ خُيل إلى رئيس المحطة بأنني ملمٌ بكل ما يتعلق بنارسيس.

فقـد أحـد الحـراس ابنـه الوحيـد ذا الـثلاث سـنوات. في إحـدى السهرات اجتمع نارسيس مع زملائه ليمدوا يد العون لصديقهم ويؤازروه في محنته هو وزوجته، تبادلوا بعض العبارات التي تمليها ظروفٌ كهذه، فطرح الأب الحزين سؤالاً على نارسيس دون أن يدقق فيه كثيراً:

- «وأنت هل لديك أولاد؟.»

- نعم، اثنان

- صبيان.

- صبي وفتاة.

- وما أعمارهما؟

لم يجب نارسيس مباشرة لكنه قاربهما مع أطفالٍ آخرين يعيشون في المنطقة فأشار لصبيٍ بعمر الثامنة وفتاة بعمر الخامسة. وبعد هذا الحوار المقتضب الذي لم يعره أحد انتباهاً ساد صمتٌ حزينٌ.

وفي الأيام التالية ظلّ نارسيس حزيناً «بسبب الأولاد».

صُعقت بهذا الخبر فهو لم يشر أمامي أبداً لهؤلاء الأولاد، لقد ظل صمته مستحيلا يتعذر سبر أغواره لا يتحطم إلا بانفعالٍ عنيفٍ يحول بينه وبين الاحتفاظ بسره الدفين الذي يبدو أنه قد قطع عهداً بكتمانه، ما هزه سوى إعجابه بفخامة الإمبراطورة وألمه لمصيبته صديقه.

ذكرتُ في الرسالة المؤرخة في الثاني من آب من العام المنصرم بأن العثور على أطفالٍ هجناء هو الشاهد الوحيد على وجود غريقٍ منسي في المكان وذلك بعد التمحيص بالوثائق التي أرسلتموها، يالعمى البصيرة! كيف لم أطبق هذا على نارسيس؟

كان لابد أن يسهل فهمه وننتزع منه بضعة اعترافاتٍ هامة ولكن الفرص التي لا تُنتهز تولي دبرها إلى غير رجعة.

لم يعد على اطلاع على أنبائهم منذ سنين، ولا أنباء عن والدتهم أو والداتهم؟ ما اشتكى قط بل لا يشتكي أبداً بل إنه لم يذكرهم قط. حاول رئيس المحطة بناء على طلبي أن يحدثه عنهم ليحصل على أسمائهم فقط ولكن عبثاً، إذ لم يحصل من نارسيس سوى على ابتسامة لا تقدم أية معلومةٍ إضافية عن الفتاة والصبي الذين تركهم هناك.

بالطبع شغلني للتو أمر لم شملهم.

خطر لي في بادئ الأمر أن أزور سدني وأنظم بنفسي بحثاً عن الأطفال. وافقت أختي بلطافتها المعهودة على غيابي مجدداً وأنا بصحةٍ جيدة بما يلزم من زمن لهذا المشروع، إذاً ما عاد يُلزمني أي شيء البقاء في ڤالومبران حتى نارسيس لم يعد بحاجة إلي، استفسرت عن الرحلة القادمة إلى استراليا وابتعت بعضاً من الكتب لأكافح ملل الرحلة الطويلة.

ولكن ماذا سأفعل هناك؟ سأطأ الشاطئ حيث عُثر على نارسيس وانتظر؟ انتظر ويطول انتظاري لأسابيع حتى يظهر المتوحشون ويقدمون الأطفال لي؟ بينما فهموا هم رحيل نارسيس كخطفٍ ربما وهم منذ ذلك

الوقت يخشون ذوي البشرة البيضاء؟ كلا لا يتوجب علي الاعتماد على إرادة المتوحشين الحسنة فأذهب على رأس بعثةٍ حقيقية بما يتبعها من مهام مثل توظيف مجموعةٍ من الرجال الأشداء ونومٍ في الخيام، استكشاف ورسمٍ على الخارطة وسبر بلدٍ مجهول لأسأل عن المتوحشين في كل اتجاه والذين يمكن الحوار معهم، أنا لا ألاقي نفسي في هذه الأماكن وهذه المهام بل لن أثق بنجاحٍ مغامرة كهذه دون خبرةٍ كبيرةٍ. كلٌّ في مكانه له دوره ووظيفته. إن المشروع مشروعي ولابد أن أهب نفسي لما هو أساسي لذا يمكنني متابعته عن بعد، ربما من سدني لا بل من فالومبران لابد لي من رئيس للمجموعة في سيدني فأكون أنا المسؤول العام عن هذه الحملة، صديقي «هاري ويلتون سميث» سيفي بالغرض فهو تاجرٌ ذائع الصيت في الجالية هناك وهو شخصٌ فعّالٌ ودقيق سيتمكن لا محالة من تحديد الوسائل الكافية للعثور على الأطفال والعودة بهم إلى الوطن.

أرسلت إليه رسالةً مطولةً اقترحت فيها أن يطلق حملاتٍ استكشافية على حسابي الخاص وليحدد عدد الرجال الملائم وأرفقتُ مشروع عقد وكمبيالة، ليس لدي أدنى شك بموافقته. كما سيكلف شخصاً ما بقيادة هذا البحث المتشعب انطلاقاً من الشاطئ حيث عثرت سفينة «جان بيل» على نارسيس وهو يلملم الأصداف. مسؤولياته عديدة فهو من يراقب مؤونة الحملة ونقلهم ويحدد الممرات اللازمة لمعاودة الرحلة حسب الفصول كما لابد من استقصاء أي شائعة تتعلق بأطفالٍ هجناء صبي وفتاة بعمر الثماني والخمس سنوات.

التعليمات المملاة على قائد الحملة بسيطة تتلخص بالعثور على أطفال فرنسيين من أبٍ فرنسي واصطحابهم إلى فرنسا يفضل أن يتم ذلك بالرضا وإلا فالبقوة إذا لزم الأمر أما الأم فلتبقَ لدى أهلها حتى ولو أبدت رغبةً باللحاق بهم، يجب أن لا تُعامل بعنف خاصة على مرأى

الأطفال ومسمعهم. ما الذي سيضمن أن الأولاد هم أبناء نارسيس؟ لا أظن أن يخطئوا مع أخٍ وأختٍ هجناء بعمر ثماني وخمس سنوات رغم ما ذكره ربان سفينة «جان بيل» صراحةً بأن رجاله غالباً ما يمضون وقتاً على اليابسة مع النساء المتوحشات وقد ينتج عن هذه التسلية أطفال هجناء أيضاً.

أعلق أهمية كبرى على ملاحظاتٍ علميةٍ واقعية حول تطور هذين الطفلين لذا طلبت بإلحاح ألا يتم الحديث معهم كثيراً، وإن جرى فبالانكليزية وذلك لأكون أول من يتحدث إليهم بلغة والدهم، إذ سأوافيهم بالسرعة القصوى إلى لندن ما إن يتم العثور عليهم و اصطحابهم على متن أول قارب إلى أوروبا.

بالحقيقة، عَرف العلم حالاتٍ من التهجين ما بين ذوي البشرة البيضاء والزنوج ويقدم ربع جزر الأنتيل التسلسل بالكامل. كما تقدم «البولينزي» وجزر المحيط الهادئ أمثلة كثيرة. ولكن حسب علمي فلم تتم دراسة حالات التزاوج ما بين ذوي البشرة البيضاء ومتوحشي استراليا رغم ما خُمن من حالات لبعض البؤساء الذين يحط بهم المطاف في أعماق سدني وبهذا سيقدم هذان الطفلان فرصةً فريدةً لدراسةٍ مستحدثة.

سيخطون ببطء كوالدهم من قبلهم نحو الحضارة بما تخفيه من حسناتٍ، ويتخلون رويداً رويداً عن عاداتهم الغذائية ولسان قومهم وعاداتهم وللأسف قد يرمون ذكرياتهم برمتها أو جزءً منها. لا أكترث لفكرة إحضار فرنسيين ولو من الفئة الأخيرة ولكن ما أعلق عليه أهمية كبرى هو ملاحظة التحول الذي يطرأ كل يوم ليتأقلما مع شروط حياتهم الجديدة وتدوين ما تكشفه اللعثمة والأخطاء عن حياتهم الأولى!

كانت رحلة نارسيس نحو عالم ذوي البشرة البيضاء رحلة عودة بيد أن صمته ما زودني بما تأملتُ من معلومات عن العالم الآخر، وأنا

الآن لم أعد آمل منه بشيء فهاهم الأبناء الذين لا يحملون في ذاكرتهم أثراً لعالمنا سيأتون من صحرائهم وسأنهل من معلومات قيمة يقدمها لي جهلهم وسذاجة عمرهم وفرحتهم العارمة بلقاء والدهم.

لا أبد أن صدمة نارسيس بلقاء أبنائه ستدفعه ليكلمهم بلغة المتوحشين فيتحدث عن ذكرياته معهم، شيء ما يوحي لي بأن وجود أبنائه كأول من يصغي إليه سيجعله أكثر سعادة وحرية.

لن أنسَ ما حييت السؤال الذي طُرح في الجلسة العامة لجمعيتنا في الثاني من أيلول من عام 1861 والذي وضع ذكاء نارسيس موضع شك، فلو أنه رجلٌ مثقفٌ لما كان ليتخلى عن ثقافته رغم ما تعرض له من مصائب. لست مقتنعاً بهذه الفكرة لا بل أجدها مخطئةً تماماً وآمل أن يساعدني الأطفال على دعم فكرتي.

هل بوسعكم سيدي الرئيس أن تتخيل جلسةً عامةً جديدةً يحضرها نارسيس وبجانبه ابنه وابنته فيروي فضول الأعضاء ويقدم كل ما يعرف عن شمال شرق استراليا، لابد أن المنبر سيسلم له.

آه! لابد أن تتهموني بأني اترك نفسي أحلق على جنح الخيال وأصدقه.

تفضلوا بالقبول سيدي الرئيس....

ملحقٌ للرسالة: هل لاحظتم سيدي الرئيس مثلي أن المجلة لم تنشر في عدد ربيع - صيف 1862 سطراً من إجابتي واكتفت بصفحتين غبيتين مخادعتين كتقريرٍ عن هذه القصة. أما أنا فبدأت بترتيبٍ للأحداث، كل الأحداث بما أمكنني من دقة مضيفاً ملاحظاتي وأفكاري، لست أعلم كيف سيكون شكلُ هذا العمل لكنني آمل أن يغنيه الأطفال.

لا بد أن أشير إليكم بأنني استقبلت سيلاً من الرسائل في الأشهر التي تلت نشر ذلك المقال الكريه. كان أغلبها من أوروبا يهنئني على

نارسيس وبعضها على العِلم الذي املك وآخرها على ما أبديت من دينٍ وأخلاق.

لا أنكر أن طيفاً من الزهو قد أصابني فطالما شعرت بوحدتي في هذه المغامرة التي شارفت على إنهائها وما زال الشك يساورني عن حسن تصرفي، خلا التحية التي خصتني بها فخامة الإمبراطورة. بالحقيقة لهذا الاحترام ولو الساذج عميق الأثر نفسي لدرجة عجزي عن وصفه، كما أرسلوا تحية للبحار المسكين.

هاجم اثنان أو ثلاثة بعنفٍ وبكتابة فظة توحي أنهم ثملون أو مترنحون ثملاً، واتهموه بالخدّاع التافه فانتهت كلماتهم وقوداً لنيران موقدي.

أما «القائد فارو» الذي استعاد ذكرياته عن سنواتٍ أمضاها مبحراً في المحيط الهادئ، فجهز بحثاً علمياً يصور الوشوم لدى سكان «تاهيتي وماركيز ووال وماور» لذلك طلب مني أن أرسل له قائمةً كاملةً بالوشوم التي يحملها نارسيس من المتوحشين ليقوم بحصر الأساليب المختلفة، فأرسلت له نسخة من هذا العمل المصور مسبقاً على دفاتري.

قدم نفسه الأستاذ غوارنودي من جامعة بولونيا وهو اختصاصي بالدماغ ذائع الصيت، لخص لي أعماله والحالات السريرية الأكثر تميزاً التي اعتمدت عليها نظرياته. عرض أن يباشر بتجربةٍ تدفع نارسيس لسرد ذكرياته في استراليا. هذه الفائدة جديرة بالتقدير ولكن الطريقة المتبعة تطرح خطورة يجب التمحيص بها سيجري له عملية ثقب العظام ويشق ببضع ضرباتٍ من مبضعه مناطقاً في الفص العنقي الأيمن. فرَضَ شرف المهنة عليه أن يخبرني بأن للعملية خطورة بالغة على حياة المريض وذكائه وأن نجاحها غير مضمون.

ترددت كثيراً، فكرت أن أسأل صاحب العلاقة لكن ذلك لن يعود علي بأي نفعٍ فهو لن يفهم فحوى العملية ولا حتى هدفها. لابد أن آخذ

القرار عوضاً عنه رغم أنني لست وصياً عليه ولا تربطني به صلة رحم. وبعد تفكير عميقٍ تخلله حوارٌ مع أحد أصدقائي الأطباء قررت رفضت العرض.

بإمكانكم تخيل الفرصة التي ضاعت جرّاء غباء المقال الذي نشرته المجلة، فكم من مقترحٍ ثمين وفرضيات مثمرة كانت لتعرض لنا لو أن المقال كان صادقاً وكم كنا لنخدم العلم.

13

ترقد حفرٌ مترعةٌ بالماء في ركام صخري شعث يغفو على عقفة النهر تغطيه ظلال أشجار شاهقة تشبه البلوط، هناك عثر على آثار أقدام حيوانات أمَّت المكان لتنهل الماء.

ما إن وصلوا هذه الغابة الصغيرة حتى أيقن نارسيس أن ثمة عائلةً بأفرادٍ كُثر أو قبيلةً صغيرةً خيموا مسبقاً في المكان، بدا له أنهم يختلفون بعض الشيء وأجسادهم أقل قوة بيد أن المتوحشين الآخرين ما استغربوا الأمر كما ولو أنهم على موعدٍ معهم.

وبخَ «واياك» طويلاً خمسة أطفال جاؤوا يدورون حول نارسيس، خُيل إلى نارسيس أنه كرر مراراً كلمة «أمغلو» في مزيجٍ من الأصوات التي يتعذر عليه سبرها.

اختلطت المجموعتان رويداً رويداً وتجالست النسوة وبدأن بحديثٍ حماسي تحت ظلال الأشجار غير آبهاتٍ للأطفال الذين يعبثون بجانبهن.

أدرك نارسيس منذ زيارة الجد أن ثمة قبائل أخرى غير مضيفيه السبعة والأربعين لذلك لم يشكل له هذا اللقاء مفاجأة كبيرة، سيهيم على وجهه ويشرب الماء الأقل وحلاً.

أومأت إليه المرأة العجوز باللحاق بها بينما كان مستلقياً على العشب تحت غصنٍ متدلٍ، وكذلك دعت بقية الأطفال وقادتهم وراء كومةٍ من الحجارة الصخرية ترمي بظلالها على بضعة أقدامٍ من الحميص الهزيل

الضارب للصفرة، فانكبوا على نزع السوق الأكثر كثافة الذابلة أوراقها ثم مضغوها. سال في فم نارسيس عصيرٌ دافئٌ محلى، فانهمرت دموعه من عنف السعادة التي سرت بجسده بعد لقاء الطعم المحلى الذي غادره منذ هُجر على هذه الجزيرة.

مرَّ أمامه رجلٌ شديد البنية يحمل رمحاً قصيراً ولم يعره اهتماماً، إلا أنه شد اهتمام نارسيس بهيئته الحازمة وشعره القصير وذقنه الحليقة خلافاً للجميع. تاركاً على رقبته ضفيرة مجدولةً مع عارشة ويربطها بشريط، نعم يعقد في شعره شريطةً قطنيةً ذات مربعات يبدو أن لونها كان زهرياً والآن أصبح رمادياً شاحباً، وقف نارسيس حائراً يحاول الاقتراب ما أمكنه. إنها المرة الأولى التي يرى فيها هنا شيئاً مصنعاً. لن يعرف أبداً كيف غادر هذا القماش عالم ذوي البشرة البيضاء وأصبح زينةً لتسريحة شعر، كم استغرقت الرحلة وكم مرحلةً قطعت هل كان تبادلاً ودّياً أم صدفة أم عنفاً أم نهباً؟ سرت رعشةٌ في أوصاله بفكرة القيام بالرحلة ذاتها ولكن باتجاهٍ معاكس. دون أن يفكر، وقف أمام الرجل ووبخه مشيراً للشريط القطني وحرك ذراعيه كثيراً. ما فهم أحدٌ طبعاً ما قال لكنه تأمل أن يربط الرجل ما بين هذه الزينة الرخيصة وهذا الرجل ذو البشرة البيضاء فكلاهما غريبان عن هذا العالم؟

هل سيحزر الأمر، علّه يتأمل بأن يكافئ بأشياء تافهة كهذه لزينته إذا ما ساعده على العودة إلى ذويه.

داعب نارسيس الشريط القطني بحركةٍ مباغتة لا ليمسك به وإنما ليشير إليه فقط فجأة اختال هذا الشريط بكل آماله، لو تمكن فقط من لمسه وجعله فأله السعيد ومرشده إلى طريق العودة.

اندهش الرجل بهذه اليد البيضاء الممتدة إلى رقبته فرجع خطوةً إلى الخلف دون أن يخالجه الخوف، ترى هل نسي هذا الشريط البالي المعقود في ضفيرته؟ ترى هل يوافق على نزعه؟

فجأةً انبثقت المرأة العجوز بينهما كالسحر ووقفت بين الرجلين كما لو أنهما سيتشاجران، أو لعله كان ضرورياً الفصل بينهما ثم بدأت بحديثٍ طويلٍ توجهه لهما الواحد تلو الآخر بجملٍ قصيرةٍ جافةٍ تلوّح بتهديد. ثم أمسكت بمرفق نارسيس وسحبته بعيداً.

ما تصرفت هكذا قط لذلك استسلم لها وتبعها. لن يحصل في الوقت الراهن على أكثر من هذا البرهان الذي بلبل أفكاره كسجينٍ تلقى رسالةً في أعماق سجنه رغم أنه لم يعرف ما المنفعة المرجوة من هذا الشريط.

ارتمى تحت الشجرة خافق القلب، أما الرجل ذو الضفيرة فاختفى بين الأدغال ليصطاد. اختلط باقي أفراد القبيلة مع أقربائهم ومنهم من استسلم للنوم. ربما هم أيضاً...؟ لابد أن يتحقق من الأمر فنهض نارسيس وتسكع بينهم يتفحصُ تسريحاتهم ومعاصمهم وأسلحتهم وسلالهم. لا، لاشيء مصنوع... ما من مصنوعاتٍ زجاجية ولا معدنية ولا نسيجية، لا دليل آخر آتٍ من عالمه.

خبا الأمل الذي تمخض عنه الشريط ذو الألوان الشاحبة. ولكن لماذا؟

لماذا ينتظر دليلاً آخراً؟ فهذا الشريط القطني في الضفيرة يكفي. حقاً؟ يكفي من أجل ماذا؟ لم يعد يدري بما يأمل فكل شيء معقد كثيراً.

محاكماتنا هشةٌ للغاية لكن لا نستطيع منع أنفسنا من التفكير. تذكر الوعد الذي قطعه على نفسه بألا يُوارى الثرى هنا، لذلك لا بد من الاهتمام بكل التفاصيل.

لو كان هذا الرجل على تواصلٍ مع حامل هذا الشريط بشكلٍ أو بآخر لوافاه يوماً ما، أليس خيراً له أن يبقى إذاً بجواره؟ ولكن لا، فالقبيلة كثيراً ما ترتاد الشطآن حيث قد توافيه النجدة يوماً ما؟ كيف يعرف؟ كيف يختار؟ بعد القيلولة، كان للرجل ذو الضفيرة حواراً طويلاً مع «كير مارك»،

فاتجه نارسيس نحوه محافظاً على المسافات متحاشياً تدخل المرأة العجوز من جديد، وقال له بإلحاح وكرر على مسامعه لثلاث مرات:

«أنا نارسيس بيللوتي من السفينة الشراعية سان بول.»

لابد أن يفهم، فلون بشرته وقامته ولغته مختلفتين كلياً، كما لابد أن الآخرين قد رووا له قصة ظهوره الغريب على الشاطئ.... لابد أن يفهم؟ كيف له ألا يفهم؟ ثم مرر نارسيس مجدداً يده على رقبته مفترضاً أن أواصر قربى تربط بينه و بين هذا القماش. نظر إليه الرجل ذو الضفيرة وكير مارك بانتباه شديد وما أبديا أي ردة فعل وعندما خمد أمل نارسيس أدار عقبيه مغادراً، وهما عادا لحديثهما.

اجتمع حوالي عشرين شاباً من كلتا المجموعتين، مع مشارف المساء ومرروا فيما بينهم حصاةً ضمن نظامٍ، بدا لنارسيس، معقداً وعنيفاً وهم ينشدون غناءً رتيباً. لم يسعَ نارسيس لفهم قواعد هذه اللعبة، إذ يُقطع تمرير الحصاة من وقتٍ لأخرٍ ومن يمسك بها يغتاظ ممن أفلتها، إن كانت حقاً لعبة فهو يرغب بالمشاركة بها، على كل حالٍ، تسليةٌ يمضي بها الوقت، عندها أدرك الملل الذي يخنقه فهو لا يفهم لغتهم. ترى هل يتمكن من الانضمام إليهم فيأخذ الحصاة ويمررها لجاره، يقلدهم بما يفعلون كالقرد دون أن يفهم شيئاً دون نظامٍ ولا ثرثرةٍ تضفي المتعة، لماذا إذاً...؟!

انضم «شومينو» إلى مجوعة الشبان ثم خاطب إحدى الفتيات بلهجةٍ متسلطةٍ وصوتٍ مرتفعٍ حتى سمعه الجميع. بعد هذا الإعلان أو الإنذار، انسحب الشبان يجرون أقدامهم، قطعوا لعبتهم وتركوا له مواجهة الفتاة التي ناداها، قبض على معصمها بعنفٍ عندما حاولت أن تتقهقر مبتعدة عنه بخطواتها لا بنظراتها وأرغمها أن تأتي نحوه. لقد بدت نواياه جليةً للعيان.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يرى فيها نارسيس غنجاً وهروباً بين مراهقين وتجنباً لطيفاً، لكنه ما رأى أبداً حركاتٍ بهذا العنف والوضوح.

قالت الفتاة شيئاً ما فلكمها على وجهها حتى سقطت على الرمال، وعندما أرادت أن تنهض ارتمى عليها وقلبها على ظهرها ثم صفعها مجدداً لأنها تمنعت من جديد، توصلت إلى الهرب من بين يديه متدحرجةً على جانبها فقبض عليها وهرسها على الأرض بوزنه الثقيل وضربها مجدداً ثم ثبت يديها فوق رأسه بيمناه. لم تعد تصرخ واستمرت بمحاولة الإفلات من مهاجمها وبيسراه أبعد فخذيها بقسوة وتمدد فوقها واغتصبها.

كاد نارسيس يرمي نفسه لنجده الضحية كردة فعلٍ أولى فكيف يقف صامتاً أمام جريمة ترتكب أمام عينه على بعد عشرين خطوةً منه فقط؟ لم تكن تعجبه فكرة المشاجرة مع «شومينو».

وقبل أن يثب نحوه، نظر من حوله فوجد النسوة يتابعن حديثهن والرجال أوقفوا نشاطاتهم ليتأملوا المشهد دون أن يؤتوا بأي حركة أو أن يبدوا الحد الأدنى من الرفض، بل وأصدروا تعليقات مختصرة يبتسم لها الباقون. تخيل نارسيس أنه أمام مجموعة من الفلاحين يعلقون على قفز جذعٍ على عجلة. «العريف البحري» كان الأكثر انتباهاً يبتسم ويهز برأسه فخراً بما يرى. هل يُعقل أن يوافق على الاغتصاب؟ أم أن «شومينو» ابنه؟ لم يتحرَ عن ذلك.

أطلق «شومينو» عدة صرخاتٍ مخنوقة ثم انتهى بسرعةٍ لا بأس بها وارتمى على الرمال مطلقاً سراح الفتاة التي هربت كالنسمة.

الرسالة الثالثة عشرة

فالومبران 13/شباط/ 1867

سيدي الرئيس.

لا يسعني سوى شكركم على طرحكم لي كمساعدٍ لرئيس الجمعية في المحيط الهادئ أنا حقاً لا أستحق هذه التسمية، أرجو ألا تقرؤوا بذلك تواضعاً سخيفاً، لا يمكنني القبول بعرضكم بغض النظر إن كنتُ أستحق أم لا، لأن صحتي لم تعد حسنة كما مضى وهذه المهمة تتطلب مني عدداً كبيراً من الرحلات إلى باريس ثم إنني لا أرغب أبداً أن أواجه - بكل ما تحمله الكلمة من معنى - ر. ب. لوري في كل جلسة ومعه رئيس هيئة المجلة الذي ما أجاب وما أرسل رداً على رسالتي عام 1862 وأخيراً سيدي الرئيس، فإني لا أجد معلوماتي غنيةً كما أن رحلاتي باتت قديمةً. زد على أني لا أحب أن أكون مجرد مضيف يجتمع على مائدته كل المغادرين نحو المحيط الهادئ أو العائدين منه وذلك أول يوم الاثنين من كل ثلاثة أشهر، حيث يتوجب عليّ دعوتهم على العشاء والتعرف على مبشرين وضباط وعلماء وتجار وشعراء ليتجاذبوا أطراف الحديث.

فضلاً عن كل ذلك، لن أهدي فشلي فرحةً تثلج صدر من ينافسني، ففي ترشيحي هذا إضعافٌ لموقفي وموقفكم فأنا لم أصبح عضواً بحصةٍ كاملة إلا في أيلول 1861، أي لم يمضِ بعدُ عشر سنوات حسب العُرفِ المطبق للانتساب إلى المكتب.

تركن طباعي إلى الهدوء والسكينة التي تنشرها الجبالُ من حولي. سأستسلم سلفاً لردكم المتوقع على كل حججي، إذ ستقول لي أن هذه الاجتماعات قليلةُ العدد وأن باريس ليست ببعيدة وخاصةً من الطريق الواصلة مع «ري» والذي قمتم بحسابه مراعاةً مع قريتي ضامناً النجاح. رغم كل هذا، لابد لي من الانسحاب من أجل مشروعٍ يبدو لي أكثر طموحاً.

أما زلتم تذكرون «نارسيس بيللوتي» والذي ذكرته لكم منذ عدة سنوات مضت، أستميحكم عذراً بأن أقدم لكم أخباراً عن ذلك «الغلام» لتعلم إلى أي حدٍ ستحملني هذه المغامرة، فيبدو لكم جلياً أن مهمة «مساعد رئيس الجمعية في المحيط الهادئ» لابد أن تُمنح لمن هو جديرٌ بها حقاً.

مازال نارسيس حارساً لمخزنٍ في منارة «بالين» وما خطط شيئاً لمستقبله. ما عاد يقطن في السكن التابع للمنارة بل انتقل للعيش مع امرأة انفصلت عن زوجها هو لحامٌ في لاروشيل، كان يبرحها ضرباً. أما هي فامرأة من نوعٍ رديءٍ لا يهمها سوى ما يتقاضاه زوجها كما أنها لا تمتع بجمالٍ ولا لطافة، حسبما وصفوها، ليست شابةً ولا عجوزاً، لا شقراء ولا سمراء. لا أعرف أي تفكيرٍ دفعه إلى هذا الزواج الذي لا يتشارك فيه الزوجان بشيء. على كل حال، ما عاد وحيداً فهي تعتني به الآن وتبيع ما يصطاد من أسماك، وما يعثر من أصداف التي ما توقف يوماً عن جمعها. بدخلهم المتواضع سيعيشان معاً ويزرعان بستاناً من الفاكهة تحيط به جنباتٍ مزهرة. لمست فيه تغيراً فيبدو أنه ازداد وزناً وبات يحتسي النبيذ إذ قدم لي زجاجة نبيذ كان هو أكثر من رشف منها ثم زوجته. لكن كل هذا لم يؤثر على ثرثرته فما زال يلتزم الصمت طويلاً.

لم أعد أُزود بكثيرٍ من الأخبار وأصبحت رحلاتي إلى ري متباعدة.

أطلق السيد «ويلتون سميث» حملة البحث التي طلبتها بالحيوية

والنشاط التي عهدته بهما. اختار قائد حملة ذا طبعٍ قاسٍ، ضابطٌ قديمٌ في الجيش الهندي، كان منقباً عن الذهب ومهرباً لخشب الصندل.

استأجر لحسابي مركباً شراعياً ذا صارٍ واحدٍ واتجهت الحملة على متنه إلى شاطئ «بيللوتي» في الأول من شباط 1864، إذ تم العثور على نارسيس في الثالث من شباط لعام 1861، حسب تحليلاتنا، يتناسب ترحال المتوحشين مع فصول السنة، لذلك كانت نقطة الانطلاق هذه بديهية لنا ولكن للأسف لم نعثر على أحد فباءت تحليلاتنا بالخيبة.

أطلقتُ في الأيام التالية حملات استكشاف في كل الاتجاهات تقوم بها مجموعاتٌ مؤلفة من ستة رجالٍ أشداء وحازمين ومدججين بالسلاح. برزت أمامنا مصاعب كثيرة كالحر الشديد والمستمر والحشرات التي تقض مضجع المستكشفين لكنها لا تؤثر بالاستراليين، لكن الصعوبة الأكبر على الإطلاق هو النقص الحاد بالماء أو بالأحرى الغياب المطلق لمصادر الماء هناك فلا نهر يجري ولا بركة تترقرقُ، لذلك كان يتوجب على كل رجلٍ أن يحمل مؤنه من السفينة مما جعل مدة كل رحلة أربعة أيامٍ فقط، رسمت خلالها خرائط دقيقة. تم إقامة مستودعٍ للطعام يعلوه علمٌ صغيرٌ ليدل عليه وأحيط بقطعٍ زجاجية ولكن لم يُعثر على متوحشٍ واحدٍ. عاد المستكشفون على أعقابهم مع نهاية الشهر حسب الاتفاق. وافاني السيد ويلتون سميث بتقريرٍ مختصرٍ ثم تبعه بعد ثلاثة أسابيع بملخصٍ مفصلٍ وجدولٍ دقيقٍ للمصاريف. كما أعلن عن مكافأةٍ هامةٍ من صندوقه الخاص لمن يقدم له أية معلومة مفيدة مما دفع بالكثير من النصابين للارتماء عليه و بذل جهوداً كبيرةً للتحقق من أقوالهم، باء كل هذا الجهد بالفشل.

كررت المحاولة في تشرين الثاني من عام 1864 وآب 1865 وشباط 1866، انطلاقاً من نقاط ساحلية غير «شاطئ بيللوتي» نحو الشمال والجنوب مما ساعد على سبر المنطقة لحوالي خمسين فرسخاً من الساحل

ونحو خمسة عشر فرسخاً بالعمق. ما زال ذلك الجزء المقفر من الكثبان وغابات المانغروف مجهولاً بيد أن الخط الساحلي بات معروفاً تماماً.

كما تم الاستدلال على مناجم فحم متوسطة الحجم وقد يتم العثور على ركاز من الحديد. كل هذه الأعمال المنهجية أهلت صديقي «ويلتون سميث» لينال عضويةً في جمعيتنا وهو شرفٌ يملأ قلبه بالغبطة دون شك.

التقوا بعض القبائل واستفسروا منهم عن متوحشٍ ذي بشرةٍ بيضاء وعن أطفال هجناء ولكنهم لم يدلوا بأي معلومة تعود بالنفع على بحثنا، وذلك حسب ما فسره أحد المتوحشين من الشمال والذي يتحدث الانكليزية بعض الشيء إذ دعاه قائد الحملات لرفقتهم آملاً بعونٍ منه. لكن ويلتون سميث أبدى تحفظاً فيما يتعلق بأمانة الترجمة.

لم يصبني غياب النتائج بالإحباط لا بل لم أرَه فشلاً فأنا مصرٌ على رأي، هناك أطفالٌ في مكانٍ ما من استراليا تتراوح أعمارهم ما بين ثلاثة عشر عاماً أوعشرة أعوام، لا بد من العثور عليهم.

حدثت نارسيس تكراراً عن الجهود التي أطلقتها وعبرت له عن أمنياتي بأن يلتقي من جديد مع ابنه وابنته، وكعادته التي لم تعد تدهشني، ابتسم ولاذ بالصمت بتُ أفهمه جيداً فلن أسمح لهذه اللامبالاة أن تؤثر بي، لقد جعلته استراليا أبكماً ولكن ترى ما الحديث الرائع الذي قد استمع إليه حين أحمل إليه أبناءه فيضمهم بين ذراعيه وكم سيمنحنا هؤلاء الأطفال الهجناء من معلوماتٍ عن الطريق الذي سلكه والدهم مسبقاً؟!

رغم كل ما أبديه من اهتمامٍ وكل ما أبذله من جهد، ظل أبناؤه بعيدين عني وغامضين كإبرةٍ في كومة قش. توصلت لفكرة إطلاق أسماء عليهم لابد أن نارسيس قد أطلق عليهما اسماً بلغة المتوحشين ولكنه لم يخبرني، لذلك كان لابد أن أتصرف عوضاً عنه أيضاً إذا لم يكن بوسعي تعميدهم فلا بد أن أعطهم هوية.

فرض اسم «أوجيني» نفسه على الفتاة أما بالنسبة للصبي فقد ترددت قبل أن يفرض اسم «شارل» نفسه أيضاً، تيمناً بشارل داروين عالماً انكليزياً كنت قد اطلعت على نظرياته أما الاسم الثاني فسيكون اسمي «أختي» و«أخي» كعرابين مفترضين للأطفال.

بقي أمامي تاريخ الميلاد فاستخلصت مما ذكر نارسيس عمر أبنائه فهي عالقة بذاكرته منذ لحظة الفراق أي 1853 و1857 أما يوم الميلاد فيتم اختياره بشكلٍ عشوائي، فبالنسبة لشارل لويس ولتفادي الخطأ كاسم ملكي سيؤرخ ميلاده بالثاني من كانون الأول أما تاريخ ميلاد أخته فسيكون تاريخ أول لقاءٍ لي مع والدها في سيدني في الأول من آذار لعام 1861.

أملى نارسيس توقيعه بشكلٍ صليبٍ على ورقةٍ جهزتها ليتم إرسالها إلى النائب الإمبراطوري في «لاروشيل» ليمنحه تسجيل أبنائه في القيود المدنية ودونت في تلك الورقة ما يلي: «شارل لويس بيللوتي» من مواليد شمال شرق استراليا في الثاني من كانون الأول لعام 1853 و«أوجني شارلوت بيللوتي» أيضاً من مواليد شمال شرق استراليا في الأول من آذار من عام 1857، وهما أبناء نارسيس بيللوتي المولود في سان - جيل - سورفي في الثالث عشر من آذار من عام 1825 وأمٍ من المتوحشين.

ها قد مضت ست سنوات على عودة «نارسيس بيللوتي» إلى عالم «ذوي البشرة البيضاء» ومنذ ذلك الوقت ما مضى يومٌ ما فكرت بقصته، ما تضاءل التعاطف الذي أكنه له وما ذابت الشفقة التي أحملها له فالمحن التي مرت به مرعبةً للغاية إلا أن رجل علمٍ يجب ألا يتعلق بشعورٍ بالذعر والتعاطف. آمل أن يكون سعيداً، لا بد من الاعتراف أنه ومنذ عودته ما لاقى السعادة في شيء ترى هل نجح بالعثور على السعادة بين أحضان المتوحشين رغم كل ما عاناه من عذابٍ وحرمان؟

ربما أتمكن من بناء فرضيةٍ مدهشة.

محالٌ علينا معرفة كيف تحول «البحار نارسيس بيللوتي» ذو الثمانية عشر عاماً إلى متوحشٍ بيد أني أسعى ما بوسعي لأفهم كيف عاد إلى عالمه الأول، كيف استعاد ما تعلمه صغيراً؟ كيف استرجع لغتنا وعاداتنا؟ كيف تركبت الأحداث في رأسه حتى كونت شخصيته الحالية؟ ولماذا يتكتم بشكلٍ مطلقٍ عن حياته في استراليا؟

ما أفضت هذه الأفكار إلى شيء وما توصلت لترتيب ردود أفعاله وفهم معناها رغم كل الوقت الذي مضى، ترى هل حُصرت خياراتي بين الطرفة والفوضى؟ تبين لي بعد برهة أن ابتعادي عن نارسيس بيللوتي سيعود بنفعٍ أكبر لكلينا، إذا كان لابد من إرساء قواعد لعلمٍ جديد بما أن العلم ما دججني بما يساعدني على سبر هذه القصة. أرجو قبل أن يتغلب الاستغراب على أفكاركم أن تمنحوني القليل من الوقت لتوضيح هذه العبارة المحبة للإنسان.

ظهرت في عالمنا حديثاً كلماتٌ مثل علم الاجتماع وعلم السلالات البشرية وعلم النفس وعلم الإناسة، هي جمعيها علومٌ قيّمة وتعد بمستقبل واعد. إنها حلقات تكمل سلسلة علومنا كالجغرافيا والأخلاق والتربية والقواعد والسياسة زد عليها الطب و التي تدرس جميعها الإنسان بين أقرانه، بيد أنها منعزلةٌ الواحدة عن الأخرى، فلا تكترث لبعضها البعض ولا تصغي لها بل ولا تتزود بها بعلمٍ. بالواقع لا بد من علمٍ كوني يجمع هذه المعارف المبعثرة لصالح الإنسان.

عندما ألقي عليها نظره من بعيدة أتذكر الكنائس التي تشكل معاً كاتدرائية مترامية الأطراف تعبر عن فن العمارة. بعد تأملٍ طويلٍ، أطلقت اسماً على هذا العلم المجمل للإنسان ولكل إنسان: علم آدم.

سأدون مسودة للنظرية القائمة على أن علم آدم هو كل العلوم التي هدف دراستها الإنسان وتنطلق من ذات المبادئ الأولية وذات التركيب. لابد من تسجيل تلك التقاربات ودراستها حتى يتم صهرها في بوتقةٍ من

التناغم. هذا ما أفضى إليه شتاءٌ طويلٌ من الأفكار في عام 1866 والذي سأطلق عليه نظرية ڤالومبران تيمناً بفيثاغورث وتالس أو فيرمات لا آمل سوى بأن يطلق اسمي مع النظرية.

أرجو أن تتيحوا لي توضيح فكرتي عن المقارنات، فمنذ الأزل درست الروابط التي تجمع ما بين الطب وعلم الحيوان بالإضافة لعلم النبات، صحيحٌ أن لكلٍ منها ميدانه الخاص لكنها ترضَخ لمبدأٍ جوهري واحد وهي مبادئ علم الأحياء العام. هذا الفخر عينه الذي يرنو إليه علم آدم العام.

ليست فروع هذا العلم معارفَ تتجاور على رفوف مكتبةٍ لا نهاية لها بيد أنها علومٌ تتحاور فيما بينها فيغني بعضها الآخر لأنها تنبحس من المبدأ عينه تربط فيما بينها أواصر عائلية وقانونية.

إذا تم إخضاع عشبةٍ وبقرة لنفس القاعدة فبإمكاننا دراسة إحداها وتجاهل الثانية. هنا بالواقع يكمن الحد الفاصل بين كل المقارنات السابقة وهكذا فإن كافة الفروع التابعة «لعلم آدم» تنطلق من العقل البشري، مهما حاولنا فهذه الفروع تمتزج فيما بينها وتتأثر ببعضها البعض. هل يتمكن أحدٌ ما من نكران ما يربط بين التربية والقواعد؟ ما بين علم الاجتماع والأخلاق؟ ما بين علم الأناسة والسياسة؟ وهل سنرفض من الآن فصاعداً البحث عن هذه الأصداء المتعددة وبطريقة منهجية؟ وكيف لا نخمن أن يكون لهذه الأصداء أهمية تضاهي العلوم التي تجمعها؟

آمل أن تدركوا تماماً مدى المساهمة التي سيسديها علم آدم واتساع المجال الذي يرتسم أمام عيني. أتأمل الطموح الذي ارسمه وأتساءل ترى هل ستسعفني قوتي لريادة مشروعٍ كهذا، طالما حبذت التردد إلى المكتبات إلا أنني أشك أن أتمكن من البقاء في ڤالومبران لسنواتٍ لإثبات نظريتي.

ترى هل عذرتموني على رفضي لمهمة مساعد رئيس جمعية الجغرافية بعد أن اطلعتم على طموحي؟

ما رسم المهندس المعماري سوى الخطوط الأولى من مخططات تلك الكاتدرائية التي تحدثت عنها وآمل أن يزودها بأساساتٍ متينة. أخطط تزويد نظريتي بنظامٍ مستحدثٍ كلياً يعتمد على شرحٍ منهجيٍ، واختصارات وإشارات متفقٍ عليها وبذلك تتبادل فروع هذا العلم الأفكار. ستتم طباعة أعمال علم آدم على عامودين أحدهما للنص والآخر لتلك الاختصارات والإشارات بما فيها من نجومٍ ومثلثات وخطوط تحيط بها نقاط بالإضافة للمنحنيات والحروف الهيروغليفية الحديثة، وتلك ستكون المهمة الموكلة لعامل المطبعة.

تتعانق ثلاثة مدارج صوتية وخطاً واحداً للنص لتشكل لحناً موسيقياً، فإذا ما انتزعنا إحداها فقدَ العمل معناه. سيتم تقديم علم آدم بشكلٍ أفقي ضمن أطروحة خطية تبين العلم أما العمود الآخر فسيضم كل ما قدمته الفروع العلمية الأخرى لعلم آدم. لن تقوم مساهمتي على عرضٍ للمعارفِ وإنما على نظام العزل والتبادل والتوازيات والأصداء التي تنطلق منها أصلاً معطياتٍ مختلفة. ترعى هذه الصيغة غنى الخطة. ألا تتشابه مع عمل دماغنا يا ترى؟ تقودنا القصة التي دارت رحاها على شواطئ استراليا المجهولة إلى التفكير بالإنسان بشكلٍ مغايرٍ تماماً.

تفضلوا بالقبول، سيدي الرئيس...

14

يتربع الموت على تفكير نارسيس منذ يومين تقريباً.

أمسكت المرأة العجوز بذيل ثعبانٍ يغفو تحت صخرةٍ قريبةٍ ثم ضربته بعصا وسحقت رأسه بحجرٍ وللحظة ذاك الحيوان الذي كان يتلوى في كل الاتجاهات ويبصق ويعض ويسعى للهرب ما عاد سوى جمادٍ مرميٍ في إحدى الزوايا يترقب أن يُقدم وجبةً مسائية، مهما كانت حياته في عالم الزواحف الصامت فقد انتهت هنا برأسٍ مهشمٍ وانتهى كل شيء.

ثم عاد نارسيس بأفكاره إلى النوتي الغلام من كامبير والذي احتضر في أحضانِ بحجرٍ هادئٍ لأسبوعٍ كاملٍ، عانى خلاله وتقيّأ وصلّى وأنَّ ثم استلقى أسفل الصاري الكبير المتهادي بأمواجٍ محيطٍ يتوق للنسمات. حتى توقفت أنفاسه مع انتصاف يوم أحدٍ، وانتهى كل شيء بعد إقامة صلاة سريعة وإلقاء جسده في عُرض البحر ولم يعد موجوداً حتى في كلماتهم. لم يتحدث أحدٌ عن وفاته؟ هل كان عليه أن يأسف على ذاك الشاب الذي لم يطق آلامه أكثر ولم تخففها علاجات المساعد فما احتمل حتى الوصول إلى استراليا؟ من الأوفر حظاً النوتي من كاميير أم البحار من سان جيل؟ تلقت عائلتهما الخبر ذاته، وسيكويهم الأسى ذاته؟ فنارسيس بالنسبة لهم جثةً تلقفتها رمال الصحراء ما لم يعد إليهم والنوتي في أعماق المحيط. حقاً نارسيس على قيد الحياة لكنه ميتٌ بطريقة ما. فالموت ما عاد غريباً لا بل ما عاد مرعباً.

مات مرةً أخرى مع ظهورٍ جديدٍ للقمر عندما رددت الأصداء نحيباً لا نهاية له وفاح تبخيرُ «القائد» و«المرأة العجوز» حيث أومأ له «العريف البحري» و«سيكاتريس» بأن يتبعهما نحو الموقد. وعلى مرأى من القبيلة كلها، تناول «سيكاتريس» شوكةً طويلةً مررها على نيران الموقد وطلاها بمادة ضاربة للسواد وأشار لكتف نارسيس الأيسر ووخزه بشوكته مكرراً صفاً من النقاط وصوت «العريف البحري» يدوي بأنشودة تتكسر في عتمة الليل؟ كزَّ أسنانه ولاذ بالصمت فالألم كان محتملاً مثل الدخان الذي نفخته المرأة العجوز يوماً في أنفه، وشومه بسيطةٌ تشبه ما رُسم للأطفال و«واياك». تغطي الوشوم أذرع اليافعين والفخذين أما الرجال فيكتسون بالوشوم لم تكن تلك الوشوم وشوم بحارٍ فقد مات، هذه الوخزات لا تصيبه فهو ليس هدفاً «للعريف البحري» و«سيكاتريس» ولا لكل المتوحشين. طبيعيٌ جداً أن يتم وشمه بروحٍ ميتةٍ وسط غبارٍ ورمالٍ تتناثر في غابةٍ مترامية الأطراف.

كذلك قبع الموت في أفكاره عندما سقطت الشمس خلف الأشجار بسرعةٍ هائلة بقربهم من المدارات، غابت الشمس التي لقبوه باسمها وتلاشت ليحل مكانها العدم والرعب أخبره ذات يوم مسؤول التحريك أن الشمس تغفو هنا لتستيقظ في سان جيل. كيف لا يقلقه هذا الهبوط المفاجئ للشمس وقد رسم فيها قارب النجدة الذي سيلغي المسافات ولم يخفف عنه بزوغ الفجر السريع، فالشمس تلملم في جعبتها الألوان وتختفي ليمدَّ الليل سلطانه لا يقاومه سوى نورٍ أحمرٍ عابثٍ لموقدٍ خافتٍ، فأي فانوسٍ هذا الذي يهزم الموت.

ألقت الظهيرة لهب أشعتها وفكرة الموت مجدداً في حرارة مرهقة يختلط فيها كل شيء، لترتجف الخيالات في ريحٍ تعبث بأشجارٍ ضبابية وتفرض أنفاساً ضيقةً وأفكاراً هشة تتداعى في جسدٍ متثاقلٍ ممددٍ دون جدوى، ترى كيف هو العالم الآخر؟ أو بالأحرى أليست هذه هي اللحظات

الأخيرة حيث يذوب كل شيء نقطة نقطة وتضمر الحواس الواحدة تلو الأخرى كما تخبو مدافع السفينة الحربية في كواتها.

فكر بالموت أيضاً بين براثن ليلٍ طويل رماه دون حراك في حفرةٍ رملية. فكر بالموت مع بزوغ يومٍ جديدٍ فارغٍ كلياً يشبه الأيام السابقة وما سيليها، أياماً تهدده وتسحقه ولا تقضي عليه. ما قيمة هذه الحياة ولماذا يتمسك بها؟ ما الجدوى المرجوة من هذه الحياة اليومية الرتيبة التي تركله من منتصف النهار إلى المساء ثم تبصقه في الليل.

ألّح الموت برسائله بيد أنه لم يوافه بعد، ماذا عساه يفعل؟ هل يمضي للقائه؟ ترى هل لديه القوة للقائه؟ كيف؟ يمتنع عن الطعام والشراب، لكن هذا يتطلب شجاعة لا يملكها فهو يسعى لموتٍ سريعٍ لا معاناة فيه.

لو ارتمى في الفضاء من قمة شجرة شاهقة أو صخرةٍ مرتفعة، إنه يتخيل المشهد سيرمي برأسه أولاً بخطوة واحدة سيحضن السماء بذراعين مبسوطتين تحاول بعدها المرأة العجوز لصق قطعه المترامية وتفاجئها عيناه المفتوحتين الضاحكتين أبداً لأنها لن تراها من جديد. ولكن ماذا لو أخطأ؟ أو كان العلو غير كافٍ أو الأرض التي يسقط في أحضانها رخوةً وهكذا سيمضي حياته البائسة يزحف عاجزاً وراء القبيلة؟

لا. لابد أن يحالفه الحظ. لعله يعثر على عشبةٍ بعصارةٍ سامةٍ أو صدفةٍ بنصلٍ مميت؟ إنه لم يتعرف عليها بعد، لابد أن يعلمه أحدٌ ما ولو بالقوة ما ينتزع من أيدي الأطفال المتهورين قبل التلذذ بالأعشاب ذات المذاق الحلو. ولِمَ كل هذا الانتظار؟ فليجلس تحت شجرة ويقطع شرايين معصمه بصدفةٍ صغيرةٍ مزرقةٍ استخدمها سابقاً لشقّ جلد الأسماك. حسبه شقٌّ صغير بآخر راحة كفه الأيمن والأيسر لتسيل الحياة ببطء على الرمال، وينام بعدها طويلاً قد يشعر قليلاً بالبرد وينتهي كل شيء، لن يتمكن أيٌّ من المتوحشين من إنقاذه إن لم يروه منذ البدء وبذلك سيظنون أنه لاذ أخيراً بالفرار.

ولِمَ لا يرتمي في البحر كقدرٍ محتوم... يلج في البحر كباقي الأيام ويلّوح لواياك بودٍ ويتقدم ويتقدم حتى تخونه قدماه، يحرك رجليه وذراعيه ككلب صغيرٍ إلى عرض البحر، ستغطي الموجات رأسه الواحدة تلو الأخرى ثم يمضي هو إلى سراب سفينة يلوح صاريها من الطرف المقابل للخليج.

الرسالة الرابعة عشرة

لاروشيل 13 كانون الأول 1867

كم يتطلب مني الاعتراف أن السنوات العشرة الأخيرة أفضت لفشلٍ مريرٍ؟ وكم يجب أن أتحلى بقوة روحٍ لأقرَّ بتفاهة رحلاتي؟

أعلنت لكم بسذاجةٍ وتهور ولادة «علم آدم» وحين حاولت ترتيب أفكاري فوجئت بآلاف المصاعب النظرية والعملية التي تقف حائلاً في وجه ما أرنو إليه قرأت الكثير وكتبت الكثير والتهمت النيران كل ما كتبت. صبوت لنقشِ جبلٍ شاهقٍ لكن السيول الجارفة المتجمدة بددت طموحي.

تخفي قممٌ متعالية الأفق الذي لاح لي في تراس ڤالومبران حيث خلت أن علم أدم في متناول يدي.

أول خطأ ارتكبته تجاه نفسي فأنا لست رجلاً منهجياً ولن أتمكن من سكب قصدي وحماسي في قالبٍ علمي مبرهنٍ بقوة. آمل أن يتبنى غيري هذه الطريقة ويتوصل لسبل النجاح.

للأسف سأكون الشخص الذي كشف النقاب عن سر «نارسيس بيللوتي» وحسب. اكتشفت بعد التعمق بالأبحاث التي باشرتم بها عن حالاتٍ مماثلة مآسي منسية لم يخلفها غرقُ سفينةٍ وإنما جراء خطفِ أو غاراتٍ جرت على اليابسة.

علق في براثن سهول أميركا الشاسعة والباتاغوي بعضٌ من ذوي البشرة البيضاء خطفاً، وأمضوا بقية حياتهم في القبائل الهندية فمنهم من

التهم النسيان حياتهم الماضية ومنهم ظلت ذكريات حضارتنا تقض مضجعهم بانتظار يوم الخلاص.

بيد أني ما صادفت قصة مماثلة لقصة نارسيس ذاك الشاب الذي كابد مرتين في رحلتين متعاكستين.

شاهدت الكثير بيد أني ما فهمت شيئاً البتة. ستبقى هذه الحكاية بألغازها لا تسبر أغوارها مثل اليوم الأول. ما بدء في سيدني يشارف على الانتهاء في لاروشيل. هناك مثل هنا. هل كان علي إيجاد كلماتٍ أخرى؟ و ماذا تساوي جملي بمواجهة صمت نارسيس؟

لابد أن ادون لكم كيف انتهى لقاؤنا الأخير.

قررت مواجهة نارسيس بذكرياته بعد فرضية إرسال أربع حملات إلى استراليا بقيادة السيد ويلتون سميث للبحث عن شارل و أوجيني بيللوتي و التي أرسلتُ بنسخةٍ منها إلى أرشيف جمعيتنا.

لاتحاشى الملل الذي تفرضه عواصف الشتاء في منطقة «ري»، تفضل مهندس القسم بأن يرسل إلى لاروشيل حارس المخزن ذا الدرجة الثالثة. أخذت غرفةً في نزل البحارة حيث حضر نارسيس بالموعد المضروب. عرضتُ له الخرائط و المخططات و رددت على مسامعه النكت التي تبادلها المستكشفون خلال بحثهم. ترى هل سأحصل منه على بعض الاعترافات إذا ما تحدثت له عن المناظر الطبيعية و عن غابات المانغروف و الكثبان الرملية و الجزر التي تحف بالشاطئ و الغابات الرتيبة مترامية الأطراف؟ هل تحرك فيه انفعالاً ما أحاديث اللقاء بمتوحشين و التخييم بالعراء و بعض الحوارات؟ للأسف كلا.

أصغى إلي بتهذيب و لم يؤتِ بأي إجابة، سأعترف بأني ما فوجئتُ أبداً.

منذ اليوم الأول لتعارفنا في سيدني عام 1861 و نارسيس بيللوتي يلقي بالقصص التي عاشها في استراليا ببئرٍ عميقٍ يستحيل سبره.

اجتمعنا مجدداً في اليوم التالي. كان بحوزتي بعض السجلات الاسترالية. حاولت بطريقةٍ جديدة فرويت له حكايته الشخصية:

«كنت في حديقة الحاكم ترتدي وزرةً فقط، يقوم حارسان بحمايتك. حضرت مجموعةٌ من الرجال لرؤيتك ثم تحدثوا إليك بعدة لغات...».

صعقته هذه الحكاية التي سردتها لكم ذاك الوقت بكل تفاصيلها كما اذكرها. أصغى إلي بانتباهٍ يستحيل وصفه مذعوراً و جامداً، تتلألأ على جبينه قطراتٌ من العرق. أنهيت حديثي عن اليوم الأول و تابعت: «قبل ذلك كنت على متن جان بول مرعوباً مقرفصاً قرب حاجز السفينة رافضاً كل ما يُقدم إليك من طعام.....»

شكرت في سري الربان رولاند الشرير الذي بروايته التي سردها أمامي في مكتب حاكم كاليدوني الجديدة سمح لي أن أروي له هذا العبور الوسطي.

«قبل ذلك كنت في زورق الإنقاذ و أبحر الزورق نحو الباخرة التي تسلقتَ إليها بسلم حبلي..»

أجهش نارسيس بالبكاء و استجداني بنظراته بيد أني تابعت بقسوة قلبٍ:

«قبل ذلك كنت تجمع الأصداف على الشاطئ مع القبيلة بيومٍ كسائر الأيام، أبناؤك إلى جوارك. رأيت سفينة «جان بيل» تلج الخليج. اتجه البحارة نحوك و لم يلقوا في قلبك الرعب...».

تتلاطم نارسيس موجاتٌ عاتية من خفقان الفؤاد و يموج ببحرٍ من الغموض. كان يلزمني قلب من حجر حتى لا أتأثر بدموعه و ألامه، كان لي هذا القلب:

«قبل ذلك يا نارسيس؟»

أرعبه سؤالي بشكلٍ واضحٍ. ماذا يحدث في رأسه؟ لم يحاول مغادرة الغرفة، ناشدني بصمتٍ أن أضع حداً لهذا العذاب، لم استجب بل ضخمت الأمر قائلاً في سري سأواسيه لاحقاً.

«قبل ذلك يا نارسيس؟ ماذا جرى؟..»

شحب لونه و بدأ بعضٌ يديه، و أن أرمقه بقسوةٍ كأن كل حواراتنا القديمة و كل فشلي بدفعه للكلام وصلا للذروة هنا.

تمتم بصوتٍ ممزقٍ: «قبل... قبل لم يكن نارسيس..».

يمكن أن تفهم هذه العبارة بعدة معانٍ. لاستفهم الأمر عدت للخامس من تشرين الثاني عام 1843.

«قبل لم يكن نارسيس؟ حسناً اروي لي ما جرى في اليوم الذي أرسلك فيه الريان بورتري للبحث عن المؤونة عندما ضعت و لم تعد ترى سفينة سان بول؟ ماذا جرى بعد ذلك؟»

انتفض كل جسده بين يدي هذا العذاب الجديد حتى خلت أنه سيفقد الوعي.

«بعد ذلك كنت وحيداً على الشاطئ و قد غادرت السفينة و أنت لا تدري إن كانت ستعود..»

توصل للقول لاهثاً: «بعد... بعد... لم يكن نارسيس».

تنفست بعمقٍ لأعزي نفسي بقوةٍ تساعدني على المتابعة واكتشاف سر إصراره على رفضِ هذا الثغر الدقيق حيث تضيء الحقيقة:

- بعد ذلك لم يكن نارسيس وقبل ذلك لم يكن نارسيس وبين الاثنين من كنت؟ عندما كنت هناك؟ خلال كل تلك السنوات من كنت؟

كسجينٍ يستجدي المحقق أفلت سره من شفتين مذعورتين بلفظةٍ ذات مقطعين صوتيين دون أن يصدر صوتاً، ظننت أني سمعت شيئاً مثل «أنغو».

- «ماذا قلت؟»

لم يكرر سره أو دعنا نقل إقراره لكن رأسه انهار بين يديه إلا أنني تابعت: «بين الاثنين من كنت؟»

رفع وجهه المنهك غارقاً بدموعٍ صمته وتوصل بصوتٍ يحتضر ليقول:

«الكلام يعني لي الموت.»

كان لدي القسوة لإرهاقه بل انهكته طويلاً وما حصلت على شيء أكثر من الصمت بكى وكرر هذه العبارة الغامضة: «الكلام يعني لي الموت».

تغلبت الشفقة علي وما عرفت كيف أواسيه. ذهبتُ لأحضر له كأس ماءٍ لألاطفه وأرجوه أن يسامحني على ما أبديت من قسوة باسم العلم. وعندما عدت إلى الغرفة لم يعد هناك. خلت أنه بحاجة للعزلة فتركته بسلام طيلة النهار. لقد كنت مخطئاً.

لم يأتِ في اليوم التالي إلى الموعد المضروب. بحثت عنه في نزل البحارة فأخبروني أنه لم يعد. هرب. هرب مني. أرسلت إلى منارة بالين برقيةً فأجابوا بأنه ما عاد بعد ولا حتى إلى منزل الزوجية الصغير.

ساورني قلق شديد فبحثت في المستشفيات والسجن حتى في معرض الجثث المجهولة. لا أثر لنارسيس بيللوتي. لقد اختفى و كل متاعه ملابس رثة تكسوه. ترى أين أبحث عنه؟ أخبرت الشرطة بغيابه فسألوني عن العلاقة التي تربطني به فوجدت الصفة الأنسب هي صديق العائلة. فأكد لي المحقق إجراء بحثٍ بعد أن أصغى لإيضاحاتي كما أرسلت الخبر إلى مختار سان جيل.

لا دليل لدي لأتقفى أثره، ومن جهة أخرى لماذا ألحق به؟ ليصفح عني؟ أم لأتابع التحقيق؟ لأرعاه تحت جنحي؟ أم من أجل العلم؟

مضى أسبوع على غيابه المباغت، لاشك أنه وضع نهايةً لآلمه وهو الآن يتسكع في الطرقات بعيداً عن المساءلة، متسكعٌ عاديٌ مثل البقية لا ماضٍ له ولا مستقبل، لا متوحش أبيض ولا حارس مخزن المنارة،

تأملت طويلاً في سلوكه قبل أن أغادر من «لاروشيل» إلى «فالومبران» آملاً بأخبار لن تأت. كابد الكثير عندما طرحت عليه سؤالاً عن تلك اللحظتين اللتين قذفته من عالمٍ لآخر، كلما لامست أسئلتي ذاك التأرجح كلما كابد آلماً وتمزق وتلاشى عدماً. ترفض ذاكرته وكذلك جسده تلك الذكريات الممعنة بالقسوة والألم. لم تكن إرادته الواعية مطواعة وهناك رعبٌ من قوى مجهولة. تحققتُ من صراعٍ يعيش داخله بين شخصين كنت قد تحدثت عنه في إحدى رسائلي لعام 1861 من استراليا: بحارٌ مختبئ ويرنو من شقٍ صغيرٍ و شيطانٌ يمنعه من الخروج. للأسف تمكن ذلك الشيطان أو بالأحرى القوى المجهولة المهيمنة من الانتصار بالجولة الأخيرة. شهدت دموعه الغزيرة على عنف المعركة وتلك الدموع التي سالت في لندن أيضاً حين واجهته بحقيقة أنه من غير الممكن أن تلده زنجيةٌ من استراليا شهدت أيضاً على تلك المعركة التي دارت رحاها داخله كما لو أنه ميدان قتال، وبعد أن تبدد الدخان ومضى الجيش بقي سهلٌ طيني بأشجارٍ مقطوعة لم تعد صالحة للحراثة كذلك نفس نارسيس أيضاً.

لأفهم بشكلٍ أفضل ليس لدي سوى قوله المأثور كهدية وداع «الكلام يعني الموت»

الكلام يعني التحدث عن تلك الأيام التي لا توصف، الكلام يعني سردٌ لذكرياته ليصبها في قوالب من الكلمات ما طلبته بإلحاح، لو أجابني لألقى نفسه بين براثن الخطر الأكبر. الموت. لم يقصد الموت السريري بل موتٌ في داخله في عيون الجميع، الموت لأنه عاجز أن يحيا عالمين في آن واحد ولأنه عاجز أن يكون متوحشاً وأبيضَ بآنٍ واحدٍ.

عبر مرتين بين هذين العالمين، فكان عليه أن يلقي حياته كبحار في النسيان ليحيا بين المتوحشين يا ترى ما الثمن الذي دفعه؟ ثم لاذ إلى فقدانٍ إرادي للذاكرة لئلا يكابد سياط التعذيب مجدداً بعودته بين أبناء عرقه. استحالت أمامه الذكرى للإجابة عن بضعة أسئلة إلا إذا أنزل الجسر المتحرك الذي يعزل قلقه ويدع البحار والشيطان يخوضان غمار معركةٍ قاتلة لن يتحملها عقله.

بدت له فخامة الإمبراطورة بسلطتها وهيئتها ضربٌ من الخيال فسمح لها بلمح الطرف الآخر عبر فتحة صغيرة من بابٍ خفي. العطف الذي هز كيانه معزياً صديقه بغياب ابنه سرق منه أيضاً أحد أسرار استراليا. الصمت إذاً سر بقائه وأنا أطرح الأسئلة منذ ست سنوات لألاقي نفسي صفر اليدين، كان لابد من انفعالٍ قويٍ آخر لأحصل على أي سرٍ دفينٍ آخر.

تساءلت في سري عن الخطر الذي كنت قد أعرضه له وراء رغبتي الساذجة بإحضار أبنائه من استراليا، باذلاً في سبيلها حملاتٍ قادها ويلتون سميث، ماذا لو تمخضت تلك الحملات عن الأولاد، هل كانت ستتملكه فرحة اللقاء؟ أم الصدمة بقفز ماضيه الاسترالي إلى حياته الحاضرة؟ ترى بأية لغة سيقول: «الكلام يعني الموت». ما تمكن أن يجيبني و ما تمكن ألا يجيبني فلاذ بالفرار.

يراودني حدسٌ غريبٌ بأننا لن نلتقي من جديد.

كان لغيابه عميقُ الأثر في نفسي. إذ باءت الشرطة بالفشل وكذلك مختار سان جيل. وما عثرت على بصيص أمل من أي شخصٍ، عدتُ إلى فالومبران والمأساة في قلبي نارٌ تحرقني وتأملت أن أبرهن لنفسي ما أعتقد أنني فهمت.

كان دائماً يعاملني بحذرٍ ويرسم ابتسامةً لي، لم يكشف لي يوماً عن مشاعره، لذا فالسؤال الذي يثير في نفسي ألماً كبيراً من بين كل الأسئلة هو:

مَن كنت بالنسبة له خلال كل تلك السنوات؟ صديقٌ؟ أخٌ أكبر فأنا لا أكبره سوى بأربع سنوات أم مرشدٌ؟ أم معذبٌ؟ أم يد القدر العتيد؟ أم كلها مجتمعة؟ لا يسعني الآن سوى الدعاء له بأن يعثر على السلام والراحة بعد انتهاء محنته وألا يقول مجدداً ألا يلفظ أبداً هذه العبارة المؤلمة: «الكلام يعني الموت» فليساعده الله.

صدقوا سيدي الرئيس...

15

توفي عم نارسيس وهو في الثامنة من العمر لذلك فهو لم يعد يذكره تماماً. عمه كان رامي الرمان في الجيش القديم وكان يسكن في بيتٍ صغيرٍ على طريق القرية، بيتٌ تشرف نوافذه على غابات ألمانيا وساحات القتال لا على الحقول المحروقة. كان نارسيس يحب ما يرويه من غزواتٍ ويصيخ له السمع دون أن يرمش فيروي له عن خططهم لخداع الخصم وعبور الأنهار كما حدثه عن الدخول المنتصر إلى مدن بأسماء مجهولة والاستعراض العسكري الذي يُقدم للجنرالات وأخبره عن نشوةٍ تسري بعد المعارك ويبتسم وهو يتحدث عن ملهى الجند والقيمات عليه وضحكاتهن ولا ينسَ أبداً أصحاب المخيمات بعيداً جداً عن سان - جيل.

عمه هو الوحيد ممن يعرف أنه قد قام برحلاتٍ عديدة وسافر كثيراً فلم يكن والده قد سافر قط ولا حتى والدته.

والذكريات تخدق كالنبع والطفل ينهل منها كأشجار عطشى، حدثه عن نهب القصر الدوقي في «بوميراني» حيث نقل الجرحى إلى صومعة «الباڤاروا» ودُفعت لعلاجهم عملةٌ ذهبيةٌ غريبة الشكل ثم عبور الجبال الشاهقة المغطاة بالثلج والتخييم لأيامٍ في العراء أمام مدينة مشتعلةٍ ستسقط في اليوم التالي، وجهت فوهات المدافع إلى العدد أخيراً سيتم اجتياح انكلترا كما حلموا دائماً حيث تلاقيهم الجنة بأجراس دائرية زرقاء وذهبية. أعلنت الأبواق والمزامير بدء الهجوم ففاحت رائحة الغبار وتدافعت

الأجساد ثم بضربة حسامِ فارسٍ قُطعت ذراعه اليمنى وها هي منذ ذلك اليوم تتدلى دون جدوى... لم يتسلل الأسف إلى حديثه بل كان يفتخر بالحذاء الذي يقدمه دائماً كما لو أنه جاب وهو ينتعلها نصف أوروبا حاملاً سلاح الإمبراطورية طيلة خمسة أعوام.

لم يكن يدري نارسيس كيف لكنه كان يعلم أنه سيغادر يوماً ويرى ما لم يره أحدٌ سواه.

هناك إحدى الذكريات التي تداعب خيال رامي الرمان في الجيش القديم العم بيللوتي، الذكرى المفضلة هي تعرفه على «المشردة» مع ثلاثةٍ من أصدقائه. ففي أحد الأيام حيث كانوا يقطعون الأخشاب عند زاوية طريقٍ ضيقةٍ متعرجة، قابلوا عربةً يجرها أربعة جياد، صوَّب رامي الرمان ذو الذهن المتقد سلاحه نحو الحوذي الذي فرَّ هارباً لإنقاذ حياته. لاحت من النافذة شابةٌ مذعورة يكسوها معطفٌ طويلٌ أزرق توسلت لهم بلغةٍ مبهمةٍ ثم قدَّم صبيٌ نفسه بشجاعة ليثبت أنها ليست بمفردها، أغلب الظن أنه أخوها ذو العشرة أعوام.

احتار الجنود في أمرهم فلا تعليمات حول لقاءٍ كهذا، قرروا اصطحاب غنيمتهم إلى المعسكر، فاحتل بيللوتي مكان الحوذي وما سمح لأحد بالصعود لجوار الأسرى ثم مضى بهم على بعد فرسخين حيث كان الكولونيل يتناول عشاءه تحت الخيمة، أقلقته الجلبة التي سبقت العربة فخرج ومدَّ يده للشابة وقبل دعوتها وأخيها لتناول الحساء هنَّأ بيللوتي على الجرأة التي أبداها، هنأه على مرأى ومسمع الجميع.

قال لنارسيس: «أفهمت أيها الغلام! هربت الكونتيسة فأوقفتها وتغيرت حياتها بفضل شابٍ من سان جيل سورفي.»!

عمه يسافر ووالده يقطف محاصيل هزيلة ويشرف على قلةٍ من الأعمال في الورشة. علم نارسيس أنه سيسافر، رفض والده أن يغادر في سن الثانية عشرة كنوتي على متن سفينة وكرر رفضه في الثالثة عشر

والرابعة عشر لكنه تمكن من إقناعه بما ينوي عندما أصبح في الخامسة عشر. ومنذ ذلك الوقت، جاب نارسيس الكثير من المدن فزار نانت والصين وعدن وبريستول وسيلان وبرشلونة والكاب وبوردو وأراضٍ عديدة وبحار عديدة أكثر بكثير مما خطر ببال عمه.

كُررت حكاية الكونتيسة على مسامعه لدرجة أن بدا له أنه حضرها حقيقة حيث كان أحد رماة الرمان المرافقين لعمه، لمح ذلك الوجه المذعور المصمم على حماية أخته، وكان هناك كونتيسا من المتشردين تجتاز طريقاً ضيقةً متعرجةً في مساء خريفي مرتديةً معطفاً أزرقَ وترجو جنود نابليون بلغةٍ مبهمة.

هل كان يعرف شيئاً عن المتشردين؟ نعم يعرف كل شيء، يعرف رائحة الأحصنة وجبن الحوذي والقرطين الذهبيين والشعر المتراخي والعطر الفوّاح، سمع صرير فستان الكونتيسة الحريري وضحكات الفرنسيين الهازئين الذين لا يحسنون التصرف، بثيابٍ موحدة ملطخة بالطين، يعرف أيضاً نظرة الشاب الصغير المليئة بالفخر ولون الأوراق الميتة ورنين أجراس القرى المتاخمة وترن في أذنه رجفة ذاك الصوت المخنوق راجياً إعاقتهم...

من كان يظن أن طريقاً ضيقة متعرجة ستفضي إلى أعماق الصحراء؟

لقد آثر السفر إلا أن استراليا تلقي بنفسه الرعب ولكن لماذا؟ ما فقد حتى الآن سوى طرف أذنه في حين فقد عمه ذراعه في إحدى الغزوات. سار حافي القدمين من سان جيل إلى نانت بينما جال عمه رامي الرمان بيللوتي أوروبا على مرور خمس سنوات دون فراشٍ يرقد عليه أو وجبات ثلاث يهنأ بتناولها.

ترى هل سيغدو عجوزاً طاعناً في السن يروي رحلاته إلى العالم وهو جالسٌ في سان جيل سورفي؟

ماذا سيقول عن هذه الأيام التي يحياها الآن؟ ترى هل سيصدقه

الأطفال لو قال أنه أمضى أيامه خوفاً ومرت اللحظات ذعراً لحظة بلحظة؟ هل هناك ما يضحك في قصته؟ عارٍ تماماً؟ أجل عارٍ تماماً طيلة الوقت! طيلة الأيام والليالي هذا ما يثير في نفسه الضحك. أحياناً يفكر بأن يصمت للأبد ولا يتفوه بكلمة عما مرَّ به هارباً في هاوية من الغم والرعب لا ينوي الهبوط فيها مجدداً؟

ما خطر على بال الطفل الصغير حينها أن يطرح على عمه سؤالاً عن مصير الكونتيسة وكيف له أن يعرف لقبها النبيل؟ حسب رواية عمه، فقد ضمها الكولونيل بين ذراعيه وغابا معاً مع الغسق تحت سدول الخيمة يرافقها أخوها الصغير كمراقب للأخلاق. ترى هل غادر في اليوم التالي رامي الرمان بيللوتي ليجوب الألب أو الدانوب؟ هل أرسل الكولونيل المجهولة بعربتها للقيام بمهمةٍ سرية أم أرسلها لسجنٍ كريهٍ؟ كان الطفل يتخيل حسب مزاجه بقية الحكاية.

يتابع نارسيس الطفل الإصغاء لعمه... لاح طيف الكونتيسة بمعطفها الأزرق من نافذة العربة، وشاهد الحوذي الذي لاذ بالفرار لمجرد أن سدد الجندي سلاحه نحوه دون حتى أن يطلق طلقة واحدة ورغم الخوف الذي هزَّ أضلاعها إلا أنها رمقت الجندي الفرنسي بنظرةٍ حادة ورجته بلغةٍ لن يفهمها لتسترعي عطفه.

بقي ذلك اليوم... والطريق المتعرج الضيق.. أجمل يوم في حياته.

قاطع واياك حلم اليقظة الذي يداعب خيال نارسيس، ومد إليه كومةً من الأغصان ليقشروها معاً وبحجرٍ مدبب شذب الأغصان، وانشغلا طيلة النهار باصطياد السحالي فأفضى الصيد لغنيمة متواضعة اثنتان لواياك ولا شيء لنارسيس فارتميا راغبين باستراحة.

غابت المتشردة مع الأحلام، حاول تحفيز ذكرى أخرى، ذكرى لطيفة أخرى، ذكرى مومس الكاب لكنها غابت مع النسيان فما عاد يذكر وجهها ولا حرارتها ولا حتى المتعة التي انتفض بها جسده.

ترى هل يمكننا طي كل شيء مع النسيان؟ إنه يحاول استعادة أسماء أصدقائه على متن سان بول، لكن ذاكرته غصَّت رفضاً... أصدقاؤه على يسار السفينة فقط؟ كان هناك بيير وإيڤون... ومن هو الآخر، القصير الأشقر ذو الصوت الشجي.

لم يعد يعرف، كم كان عددهم؟

أين بحارة سان بول ومومس الكاب، لقد رحلوا مع النسيان. تلوح أمامه بغموضٍ الكونتيسة التي احتلت الذكريات في رأسه، انمحت وتبددت ولطخت ماضيه فتدفعه إلى الخطأ. لا قوة لديه ولا رغبة ليصارع النسيان الذي تمتد أمواجه كالمد الشاسع على طرف الخليج الوعر الجداري فطغت اللامبالاة على حياته ولمَ يذكر السفينة والكاب وسان جيل والمتشردة؟ ما الجدوى من هذه الذكريات؟... تلك الأساطير القديمة التي تمتزج ويشوهها الغموض بالكاد ترتمي على بساطٍ ضبابي رمادي حيث تلد الأحلام. كونتيسة بمعطف أزرق ونافذة العربة.

شابةٌ تجلس على كومةٍ من المرجان وترسم بإصبعها الملطخ بالصلصال الأحمر أنصاف دوائر على وجهها وحلقها.

صدفةٌ برتقاليةٌ مرمية على الرمال.

الرسالة الخامسة عشر

ڤالومبران 7 آذار 1868

شارلوت ڤالومبران.

سيدي الرئيس.

يؤسفني ويؤلمني أن أخبركم بأن الله تغمد أخي أوكتاف ڤالومبران برحمته. أمضينا عيد الميلاد في منزل أخينا لويس في «غرنوبل» عندما عاد أوكتاف من «لاروشيل». لم يثنِ طقس كانون الثاني السيئ ووابل المطر المختلط بالثلج عزيمته بالقيام برحلات سيرٍ طويلٍ طالما أحب القيام بها. ولدى عودته من إحدى تلك الرحلات اجتاحته نزلة صدرية وألهبت الحمى جسده، في اليوم التالي. قاوم المرض ببسالةٍ لثلاثة أيامٍ متمسكاً بسلوان الدين ثم سلم روحه لبارئها في العشرين من كانون الثاني.

رقد جثمانه في مدافن العائلة في مقبرة ڤالومبران.

كان يكنُّ لكم إعجاباً واحتراماً مميزين لأكثر من عشر سنوات مضت، وأنا أشهد على ما يحمله لكم من مشاعر حتى قبل إقامته في «إيسلاند»، إذ يردد على مسامعي مبادلات الرسائل فيما بينكما، تلك الرسائل التي يزهو بها والتي ما توقفت أبداً، وكم ذكر لي حسن ضيافتكم وحكمتكم. كان يفتخر بلقبه كعضوٍ في جمعية الجغرافيا كأهم لقبٍ في حياته.

باشر السيد ڤيون كاتب العدل في غرنوبل بقراءة وصيته، دون أن

يعلم أن أوكتاف تربطه معكم صلة وثيقة، سأرسل إليكم نسخة منها لتطلعوا على رغباته الأخيرة.

/الوصية/

أنا الموقع أدناه أوكتاف ڤالومبران بكامل قواه الجسدية والعقلية وبحضور السادة «بويلير» و«دفورج»، أعلن وأنا جالسٌ هنا رغباتي الأخيرة منكراً أية وثيقة أخرى قد يكون لها صلة بالموضوع:

أوصي:

- بمبلغٍ وقدره عشرون فرنكاً للحوذي «فيرمان ديلوسيرت» بالإضافة لملابسي القديمة بشرط أن يبقَ بخدمتي حتى يوم وفاتي.

- بمبلغٍ وقدره ستون فرنكاً لـ «فيلسي سوريل» وهي ليست مجرد طاهية بل هي من تبث الروح في القصر منذ أكثر من نصف قرن. وذلك دون أي شرط.

- إلى الكاهن في الكنيسة الخورانية في ڤالومبران:

- بمبلغٍ وقدره خمسون فرنكاً ليقوم بقداسٍ يغنيه أطفال المذبح في ذكرى وفاتي، علَّ الله يغفر ذنوبي ويتغمد روحي البائسة برحمته.

- بمبلغٍ وقدره خمسون فرنكاً لصيانة الكنيسة وبيت كاهن الرعية.

- بمبلغٍ وقدره خمسون فرنكاً لنجدة فقراء الكنيسة حسب حاجتهم على ألا تتجاوز الهبة للعائلة الواحدة خمسة فرنكات.

- بمبلغٍ وقدره مئة فرنك لدفع مهر أربع أو خمس فتيات فقيرات و حسنات الخلق في الكنيسة الخورانية، يسلم هذا المبلغ ليد المذكور الخوري ويكلف هو والمختار باختيار الفتيات.

- إلى السيد نارسيس بيللوتي حارس المخزن في منارة بالين في جزيرة ري (شارانت الداخلية) بمبلغٍ وقدره مئة فرنك، على أن يسلم هذا المبلغ إلى رئيس المحطة التي سميت «منارة» ويكلف هو بخدمة صاحب الأمر بهذا المبلغ حسب ما يبدو له مناسباً لدفع حاجاته.

إذا قرر بيللوتي التخلي عن إرثه أو ما يترك من مبلغ بسبب وفاته فيعطى بمجمله لأبنائه لدى بلوغهم.

- بمبلغٍ وقدره مئتا فرنك لشارل لويس وأوجيني شارلوت حيث يقسم هذا المبلغ لعشرة أقسام سنوياً ليد السيد ويلتون سميث، تاجر في سيدني في استراليا حيث يكلف هو بالبحث عنهم والعودة بهم إلى فرنسا ويلتزم السيد ويلتون سميث بتقديم كشف حساب سنوي.

إذا لم يتم صرف المبلغ كاملاً (لوفاة السيد ويلتون سميث أو لرفضه المهمة أو لأي سبب آخر) فيقسم المبلغ كما ورد في الفقرة الخامسة.

بعد العثور على الأطفال يُعهد المبلغ المتبقي إلى أخي لويس ليتدبر أمور وتربية هؤلاء الأطفال حتى بلوغهم فيقسم ما يتبقى إلى نصفين الأول لمهنةٍ يختارها شارل والنصف الآخر لمهر أوجيني - شارلوت.

- بمبلغٍ وقدره مئتا ألف ومئتا فرنك تسلم لجمعية الجغرافيا في باريس للقيام على مر عشر سنوات حملات استكشافية إلى شمال - شرق استراليا، وفق الحدود الجغرافية المحددة في الخريطة المرفقة، ولهذا المبلغ شروط تتلخص بأن يقدم قائد الحملة تقريراً ينشر إما كمقال في مجلة الجمعية أو كعملٍ مستقلٍ.

- قدم لي أريستيد فيرن وهو عضو مشارك في جمعية الجغرافيا لوحةً عُلقت في المكتبة، رسم فيها نصفي الأعلى، و أمسك بيدي ناياً ذا ستة ثقوب يعود إلى المتوحشين وخلفي منظرٌ صخريٌ بلونٍ ضارب للحمرة يوحي باستراليا . يرث هذه اللوحة ويلتون سميث تاجر في سيدني في استراليا، إلا إذا اعترضت أختي شارلوت لدى فتح الوصية.

- يقسّم الإرث المتبقي من أملاك منقولة وغير منقولة ما بين أخي لويس وأختي شارلوت الذين أكن محبةً كبيرة لكليهما.

ومع ذلك، فيعود قصر ڤالومبران مع الأرض التي يقوم عليها وكل ما فيه من أثاث إلى حصة شارلوت، بالإضافة إلى الخاتم الذي وهبتني إياه فخامة الإمبراطورة. لا تتم تسوية بين حصص إخوتي في حال كانت حصة شارلوت أكبر من حصة شارل.

- أخيراً أرغب بأن يكتب على شاهدة قبري بالإضافة لتاريخ حياتي:

- «وكتاف دو ڤالومبران. مسافر».

فليتغمدني الله برحمته

تم في قصر ڤالومبران في الثاني والعشرين من شباط 1964.

أوكتاف ڤالومبران

توقيع السادة بويليي ودوفورج

فوجئت أنا وأخي الڤيكومت لويس الذي حضر الوصية نقطة نقطة بهذا التوزيع للإرث، وبشكلٍ خاص في النقطتين الخامسة والسادسة والمتعلقتين بالسيد بيللوتي والبحث الافتراضي عن الأولاد لا لأن المبالغ المقترحة هائلة فحسب بل هي غير منطقية أيضاً.

أبدى أخي أوكتاف كبر نفسٍ رائع برعاية ذلك الفتى والعودة به إلى فرنسا وما توقف عند هذا الحد فقط بل ذهب لأكثر من ذلك، إذ ضمن مستقبله بالحصول على هبةٍ من الإمبراطورة بإيجاد عملٍ له في الإدارة صحيح كانت وظيفة من الدرجة الثالثة لكنها أكثر مما يستحق ذلك الفتى. كما موّل أربع حملات كاملة من استراليا وصرف مبالغ هُدرت بكل معنى الكلمة.

تعرفت على ذلك البحار إذ أمضى في ڤالومبران قرابة الشهر في نهاية عام 1861، لم يكن يبدي أي امتنانٍ لأخي وكأن كل ما حصل عليه كان

من حقه. كما أنه لا يحترم نفسه، و مزاجه فاسقٌ لا يتكلم ولا يرو شيئاً شعرتُ أنه قليل الذكاء. ترى هل كان حقاً غبياً أم أنه يبني ثروات على طيبة أوكتاف اللامتناهية؟ هل كان يمثل دور جاك بسذاجة أم بمكر؟ أرجح مدخل السذاجة على المكر رغم أني للأسف صادفته بمواقف عديدة تثبت طبعه المتكتم الخبيث.

ربما لم ينفذ صبر المرحوم أوكتاف، أما أنا وأخي الثيكومت لويس فقد ضقنا ذرعاً بقصته. لن نبدد المزيد من الثروات لتحقيق رغبات أوكتاف المتناهية باللطف حتى بعد وفاته، فكفانا ما لحق به من شائعات دنيئة جراء عطفه على هذا الرجل عديم الأهمية وحسبنا التساؤلات حول طبيعة المصلحة التي تربطهما.

ألحق السيد بيللوتي الأذى بثروة أخي بالإضافة لسمعته.

لذلك فكرنا بالطعن بالوصية، متذرعين بمزاج الفقيد شديد الحماس والغريب الأطوار وإننا لا نشك بالنتيجة. سلمنا القضية لأحد المحامين وسنتبع ما يشير إلينا ورغم هذا فما من شيء سيتسبب لنا بالإزعاج سوى مواجهتكم في المحكمة مخالفين بذلك رغبات المرحوم أخي. أخشى أن يضطرب السلام الأبدي لرقاد أخي أوكتاف مع نبرة صوت كاتب المحكمة وهو ينادي «القضية» شركاء فالومبران ضد جمعية الجغرافية».

لابد لنا من الموافقة على تسوية ففي الحقيقة يقترن المبلغ الذي أوصى به إليكم بشروط صارمة لا تتيح لكم الانتفاع منه بحرية فقط لتمويل حملات جديدة إلى شمال - شرق استراليا.

رغم الحملات الأربع التي أجراها في حياته دون جدوى. هُدر لتلبية رغباته الغريبة الكثير من الوقت والمال وبُدد جهدٌ كبير، كما أنه أصرَّ على نشر النتائج والتي سيتسبب غيابها بإساءة مكانة جمعيتكم.

كنا نحبُ أوكتاف كثيراً لدرجة أننا ما تمكنا من إخباره بأن هذه القصة قد سحرته تماماً.

ها قد حان الوقت لفك السحر. واحسرتاه!

فكرنا أنه بدلاً من التبذير العابث للمال أن نقدم لجمعيتكم مبلغاً أقل حجماً ولكن لكم حرية التصرف تحت إشرافكم سيدي الرئيس، لعل في هذا وفاءً أكبر لذكرى المرحوم. لن يعرف أحدٌ غيركم السبل الأفضل هل هي في سبر أغوار سهول الأرجنتين أم إلى كامتشاكا؟ أم بالحصول على مجموعاتٍ أو بالقيام بأعمالٍ في مقر الجمعية إنها أمورٌ عائدةٌ لخياركم.

أرجو الموافقة على اقتراحنا بالتنازل عن إرث المرحوم أخي وسنقدم أنا وأخي لويس من جهتنا مبلغاً وقدره خمسمئة فرنك على سبيل المثال تحت تصرف الجمعية ودون شروط وسيتم تسجيل اتفاقنا هذا لدى الكاتب بالعدل.

(ترى هل بوسعي أن أطلب أمراً ليس شرطاً وإنما رغبة متواضعة؟ أود أن يبقى اسم أوكتاف على جدران جمعيتكم إذ يعلَّق في المكان الذي تجدونه مناسباً فيكتب على لوحٍ و نتحمل نحن التكاليف.»

لاقت اقتراحاتنا هذه ترحيباً من كافة الورثة، السيد خوري ڤالومبران ومختار ڤالومبران والسيد ڤيرمين دوليسير والسيدة فيليس سوريل.

كما أزيدكم علماً أنني اعترضت على تسليم لوحة أخي أوكتاف ومارست حقي بالاختيار. وأؤكد لكم بأن السادة «بويلي ودوفورج» الشاهدين على الوصية المكتوبة بخط اليد مستعدون للشهادة أمام العدالة بالحالة النفسية المفرطة بالرومانسية للمرحوم في الشهر الذي كتبت فيه الوصية شباط 1864 والذي يصادف تاريخ أول حملة أطلقها للبحث عن أبناء بيللوتي.

بعد حصولنا على كل هذه الموافقات فسيكون إلغاء الوصية مؤكداً فلا دفاع سوى أمام السيد بيللوتي.

كان لهروب نارسيس العنيف عميق الأثر في قلب أوكتاف وذلك بعد الحوار الأخير بينهما في لاروشيل وبالحقيقة غيابه سيسهل القضية تماماً.

وكيف لنا أن نعلم بأن رغبات أوكتاف الأخيرة بقيت ذاتها بعد السلوك المعيب والخاطئ الذي أبداه تجاه معيله؟ فالوصية المؤرخة بعام 1864 أي قبل غياب السيد بيللوتي لكن أوكتاف ما عاقبه ولو بجرة قلم سخطاً على كل ما قدمه من حسنات غمرت ذاك الجاحد.

شرحت لكم كل ما يتعلق بالأسباب التي دفعتنا لمثل هذه التسوية البسيطة سريعة التنفيذ والتي تعود بالنفع علينا معاً. يتوقف استقرار أمرنا على قراركم: إما دعوى سريعة ورابحة ضد بيللوتي أو - لا قدر الله- مرافعةٌ طويلةُ المد ضد جمعيتكم.

اعتذر لإقلاق راحتكم، سيدي الرئيس، ولكن هناك بعض الأوراق الخاصة بأوكتاف وأظن أنها بحاجة لاهتمامكم. إذ وقعت على كاهلي مهمةٌ حزينة بترتيب وتصنيف أغراضه، كان الأمر صعباً من ناحية أنني ما دخلت مكتبه قط وسهلاً من ناحية جرد الدرج والخزائن فهو دقيقٌ جداً وتهمه التفاصيل.

عثرت على نموذجين من الأوراق يتعلقان بالجغرافيا، النموذج الأول يضم ثلاثة دفاتر دون فيها يومياته مع نارسيس بيللوتي منذ لقائهما الأول في سدني في حدائق الحاكم وذلك في الأول من آذار لعام 1861 وهكذا استمر طيلة اللقاءات مدوناً أفكاره أيضاً.

لا أظن أن هناك ما هو جاهز للنشر فلا شيء محدد أو بشكل النهائي خلا مذكرات حميمة تتعلق بالقصة.

أما النموذج الثاني، كلمةٌ كتبت على ورقٍ مقوى «ADMLG»، لا أدري معنى هذا العنوان فلم يحدثني قط عن ذلك. يضم داخله خمسة وعشرين ملفاً مع عناوين «مقدمة III، II، I» ومجلدات من الرقم «1 - 22». يضم كل ملف ثلاث إلى عشر صفحات مزدوجة. تحتوي كل منها ثلاثة إلى خمسة أسطر وفي بعض الأحيان تقتصر على كلمة واحدة وبعض الأشكال الهندسية مثل معين ونجوم ومربعات. أما الخط الذي

كتب به فمختلفٌ بعض الشيء فهو أصغر وممدود حتى يكاد يكون غير مقروء.

ذات مرة منذ حوالي سنتين أو ثلاث سنوات ذكر أمامي أنه شرع بعملٍ مهمٍ ذكر الأمر في البدء بشيء من السخرية ثم ذكره بمرارةٍ، يساوره شكٌ في الطريق الذي سيقود به هذا العمل، فهمت حينها أن عمله يتعلق بالجغرافيا رغم أنه قال لي أنه عمله هذا بعيدٌ عن الجغرافيا وعن جمعيتكم مبدياً أسفاً شديداً لا بد أن نضع بين أيديكم تلك الدفاتر والمخططات لاستكشافها فلا حاجة لنا بها. ومهما كان قراركم فيما يتعلق بالوصية فسأرسل لكم تلك الأعمال المرتبة بعناية في العليّة.

أشكركم سلفاً على اهتمامكم بخطواتنا لاحترام ذكرى أخينا أوكتاف فالومبران.

أقدم لكم أنا وأخي لويس خالص الاحترام والتقدير.

خادمتكم المتواضعة والوفية

شارلوت فالومبران

16

ولّت الأمطار بعد أن أسدلت على الأرض بساطاً عشبياً كثيفاً تزينه زهورٌ بيضاءُ اللون والأشجار بدلت أوراقها معدنية اللون بأوراق خضراء لطيفة ويعبق المكان برائحة العسل الفوّاحة.

نظر إليه واياك باستغراب وهو يحاول للمرة الألف اصطياد الذباب بيده اليمنى ففهم أن لا جدوى تُرجى من هذه الحركة، فالأمر سيان إن اصطادها أم تركها بسلام شاهدها تطنُ من حوله فآثر ألّا يؤتِ بأي حركة ولاذ بالأفكار، وهي تجول حوله تذهب وتعود من جديد، وأصبح من ذلك الحين لا يكترث لوجودها.

تتكرر هجمات الصيادين ويتمكن الجميع من الأكل حتى الشبع أو أكثر وفي المساء يقترب الرجال من نسائهم والشبان يغازلون الفتيات. الأطفال يلعبون، يركضون في كل مكان، يتضاربون بشراسة ويتسببون بصراعاتٍ لا جدوى منها ويتوقفون دون رابحٍ أو خاسرٍ.

لم يكن يشارك في كل هذه النشاطات إلا أنه يشعر برشاقته وصفائه.

بعد القيلولة، تسلق قمة هضبة صغيرة تشرف على المخيم باحثاً عن نسمةٍ عابثة.

لمح نتوءاً صغيراً ما بين صخرتين حيث عثر على أرض صفراء خصبة ذات حبيبات، أدخل إصبعه داخله ثم مرره على فخذه مخلفاً أثراً واضحاً

كما لو أنه قلم فحم، فبدا على بشرته المسمرة خطاً برتقالياً ثم جلس وكرر الأمر بالسبابة، رسم دائرة على صدره ودائرة تحت ثديه الأيمن وأخرى تحت الأيسر. بلل إصبعه من جديد ورسم دائرة تحت السرة وأخرى أعلاها، تحت الكتف الأيسر، تزّين كما يحلو له فسرت متعةٌ لطيفةٌ مبهمةٌ في قلبه. ومن جديد، بلل إصبعه ورسم خطاً على فخذيه ببطء ثم سلسة من الخطوط المكسورة، أحب التفاوت بالرسم بين ذراعيه العاريتين وصدره وفخذيه. ثم نزل باتجاه القبيلة.

«أمغلو!».

نادت المرأة العجوز باسمه ومدت له ذراعها وكررت بصوتٍ مرتفعٍ جداً جملة صغيرة منادية القبيلة.

اضطرب لتوه فما علم ما هي القاعدة التي خرقها، توقع أن الرسومات تسبب بهذه البلبلة، أحاط به الجميع متراكضين نحوه يمعنون النظر بما يصعب إخفاؤه.

قالت المرأة العجوز عدة كلمات أخرى فقاطعتها حاذوقة وبدأ كتفاها ينتفضان، مصدرةً أصواتاً مبهمة إنها تضحك أجل إنها تضحك حتى فقدت أنفاسها ظلت تضحك حتى سالت دموعها.

شرعت النسوة بالضحك أيضاً ثم الأطفال ثم الرجال. قهقهوا بأعلى صوتٍ وتبادلوا الطرائف وضربوا بأيديهم على أفخاذهم، فركوا أعينهم وانفجروا ضاحكين مرة أخرى.

هل يتوقع مفاجأة سيئة شتائم مثلاً وركلات؟ ألقى هذا الإفراط بالمزاج في قلبه الخوف، فما شهد لحظاتٍ كهذه من الحبور وما فهم لماذا تسببت رسوماته بكل هذا الضحك.

ماذا يفعل؟ تنفس بعمقٍ ثم باعد ذراعيه وارتجل ببضع خطواتٍ راقصة.. رقصة الجيك ليحرك عضلاته ويشد الأنظار إلى جسده المزين، تململ منتظراً ردة فعل القبيلة.

فاجتاحت القبيلة موجة ضحك أخرى، ارتمى الأطفال أرضاً وهم يحركون أقدامهم بكل اتجاه والنساء سالت دموعهن ضحكاً وغابت أنفاسهن أما الرجال فصفقوا بأيديهم مطلقين قهقهات فرح.

لا يبدو لهذه الموجة الضاحكة من نهاية ففي كل مرة تلوح استراحة تُطلق نكتة جديدة ويعود الضحك من جديد.

واياك أيضاً انخرط في موجة الضحك.

ثم وبعد بضع لحظات، بدأ يبتسم ثم يضحك جهارة. لا يعرف لماذا يضحك؟ على مصائبه أم يضحك لضحكهم أم يضحك على هيئته... ضحك كما لو أنه مخدّرٌ وسرت في جسده حرارةٌ لذيذة وهرب إلى لحظات فطرية سعيدة ليتقاسم المزاح مع القبيلة.

وضع يده على صدره ذي الرسومات وقال بفخرٍ «أمغلو» وانفجر ضاحكاً.

الرسالة السادسة عشرة

شارلوت ڤالومبران.

ڤالومبران 8 نيسان 1868

السيد الرئيس.

نكنُ أنا وأخي لويس كل الامتنان على ما كتبتم من كلمات مطمئنة في رسالتكم في الخامس والعشرين من آذار أعادت الطمأنينة لنفوسنا المحزونة بغياب أخينا أوكتاف.

وبكل دماثة استجبتم لرغبتنا بنشر «مع الذكريات» في مجلة الجمعية، حقاً نشكركم من كل قلبنا.

يتطابق الرسم التقريظي الذي قدمتموه عن المرحوم وأعماله مع الذكرى التي نحملها له، ونتأمل فقط أن تحذفوا منه المقطع المكرّس للمتوحش الأبيض، فقضية بيللوتي لا تعود بالنفع للجغرافيا فهي وليدة عطفٍ كبير.

يقوم مجلس الإدارة بمشاورات حول تقريركم الملائم واقتراحنا بالموافقة على تبعات الوصية ونحن ننتظر بثقة توقيع العقد الذي سيُحرر أمام كاتب بالعدل.

قدَّم أوكتاف منذ سنتين مضت أغلب ما حمله من رحلاته كهدية لمتحف غرنوبل ورغم ذلك ففي عليَّة المنزل صندوقين تم جردها بعناية، فإذاً كانت تهم جمعية الجغرافيا جمعيها أو جزءاً منها فيسرني تسليمها لكم.

الصندوق الأول، صندوق بحارٍ من الجلد ذي المسامير يحتوي على كميةٍ من الملابس والقفازات والقبعات والوشاحات الخاصة بالمطر والبرد مصنوعة من الصوف الخام، غالبيتها مستخدمة ومرّقعة عند المرفق والركبة بالإضافة لإنجيل باللغة الأيسلندية كُتب عليه إهداءٌ بالألمانية ربما من القس الذي كان بحوزته كما يوجد سكاكين وإبر مختلفة الأحجام، وحجارة شطرنج محفورة من عاجِ حيوان بحري أجهله تماماً، وما بين الأغراض عثرت على لعبةٍ من الخرق البالية ونعلٍ ثلجيٍ وخطّافٍ من الفولاذ مزودٍ بريشٍ شوكي. أما الصندوق الثاني فهو أكبر حجماً تم صنعه بتواضعٍ حيث نجد فساتيناً وأحزمة مجدولة ملفوفة بورقٍ سميك، عصا محددة الرأس وجوزة هند حُفرت عليها رقعة شطرنج. كما عثرت فيه على اثني عشر طوقاً طويلاً من الأصداف الصغيرة البيضاء والصفراء وقناعاً قبيحاً من الخشب الأسود مطلياً باللون الأحمر بفمٍ معقوفٍ ولسانٍ ممدودٍ تقريباً. بالإضافة لثلاثة عصيٍ معدةً للحفر «وشوكة من الخشب القاتم بثلاثة أسنان معقوفة قيل أنها شوكة آكلي لحوم البشر»، ثم خمسة تماثيل خشبية توحي بشكل إنسان وثمانية حجراً عجيبة سوداء وخضراء وعملةٌ من «كانك». وفي حقيبةٍ نسيجية عثرتُ على كل أنواع الحبوب الغريبة وغطاء رأسٍ من ريش العصافير ملطخٍ بالرمال.

أخيراً عثرتُ على ورقة لأوكتاف كانت قد أفلتت مني سابقاً ويتحدث فيها عن جمعيتكم لم أعرف ماذا أفعل بها هل أمزقها؟ ما فهمت منها شيئاً. لابد أن أوكتاف لا يحبذ نشر مسودةٍ كهذه لأي كان ولكنني أعتمد على ما يربطكما من أواصر صداقة وعلٍ مكانتكم لعل فيها ما يعود بالنفع إذ يبدو أنه كتبها قبل وفاته ببرهة دون أن يركز أفكاره، سأرسل لكم بنسخة، حيث عنّف فيها شخصاً اسمه «لوري» اتكل على دماثة طباعكم.

خادمتكم المتواضعة والوفية

مع / ضد جمعية الجغرافيا

أخطأت جمعية الجغرافيا حيث أصابت. أخطأت في سعيها لسبر أسرار الشعوب المتوحشة، لا يمكننا معرفتهم مطلقاً، فمن يراقبهم سيغيرهم إن هذا الفضول مستحيلٌ ينبع من الوهم، إلا أنها محقة بأن تكون الأولى. يسعى الإنسان ذو البشرة البيضاء لسبر كل ما يبرز من أرضٍ لذا فمن الأفضل أن يكون الاتصال الأول مع رجل لامع مرتزقٍ همجي [2 كلمةٌ غير أكيدة] أو قسٍ أو تاجرٍ لا هم له سوى الربح.

عندها لن تحافظ الغابات على كثافتها ولا الصحاري على قحطها.

المهم هو السلام والسلام في الهرب.

قرأتُ في العدد الأخير من مجلة جمعية الجغرافية مذكرةً طويلة كتبها «لوري» عن هنود شمال الكيبك. لوري والحمقى! روى له هؤلاء المتوحشون الظريفون كل شيء ولكن بالعكس بالطبع هو ما فهم شيئاً، فكرر حكاياتهم كالببغاء دون أن يطرح على نفسه أي سؤالٍ.

رووا له أكاذيبهم بالإنقاذ، أظن أن الخطة الوحيدة الممكنة هي هروب الهنود وهروب ن. ب وأبناء ن. ب هربوا وبقيت وحدي.

[ثلاثة أسطر غير مقروءة ما عدا كلمة استراليا.]

متوحشٌ بين المتوحشين، متوحشٌ من أجل المتوحشين.

هناك في حديقة الحاكم، شاهد البحر من أعلى الجدران.

الحركة أهم من النظر [؟ أو مهمة؟ كلمة غير مؤكدة]

ن. ب هرب ليحظى بالسلام. ماذا عن ابتسامته طيلة الجلسة العامة لجمعية الجغرافيا.

ما هو السلام بالنسبة لمتوحشٍ؟ وما قيمته؟

ن. ب ليس [4 كلمات غير مقروءة]

من حافة العلوم الإنسانية الأخرى والتي كنتُ الأول للدنو منها، لست واثقاً من لقائنا مجدداً سيدي الرئيس.

هروب ن. ب إخفاقٌ شخصي وهبةٌ علمية.

هروب ن. ب شكل لي خيانةً واعترافاً ووعداً ودليلَ ثقة وصداقة وللأسف نوعاً من الانتظار العلمي.

17

حدّق بالجزيرتين الغافيتين وسط الخليج، الأولى مكسوة بنبات رهم وسعف خضراء لامعة تتمايل بين يدي النسمات. والثانية عقيمة تماماً مجرد كومة رملية تعكس النور الشاقولي.

يجمع واياك الأصداف. لوّح له وأشار لكاحله الأيسر حيث اعتاد على الوشوم.

صار يعرف بعض الكلمات.

علمه «العريف البحري» كلمة الشمس. اسمه هو الشرق. هواء الشرق.

علمته المرأة العجوز كلمة الماء، القربة، الدموع والبركة الغافية في تقرحات السواقي الأبدية. وأعطاه واياك كلمة النمل، اسمه هو.

والمرأة العجوز علمته أيضاً ما هو شهيٌ للأكل وماهو غير شهي للأكل.

علمته المرأة العجوز أيضاً كلمة النار والموقد والخشب الذي تحكه والشجر الذي يؤخذ من لحائه هذا الخشب وحبوب الحمى.

علمه شومينو كلمة الاشمئزاز والقرف والكلمات التي نتمتم بها مساءً لإبعاد المخلوقات المزعجة ليلاً.

علمه واياك كلمات تعال وانتظر.

أعطته المرأة العجوز كلمة هدوء، اسمها.

أعطته كلمة الصيد، الحيوان يقفز على قسمه الخلفي متكئاً على ذيله الطويل.

أعطته كلمة النوم دون أحلام.

وجالت في رأسه كلماتٌ لا نفع لها ...

«نارسيس بيللوتي. سفينة شراعية. سان بول.»

علمه العريف البحري كلمة الرمح القصير، اسمه هو. كوكبة النجوم والصليب الجنوبي العالق في سماء جنوبية.

أعطته المرأة العجوز كلمة غني معاً وعزف الإيقاع باليدين و النقر بعصا على حجرٍ لإيقاع أقوى. التمتمة بصوتٍ منخفض مع الآخرين مع كل الآخرين.

ماذا جرى للمتوحش الأبيض

في منتصف القرن التاسع عشر، هُجر "نارسيس بيللوتي" وهو بحارٌ فرنسي، على أحد شواطئ استراليا المجهولة على أنه قد لاقى مصرعه بشكلٍ غامضٍ وغادر طاقم سفينة "سان بول" غير آبهين بمصيره. ليمر بعدها ثمانية عشر عاماً وتعثر عليه سفينة "إنكليزية".

عاش عارياً وتغطي الوشوم جسده، تعلم الصيد من مضيفه وفقد لغته الأم وهكذا بدأت أسطورة المتوحش الأبيض.

ماذا جرى خلال هذه السنوات الثماني عشر؟ وكيف أصبح متوحشاً؟ هذا اللغز الذي يحاول فك رموزه "أوكتاف ڤالومبران "جغرافي كريم استقبل "المتوحش الأبيض" في سيدني وحصل على موافقة القنصل الفرنسي ليعهد بذاك الشاب، فَيدرس وضعه ويعيده إلى الحضارة. مهمةٌ مليئةٌ بالغرائب في قرنٍ من الزمن لم يكن يعرف بعد "علم الإناسة". حيث هيمنت الأحكام العرقية المسبقة على الأفكار بالإضافة للنظرية الوضعية لأوغست كونت.

تأسرنا هذه الرواية بلغتها الرفيعة وصياغتها المميزة ويشدنا سرد هذه المغامرة الشيقة بترابط غاية بالمهارة والفطنة.

حقيقةً، يضم العمل رؤيتين تتناوبان بشكلٍ منطقي شيّق، ليفسر الماضي الحاضر. فالرؤية الأولى تتناول حياة "نارسيس بيللوتي" في حضن قبيلةٍ من المنطقة وتروي كيف أمضى بينهم ثمانية عشر عاماً يداعبه في البدء بل يعذبه الأمل برؤية قاربٍ ما يشق العباب ثم يلفه النسيان رويداً رويداً ويغرق في حياة المتوحشين الذين علموه الصيد والحلاقة والرقص، غاب اسمه أيضاً مع النسيان ليصبح "أمغلو" وترعاه السيدة العجوز كأمه ويصبح "واياك" الغلام الصغير صديقه فجهله بحياتهم جعله بنظرهم طفلاً.

أما الرؤية الثانية فنقرؤها عبر الرسائل الأربع عشرة التي كتبها "أوكتاف ڤالومبران" إلى رئيس الجمعية الجغرافية في باريس ليوضح التطور الذي تشهده مغامرته مع المتوحش الأبيض الذي غابت تقاليدُ حياته كبحارٍ مع أشرعة سفينته الغائبة، فيظهر لنا معاناته باسترجاعها بدءً بارتداء الثياب وتناول الطعام والتحدث بلغته الأم مروراً بعائلته التي تفتت بينه وبينهم روابط الدم فيقبل واقعه القديم كما يُقبل القدر، دون نقاش. بيد أنه آثر الصمت على الكلام حتى بعد أن استعاد قدرته على استخدام اللغة قائلاً: "الكلام يعني لي الموت".

نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com
9789933509088